

رواية السبعين

نادية



مكتبة مصر

عمارة

الجزء الثاني



يوسف البتايي

شاهوت

الجزء الثاني

(٢٩)

دعوة في الأوهام !

- رفعت « نادية » رأسها ونظرت إلى « منى » وتساءلت في صوت حزين :
- ولماذا أفكر في النهاية منذ الآن ؟!
- لأنها آتية .. آتية .
- وهل تفكرين أنت في نهاية حياتك ؟
- نهاية حياتي أحس بها بعيدة .. وقد أفكر فيها عندما تقترب .
- وأنا أيضاً .. أحسن بالنهاية بعيدة .. إننى ما زلت في بداية أمتع مراحل عمرى ، لم أتصور قط ، أنه يمكن أن يكتب إلى .. يكتب إلى وحدى .. ويسألنى صورتي .
- وهل تنوين أن ترسلى له صورتك ؟!
- وخيم على « نادية » سحابة غم ومدت يدها بلا إرادة تتحسس عنقها وتشد الإيشارب عليه وقالت هامسة :
- أرسلى صورتي ؟ .. لم لا ؟! .. إن عندى صوراً قديمة قبل الحادث ، والصورة التى صورتها عند « أركان » .
- ذات الضفيرة المدلاة على كتفك ؟!
- أجل .
- التى تبدين فيها كطفلة صغيرة ؟
- ألا تعجبك ؟!
- بالعكس . إنها تعجبني جداً .
- ومدت « نادية » يدها إلى أحد أذراجها وأخرت يدها ظرفاً أخذت تقلب ما به

حتى أخرجت منه صورة في مساحة « الكارث بوستال » .
ونظرت إليها « منى » وهى تقول :
— جميلة جداً .. ولكنه لن يرد عليك بعد ذلك .. لأنه لا يمكن أن يتوقع أنه
يراسل طفلة بصفائر .

— ولكنى سأوضح له أنها صورتي منذ بضع سنوات .
وهزت « منى » رأسها ، ثم تناولت رسالة صبرى .. وألقت نظرة على
صفحاتها المكتظة بالكتابة وتساءلت :

— ماذا يريد أن يقول بكل هذا اللت !؟

— اقرئها .. ستفيدك جداً .

— من أى ناحية !؟

— ستضيف إلى معلوماتك أشياء كثيرة .

— ليس لى وقت لهذه المعلومات .. لقد انتهيت من الدراسة .. هل قال إنه
يجبك ؟

وضحكت « نادية » قائلة :

— ليس بعد .. ولكنه يتمنى أن أكون بجواره فى مصر لأرغب الأحداث
الضخمة التى تمر بها مصر .

— مثل !؟

— إعلان الدستور .

وتناولت « نادية » رسالة صبرى وأخذت تقرأ لها :

« لو سمعت جمال عبد الناصر وهو يقف بين الشعب ليعلن سيادة الشعب لا
سيادة الأمراء .. ولا سيادة الحكام .. ويعلن أن الثورة ثورة بناء وثورة تعمير ..
لأحسست فى نفسك بمثل ما أحسست ، ولأفعم صدرك يا « نادية » ما أفعم
صدري من أمل فى أننا عن قريب سنصبح شعباً عظيماً .. » .

وهزت « منى » رأسها وقالت جادة :

— اسمعى .. عندما تكتسبين الرد .. وجهيه مباشرة إلى « جمال عبد
الناصر » .. لأن نصف رسالته من خطابه .. وأعتقد أن « جمال » أولى بالرد .
وردت « نادية » قائلة :
— إن « جمال » هو الذى يتحدث بلسان الشعب ولهذا يحس كل فرد بأنه هو
المتحدث .

— اسمعى .. اسأليه .. باختصار .. متى ينوى أن يقول إنه يحبك ؟
— لا تسخرى منه يا منى .. إن لديه آمالا كباراً .. وبه وبغيره ممن تمتلئ
قلوبهم بهذه الآمال ، سيتحدد مصير مصر ، وتحقق حريتها .
وهزت « منى » رأسها وقالت :
— ربما .

ثم أردفت وهى تغادر الحجرة :
— أستحضرين حفلة مدام كلود ؟
وأجابت نادية :
— طبعاً .

— إذن اعتذرى لها عنى .. لأنى أكره هذه الحفلات الجنائزية .
— لا تكونى سخيفة .. إنها سيدة رقيقة وهى تجاملنا فى كل مناسبة .
— لو ذهبت فسأقلب لها حفلها المحترم .. إلى حفل راقص .
— أوكد لك أنها لن تتضايق .
— سأذهب على أن تذهبنى معى للعب « تنس » .
— أنا متعبة يا منى .
— سأسمح لك بأن تصحبنى معك شريكاً .
— من سيرضى أن يلعب معنا الآن ؟!
— صاحبك .. الذى قررت أن تدعيه إلى كل رحلاتك ونزهاتك . ألم
تسأليه أن يدعوك إلى لعب الكروكيه ؟!

وضحكت « نادية » قائلة :

— ولكن لم يدعنى بعد .

— ادعيه أنت إلى « ماتش تنس » .. وسيستحي هو ويدعوك إلى الكروكيه .

وضحكت « نادية » .. ودب النشاط في جسدها ، وهى تتخيل مدحت

يسير بجوارها وقد أمسك بمضرب التنس .

وقالت وهى تنهض :

— معك حق .. سأريه كيف تكون الدعوة .. فى الأوهام ، بين السطور

والكلمات ، حتى يتعلم كيف يدعوفى .

وتناولت الفتاتان قطعيتين من « الساندويتش » ثم انطلقتا إلى النادى القائم عند

المنحدر .

وفى المساء كانت « نادية » قد دخلت إلى نفسها فى حجرتها ، وقد ساد

السكون إلا من نباح متقطع للكلب الرابض بجوار حجرة « بول » .. ووصفير

الريح ، تقطعه طرقات شباك لم يحكم غلقه .

وجلست « نادية » أمام منضدتها الصغيرة التى تستعملها للكتابة ، وأزاحت

الزهريه التى وضعت بها ثلاث قرنفلات جانبا ، حتى تفسح مجالا للكراسة

الزرقاء وأعدت تلاوة رسالة مدحت .. وأخذت تزن فى رأسها كل كلمة منها .

ثم بدأت تكتب وبنفسها شعور الرهبة الذى يملكها كلها همت بالكتابة

إليه .. والذى يدفعه فى نفسها إحساسها بأن على كل رسالة تكتبها يتوقف مصير

هذا الأمل الذى شع فى حياتها .

ونظرت إلى كلمة « عزيزقى » التى بدأ بها رسالته .

إن لها وقعا حالمأ فى سمعها .. إنها تشعر بالأثر الذى تركته فى نفسه .. والمدى

الذى قطعته علاقتهما معاً ، فى تلك الرسائل الأربع ... ولكن هل تستطيع هى أن

تناديه .. كما ناداها !؟

بوّدها لو استطاعت أن تفعل ، ولكنها لا تجرؤ .
إنها تحس بأنها تتجاوز حدودها لو فعلت .
تحس بأنها .. قد طمعت .. وتحشى أن يفقدها الطمع ما جمعت . كما يقول
المثل .

وبلا إرادة .. خط قلمها « سيدى العزيز » .
وأحست للنداء .. بشيء من ارتياح .
أجل !. إن في هذا الكفاية على الأقل هذه المرة .
وتمهلت لحظة ، ثم اندفع قلمها على الورق محدثاً صاحب الرسالة :
« كيف حالك .. وحال مرضاك .. وعملياتك وطلبتك !؟
« أتسمح لي أن أنتشلك من بين هذا كله .. لأصحبك في جولة سريعة في
بلدنا الصغير .. لا تقل ليس لديك وقت فأنا أعرف أنك تستطيع اختطاف
بعضه .. للنادى .. وللكروكيه .

« دعنا اليوم من النادى ، وهيا بنا نطلق بين المزارع ، ثم ننحدر على السفح
وندقء نفسينا ببعض ضربات «تنس» ، ثم نذهب إلى منزل مدام كلود .
« من هي مدام كلود .. ألم أحدثك عنها أبداً ؟
« لا بأس .. إني لم أحدثك عن شيء بعد .. لم أحدثك إلا عن نفسى ،
وحتى حديثى عن نفسى لم يتعد لجلجة الخائف الوجل .. وارتباك المستحى
المعتذر .

« سأحدثك عن أشياء كثيرة فيما بعد .
« ليس الآن ، لأنه لم يعد لدينا وقت .. إن « منى » تستحنا وتصيح بصوتها
الصاخب من أسفل السلم .
« منى .. من ؟ حتى هذه لم أذكرها لك .. عجيبة !! إنها أختى التزومة
الملاصقة لى .. منذ أن رأينا النور سوياً حتى الآن
« كان يجب أن أقدم لك نفسى بطريقة خير من هذه وأن أعرفك على الأقل

بهؤلاء الملاصقين لى : أمى الخنون الصامتة ، وجدنى الطيبة .. المترثرة ،
وجانيت قريية أمى .. التى تعيش معنا .. وبول العجوز .

« كان يجب أن أعرفك بكل هؤلاء .. وأن أعرفك كيف أعيش ، وأن أصف
لك « جاب » التى أعيش فيها .. وأصف لك القمم البيض .. والمياه المنحدرة
والأشجار المتكاثفة على سفح الجبل ، والبحيرة المنبسطة أعلى القمة ، والشمس
المشرقة على المنحدر .

« أشياء كثيرة كان يجب أن أحدثك عنها ، قبل أن أندفع فى دعوتك معى
كالبلهاء ، ولكننى لم أفعل .. قد يكون عذرى اعتقادى أنك تعرف كل هذا ،
لأننى أعرف كل شئ عنك. أعرف هؤلاء المحيطين بك .. أعرف هؤلاء الذين
يلعبون معك الكروكيه .. أعرف صديقك « جاد الله » الذى أرجح أنه هو بعينه
صاحبك الذى قلت عنه فى رسالتك : إنه يحتفظ بصورتك .. حتى « ميرفت »
خطيبتك أعرفها .

« أعرف كل هذا ، لأنى كنت أجلس أرقبك فى صمت من بعيد .. وأنت لا
تشعر بوجودى ، وقد توهمت أنك تعرف عنى ما أعرف ، واندفعت أدعوك
لصحتى ، ناسية أنك لا تعرف عنى إلا بضعة الأسطر الوجلة التى بعثت بها إليك
فى رسالتى .

« عذراً .. سأعرفك بكل هذا ، إذا أردت أن تعرفه طبعاً . .. وإذا لم أثقل
عليك به .. أما الآن .. فليس لدينا وقت .. هيا بنا .. إن « منى » قد بدأت
تسب .. وهى إن لم تكن تعلم .. ورقة .. قليلة الأدب .. لا تحتفظ كثيراً فى
ألفاظ سبابها ، وأخشى أن يصيبك منها ، ما يغضبك .. هيا بنا .

« هل المعطف معك .. إن الدنيا برد ، برد أكثر مما تتصوره . ارتده ، فأمى
لن تسمح لك بالخروج ، دون أن ترتديه ، ستلقاها فى القاعة أمام المدفأة ، هى
وجدنى ، وجانيت وسيحاولن استبقاءك بالطبع للجلوس معهن أمام النيران ،
ولكن دعهن وانطلق بسرعة من الباب .

« لا نخش من بول .. إنه لطيف .. ولن يعضك .
« أنا أعنى « بول » الكلب طبعاً ، وليس « بول » الخادم ، وإن كنت لن
تستطيع أن أن تفرق بينهما كثيراً .. لا شكلاً ولا موضوعاً ..
« هل تعجبك هذه القرنفلة البيضاء التى تترنخ على عودها ؟ سأقطفها لك ..
إنى أحب القرنفل جداً .

« أنت لا تهتم كثيراً بالزهور .
« أكاد أعرف عنك هذا .. ليس لديك وقت لتأملها والتفكير فيها !!
« إنى لا أفرّك على هذا .. إن فى حياتنا أشياء كثيرة ، صغيرة .. تستحق أن
نتوقف أمامها ونأملها .. لا يجب أن نركز حياتنا فى عمل معين ، نرى كل شىء
تافهاً بجواره ، لأن حياتنا هى فى ذاتها ، مجموعة تفاهات .

« هل أتفلسف عليك ؟!
« أنت بالطبع تكره الفلسفة .
« أنا أيضاً لأحبها ، ولكنى فى بعض الأحيان ، أحب أن أفكر ، ثم أعبّر عن
تفكيرى .

« هيا بنا .
« مارأيك فى « منى » ؟
« إنها لطيفة جداً .. ومضحكة جداً . وهابفة جداً .
« لا تأخذ على كلامها كثيراً .. وإذا شتمتك .. فصهين .
« إن البرد شديد القسوة .. أتحب أن نعدو ؟
« هيا بنا .

« قف .. هذا هو النادى .. ليس كبيراً بالطبع كنادى مصر الجديدة ..
ولكنه لطيف جداً .. وبه مدفأة تشبه مدفأة نادينا .. أعنى المدفأة الكبيرة التى
تتوسط القاعة القديمة ، وبه نافذة زجاجية عريضة كنافذ الشرفة المطلة على
النافورة .

« ولكن المنظر الذى نطل عليه .. أجمل كثيراً من النافورة .. سترى منها
منظر الجبال تمتد أمامك بسفحها الأخضر وقممها البيض .. وسترى منها من
الجانب الآخر أسقف المدينة بمداخنها وشريط سكة الحديد يمتد أمامك .
« ستبصر منها المدرسة التى أعمل بها أيضاً .. والسنديانة الضخمة القائمة
بجوار المحطة .

« أتريد أن تبديل ملابسك .. هذه حجرة الرجال .
« لن أغيب عنك أكثر من بضع دقائق .. حتى أبديل ملابسى .
« سنلعب أنا وأنت فى جانب .. و « منى » والممرن فى جانب آخر
« خذ بالك .. لا تعتمد علىّ كثيراً .. أنا لا أجيد اللعب . لا تترك لى إلا
الكرات السهلة وإلا أضعت عليك المباراة .

« أجاهز أنت ؟ هيا بنا . إن البرد يكاد يجمد الأطراف . ولكن اللعب
سيدفئنا وسنشرب الشاى أمام المدفأة بجوار النافذة الزجاجية التى حدثتك عنها ..
أو إذا شئت نتجه رأساً ، إلى منزل مدام كلود .
« أتدرى .. أى سعادة أحس بها لصحتك .

« لم يخطر على بالى قط .. أن لعب التنس يمكن أن يكون ممتعاً بهذا القدر ..
لماذا تقطب وجهك هكذا ! أهى تقطبية العادة .. لا .. لافك عقدة وجهك ..
يجب أن نضحك نحن الاثنان مادامنا معاً .. أجل .. هكذا .

« هل تدرى أن هذه أول مرة أراك تضحك ؟

« ارم أنت السيرف .

« خذ بالك لا تتكل علىّ .

« لقد بدأنا نحس بالدفع .

« لقد تعبت .. بدأت ألهث .. هذا الممرن الماكر .. يأبى إلا أن يقذف كراته

عندى .

« إنى لا أكاد .. أصدها . »

وأتكأت « نادية » بظهرها على المقعد ، ورفعت رأسها وحركت ذراعها ،
وهي تحس كأن اللعب قد أجهدها
وفجأة فتح الباب وبدت « منى » على الباب بالبيجامة وهي تشاءب
متسائلة :

— أما زلت مستيقظة ؟

ثم نظرت إلى الكراسة ، وإلى صفحاتها المليئة وتساءلت في دهشة :

— أكتب كل هذا ؟! أوجدت كلاماً تقولينه ؟!

وأسندت يديها على كتفي « نادية » وانحنت فوقها محاولة أن تقرأ ما كتبت ،
وهي تقول محذرة :

— إياك أن تكوني قد كتبت له عن الدستور

وضحككت « نادية » قائلة :

— لا تخافي . إني لأحسن الظن به بهذا القدر

— ماذا كتبت له إذن ؟

— عباطات .

— كيف ؟

— لقد دعوته لمرافقتنا إلى نزهة .

وضحككت « منى » قائلة :

— ما شاء الله .. ثم تهيمتني بعد ذلك بالهيافة .. أرىني ما كتبت .

وهبت بتناول الكراسة ، ولكن نادية أقبلت عليها قائلة :

— عندما أنتهى منها .

وكانت « منى » تجرى بعينيها بين السطور واستطاعت أن تلتقط اسمها ..

فهتفت قائلة :

— ماذا قلت له عنى ؟!

ثم أخذت تقرأ :

« ما رأيك في « منى » ؟ إنها لطيفة جداً .. ومضحكة جداً .. وهايفة جداً ».

وصاحت « منى » وهى تمسك نادية من عنقها :

— أنا .. أنا الهايفة ؟. أنا التى أدعو الناس فى القاهرة ؛ كى يلعبوا

معنا « تنس » فى « جاب » !

ثم عادت تنظر إلى الكراسى لتقرأ :

« لا تأخذ على كلامها كثيراً .. وإذا شتمتك فصهين ».

وصاحت ضاحكة فى دهشة :

— ما هذا !! أجننت ؟

— ألم تشتميه !؟

— وماذا قلت عنى أيضاً ؟

— لقد لعبنا « تنس » .. أنا وهو ، وأنت مع المدرب .

— وغلبنا !؟

— طبعاً .

وضحكت « منى » قائلة :

— ولماذا لا تفعلين .. تستطيعين أنت وصاحبك الغشيم أن تتغلبا على أبطال

العالم جميعاً .. ما دمتما تلعبان على الورق .

وربتت « منى » ظهر نادية وأردفت قائلة :

— عن إذنك . لا أريد أن أوقفك عن تكلمة « الماتش » تفضلى .

وأجابت « نادية » ضاحكة :

— لقد انتهينا من الماتش .. ونفكر الآن فى الذهاب إلى مدام « كلود » أو فى

تناول الشاى فى النادى .

وردت « منى » فى لهجة جادة :

— مدام كلود أرخص .. النادى سيكلفنا كثيراً .. وسيطير المبلغ الذى

ادخرته للراديو .

وضحكت نادية وهى تقول :

— معك حق .. ليس لدينا وقت .. يادوبك .. مدام كلود .

وغادرت « منى » الحجرة وهى تهز رأسها قائلة :

— أخشى عليك أن تُجنى من هذه الدعوات الوهمية .. فقد تكفين عن

الذهاب إلى المدرسة .. وتكفين بدعوة المدرسة إليك .

وأغلقت « منى » الباب .. وعادت « نادية » تسترسل فى الكتابة .

وفى الصباح قبل أن تهبط للإفطار أعادت قراءة الرسالة .

وأحست بعد قراءتها أنها اندفعت ، فى كتابتها ، بطريقة حمقاء بلهاء ،

وأمسكت بها بين أصابعها برهة وهى تهم بتمزيقها .

ولكنها .. بدل أن تمزقها .. طوتها .. ثم وضعتها فى الظرف .. ووضعت

معها الصورة ذات الضفيرة .

ماذا تخشى .. بعد أن اندفعت كل هذا الاندفاع ؟!

إن المسألة برمتها ، حماقة كبرى .. فلم هذا التردد ؟!

إن الحماقات كلها تتساوى .

وخير لها أن تكون حمقاء شجاعة .. من أن تكون حمقاء مترددة .

وقبل أن تصل إلى المدرسة اتجهت إلى المحطة ومدت يدها بشجاعة ..

ووضعت الرسالة فى صندوق البريد .. كأنها تقطع كل خيط للتردد والحيرة .

وبعد أربعة أيام .. كان الخطاب الأحمق ، قد انتقل من الصندوق المعلق فى

محطة « جاب » .. ليستقر فى يد « زكية » المرّضة .. وقد سارت تحمله إلى

مكتب مدحت .. وقبل أن تصل إلى المكتب رآها « جاد الله » وهو يسير فى الممر

ولمح فى يدها الظرف ذا الخطوط الحمر والزرق ، فصاح بها :

— لمن هذا يا زكية ؟!

— للدكتور مدحت .

وأمسك « جاد الله » الرسالة ووزنها في يده ، ثم تحسسها بأصبعه .. وأحس بصلابة الصورة في داخلها .. فاندفع إلى حجرة مدحت وهو يهتف به ضاحكاً :
— خذ .. أرني شكلها بسرعة ، حتى أرى إن كانت تستحق كل هذه الهبضة .

ونظر إليه مدحت متسائلاً في دهشة :

— من هي !؟

— صاحبك .. ساكنة الألب .. افتح الرسالة بسرعة وأرني شكلها

— وماذا يهمك من شكلها ؟

— لو كانت قبيحة . فسأخرب بيتها . لن أجعلك ترد عليها .

وضحك مدحت قائلاً :

— ومن أدراك أن بها صورة !؟

— افتح . وسترى .

وفتح مدحت الرسالة ، ومد أصابعه فسنحب الصورة .. ونظر إليها .. وبدت على ملاحظة علامات الدهشة ، ومضت لحظة ، وهو يحملق فيها دون أن يتكلم ، ولم يطق « جاد الله » فمد يده وخطف الصورة قائلاً :
— يا أخي هات . مالك تنظر إليها كالأبله .

ونظر « جاد الله » إلى الصورة في ذهول ، ثم هتف قائلاً :

— يا بنت الإبه .

ثم صمت لحظة ، وهو يتأمل الصورة قائلاً :

— جميلة جداً .. ولكنها صغيرة جداً .. غير معقول أن تكون هذه هي التي كتبت كل تلك الرسائل . إنها من كتابتها تبدو ذكية .. عاقلة .

وقلب « جاد الله » الصورة وقرأ التاريخ المكتوب عليها — نوفمبر ١٩٥٢ —
وهز رأسه وعاد يتأمل الصورة قائلاً :

— هكذا معقول .. إنها صورتها منذ ست سنوات ، لا بد أنها الآن نمت

واكتملت .

ثم سلم الصورة لمدحت ، وهو يردف قائلاً :
— حلال عليك يا عم . كنت ستضيعها بوجهك المعقد . عسى أن يشمر
فيك .. خسارة في جنتك .

ونظر إليه مدحت زاجراً ، وهو يقول :

— ما هذا السخف !! ما هذه التي هي خسارة في جنتي ؟!

— بنت كاللوز .. إن لها عينين هائلتين ؟!

— ماذا تظنني فاعلا بعينها يا غبي ! إني أكتب إليها مجرد عطف .

— مفهوم .. مفهوم .. إنه أحياناً ، يبدأ عطفاً .

— ما هو هذا الذي يبدأ عطفاً ؟!

— الحب يا أستاذ .

— حب .. أنت مجنون .. أنا أحب .. فتاة تسكن قمم الألب ؟!

— ولم لا ؟! البعيد يقرب .

ونظر إليه مدحت في غيظ وقال له :

— اسمع يا « جاد الله » ، أنت تعرف أنك الذي دفعتني إلى الرد عليها ..

فإذا أصرت على هذه السخافات التي تقولها بأمرق الرسالة والصورة ..

مفهوم ؟

وضحك جاد الله واختطف الصورة والرسالة من يده قائلاً :

— أنت مجنون .. إني أمزح . ما ذنب البنت المسكينة . أما مغفل صحيح .

وأخذ جاد الله يقرأ الرسالة بصوت عال ، ولكن مدحت خطفها من يده

ناهراً :

— ما هذا أيها الغبي ! أتريد أن تلم علينا الممرضات ، ماذا يقلن ؟!

— لا مؤاخذة .. نسيت أنك راجل حشمة ووقور ومحترم .

وأخذ في القراءة ، ومدحت ينظر إليه في غير اكتراث وكأن الرسالة لا تهمه

حتى انتهى من قراءتها وسلمها إليه قائلاً في تأثر :

— بنت هابله .. تصوّر .. إنها تعرفني ، وتعرف ميرفت . إنها لطيفة جداً
وفي منتهى الذكاء .. وإن كانت أختها تبدو قليلة الأدب .
— أختها ؟

— أجل .. إنها دعوتك إلى النادي وعرفتك بجميع أفراد العائلة . حلال
عليك .

وتناول مدحت الرسالة وأخذ يقلبها بلا اهتمام وهو يقول :

— كلام فارغ ولعب عيال ، لن أجيّب عليها الآن .
— أيها الغبي إن الرسالة في منتهى اللطف ، والله لا تستحقها .

— إذا كنت تريدها فخذها .. اشبع بها .

— لو كانت ترضى أن أكتب إليها .. لفعلت .

— لماذا لا تجرّب ؟!

ونظر « جاد الله » إليه وقال له في غيظ :

— اسمع .. اقرأ الرسالة أولاً ولا تكن مغروراً . إن الغرور سيقتلك .. السلام

عليكم .

وقبل أن يترك « جاد الله » الغرفة قال له :

— اسمع .. إنها تريد منك صورة كبيرة ، تضعها أمامها في إطار .. وأنصحك

أن تذهب من الآن لتصوّر صورة محترمة غير صورة المشردين التي أرسلتها إليها ،

حتى لا تؤذى عيني البنت الرقيقة !! مفهوم ؟.

(٣٠)

رد على دعوة !

عندما غادر مدحت المستشفى ظهر اليوم كانت رسالة « نادية » ما زالت عالقة بذهنه .

لقد استطاعت الرسالة ، رغم تظاهره بالا ستخفاف بها وادعائه بأنها عبط ولعب عيال .. أن تتسلل إلى نفسه .

لقد أحس بجرارتها ، وبساطتها وصدقها .

أحس بأنه يمك يد صاحبها ويعدو بها على المنحدر وسط البرد المتساقط ، وبأنه يصد عنها كرات « التنس » وبأنه يجلس بجوارها أمام المدفأة يحتسى الشاي .. وينصت إلى أصابع مدام « كلود » وهى تعزف البيانو فى دقائق بطيئة متقطعة .. تنساب إلى النفس .

إنها حملته إلى جو روائى عجيب .. كذلك الذى كان يعيش فيه ، وهو يقرأ قصص « شارلس جارفس » فى صباه .

وأحس بأنه يتوق إلى أن يسمع أنغام « الفالس داديه » الذى ينساب إلى أعماق الفتاة الشقراء ذات العينين الواسعتين والضمفيرة المدلاة من وراء كتفها .

إنها تبدو صغيرة جداً فى صورتها تلك .

لماذا لم ترسل له صورة حديثة ليعرف كيف تبدو ؟ ولكن ما له بها !

لماذا يفكر فيها كل هذا التفكير .

لتبدو كما تبدو !!

يجب أن يكف عن منحها مثل هذا الاهتمام ، وألا ينزلق معها إلى « عبطها » .. إنه لا يستطيع أن يكتب إليها بالطريقة التى كتبت بها .. إنه سيكون مضحكاً جداً .. لو حاول أن يبادلها بدعوة .

ماذا يمكن أن يقول لها ؟ وإلى أى مكان يدعوها ؟
هل يستطيع أن يدعوها بنفس البساطة التى دعته بها ؟
يدعوها مثلاً إلى « ماتش » سكواش .. ثم إلى الغداء فى النادى كما ينوى أن
يفعل الآن ؟

هل يستطيع أن يقول لها .. لا تقلقى .. سأمر عليك بعد دقائق لأصطحبك
معى إلى النادى .. ولا تتناولى الغداء فستتناوله معاً بعد الماتش .
لا .. لا .. لن ننتظر .. دعى « منى » تتناوله وحدها .
لتشتم وتنفلق .. إنى أعرف كيف أريها ، عندما أراها .
وكان مدحت قد هبط إلى فناء المستشفى واتخذ مجلسه أمام عجلة قيادة
السيارة وذهنه قد شرد فى دعوته الوهمية . وما يمكن أن يقول فيها .
هل يستطيع أن يصف لها الطريق ؟

لِمَ لا ؟
إنه حقاً .. لا يبدو رائعاً .. كالطريق الجبلى المنحدر . ولكن له خصائصه ،
ومعالمه .

لِمَ إذاً لا يصفه لها .. بنفس الدقة التى وصفت بها طريقها ؟ لِمَ لا يعبر بها بوابة
المستشفى وينحدر بها يساراً عند عسكرى المرور ؟
إن الجو ليس بارداً جداً .. لا يمكن بالطبع أن يصل للدرجة التى وصفت بها
قمم الألب ، ولكنه مع ذلك بارد ، وكتل الغيوم السود تتزاحم لتقطع الطريق
على أشعة الشمس .

هل تذكرين معالم الطريق .. أم أذكرك به ؟
هذا ضريح « أحمد ماهر » بقبته الضخمة المرتفعة ، والبناء العالى وراءه هو دار
الشفاء ، وحول الضريح ينبسط المتتره الصغير ذو الرقعة النجيلية الخضراء ،
ازدحم بها أطفال ونساء العباسية .. واختلط النجيل الأخضر من حولهم بقشر
« اليوسف أفندى » و « مصاصة القصب » .

أتجيبن عصير القصب؟!
إني أحبه جداً .. وخصوصاً في الشتاء .
سأتوقف بك عند أول بائع عصير . كويتين من فضلك . ما رأيك في لونه
الكهرماني ، وفي الرغاوى البيض التي تملوه .. كأنها « الشمبانيا » ؟
لا تجيبن الشامبانيا؟! ولا أنا .. لا .. لا .. ولا أحب أى شيء به كحول ..
أحب البرتقال والمنجة . والقصب ؛ والطماطم أحياناً .
أترين بائع « البطاطا » الذي يقف بعربته على الرصيف المقابل .. جلس على
ذراع عربته والتف بالمعطف الكاكي ولف رأسه « بالتلفيعة » .. أترين الدخان
المتصاعد من مدخنة الفرن؟!
ما رأيك ؟
أتجيبن منظره؟! حقاً؟!
وتجيبن « البطاطا » أيضاً ؟
ولكن ليس هذا وقتها يا نادية لا داعي لأن تتخمي نفسك « بالبطاطا » قبل
اللعب ، وقبل الغداء .
سأبتاع لك منها وقتاً آخر .. أى وقت .. لا داعي للهفة الآن .. لا بد أن
نسرع إلى النادي .. حتى لا نجد الملاعب قد ازدحمت .
ما رأيك في ميدان العباسية؟! لقد تغير كثيراً .
هل مررت بالنفق؟!
إنه في نظري خير ما قامت به الثورة .. لي شخصياً .. لقد وفر عليّ ثلاثة
أرباع وقتي وثلاثة أرباع أعصابي .
هل تصدقين أنني ما مررت بالزلقان .. إلا وجدته مغلقاً!!
لقد ضربت خفير الزلقان ذات مرة
كنت على وشك أن أعبر الزلقان بالعربة عندما رن جرس الزلقان مندرأً
بمجيء القطار .

ولم يكن هناك أثر للقطار .. وكنت واثقا أنه لن يمر بالمزلقان قبل بضع دقائق ، فضربت « الكلاكس » للخفير علّه « يستذوق » ويتمهل في إغلاق المزلقان حتى أمر ، ولكن الخفير نظر إليّ باحتقار واستمر في سحب المزلقان .
وصحت به أرجو :

— وحياة أبوك .. ثانية واحدة حتى أمر .

ونظر إليّ الخفير ، ثم أشاح يده بمنتهى الاحتقار قائلا :

— يعني وراك إيه !! مجلس الثورة يا خنى !؟

ولم أطق صبراً ، وهبطت من العربة وأنا أغلى . ورفعت يدي وصفعته قلماً
رن في جميع أرجاء المزلقان . وقلت له نائراً :

— ورايا .. أرواح الناس .. ورايا عملية .

ونظر إليّ الرجل ، ولم ينبس ببنت شفة ، ووجدت عينيه تدمعان .. وبعد لحظة صمت قال لي :

— ما انا يا بنى كمان ورايا أرواح ناس .. لو تركتك تمر .. لأضعتك وأضعت

الأرواح التي تتعجل المرور من أجلها .

وهز رأسه وتمتم في أسف :

— الله يسامحك .

وأحسست أن الرجل ردّ لي اللطمّة مضاعفة ، وتملكني ندم شديد على ثورتي
وتسرعتي ، ولم أعرف كيف أكفر عن ذنبي ، ومددت يدي في جيبي فأخرجت
خمسین قرشاً .. دسستها في يد الرجل وأنا أقول :

— متأسف يا حاج .. متأسف جداً .

وانفجرت أساريير الرجل وقال وهو يتسمم :

— كتر خيرك يا بنى .. أنا خايف على أرواحكم .

وفي كل مرة كنت أمر بالمزلقان .. كنت أفقد ثلاثة أرباع وقتي .. أو ثلاثة
أرباع أعصابي .. أو الاثنين معاً .

هل علمت سر إعجابى بنفق العباسية ؟!
هل أنا ثرثار ؟

الثروة ليست طبيعتى ، ولكنى أجد فى نفسى ميلا إلى الثروة معك .
هل ترين جامعة « عين شمس » لقد كانت قصر « الزعفران » فيما مضى .
ماذا ؟! تعرفين كل هذا ؟
ظننتك لا تعرفين .

لا .. لا .. العفو .. لم أظنك سائحة أبداً ، إنما هى مجرد ثروة كما قلت .
وهذا بناء الأرصاد الجوية .. لقد قال إن الشمس اليوم مشرقة .. ويبدو أن
بينه وبين الشمس ثارا .. لأنها ترفض الشروق منذ علمت أن الأرصاد قد أرغمتها
فى نشرتها على الشروق .

يبدو لى أن الأرصاد عندنا كقراءة الفنجان تتحدث عن الماضى .. أما
المستقبل فهو فى علم الله .

على يمينك وشمالك .. كلها أبنية عسكرية .
أظن هذا هو سلاح الفرسان .. أما بقية الأبنية فلا أعرف عنها شيئا .. اللهم
إلا المستشفى العسكرى .
فى هذا الشارع المتجه إلى المطار .. يوجد بيت الرئيس « جمال عبد
الناصر » .

لا شك أنك تعرفين كل هذه المنطقة .. وتعرفين أيضاً الطريق إلى النادى .
ها قد وصلنا .

مارأيك فى النادى ؟!

هل أصفه لك .. أم أنك تعرفينه خيراً منى ؟!

هيا بنا إلى الملاعب .

وكان « مدحت » قد وصل إلى الملاعب فعلا ، ووقف أمام منضدة الحجز
وعندما سأله « بكر » :

— ستلعب مع من ؟

كاد يقول له :

— مع نادبة .

من فرط ما شرده ذهنه طوال الطريق في دعوته الموهومة .. ولكنه تدارك نفسه

قائلاً :

— معك .. هل أنت فاضى ؟

— فاضى يا دكتور .

وأبدل « مدخت » ملابسه .. واتجه إلى ملعب رقم واحد حيث وقف

المدرّب في أنتظاره ، وضمته جدران الملعب .. وهو مستمر في تصوّراته ، يردد

في نفسه :

ماذا يمكن أن يقول في دعوته لها للعب والغداء ؟

واتضح له أن هناك أشياء كثيرة .. يستطيع أن يقولها ، واتضح له أيضاً أنه

لعب هذه المرة بطريقة أمتع .. وأنه ضحك كثيراً مع « بكر » .. وأنه لم يدخل

الملعب بالتكشيرة إياها ، ولم يقض المباراة في ضمت ولم يغادر الملعب في تجهّم .

وانتهى من المباراة ، وهو يتصب عرقاً فأسرع إلى الحمام ووقف تحت « الدش

الساخن » يدلك جسده بيديه وهو يحس نشاطاً وسعادة .

يجب أن ينتهى بسرعة حتى لا يتركها تنتظر .. سيأخذها بعد الحمام .. إلى

الشرفة الزجاجية .

كان يجب أن يوصى « الرئيس » بإعداد طعام فاخر شهى .

حقيقة إن معدته لم تعد تتحمل الطعام الشهى الدسم . فهى تكاد تهضم قطعة

من اللحم المشوى مع الخضار المسلوق .

ولكنه اليوم يحس بشبهة مفتوحة ، وهو يستطيع أن يهضم الزلظ .. بدون

رنى ، وبدون سترات .

أجل .. أجل .. يجب أن يتناسى معدته الثالفة ويأمر « الرئيس » بأن يعد له

سمكة « بالمليونيز » ومكرونة بالفرن .. و « جنبرى » و « طبق فنة » بالكوارع
والخل والثوم ، ويعدله طبق « كريم كرامل » .

هل تحمين الكريم كرامل «!؟

أنا أحبها جداً .

وأحب أيضاً الكميك قطايف بالقشدة ، رغم ما تفعله بعمدتي .

هل تصدقين أنى أكلت أنا وجادالله ذات مرة بستين قرشاً كميك قطايف ؟

كنا نسير فى شارع قصر النيل .. ومررنا بالحلوانى عطية .. قرب شارع

شريف .. هل تعرفينه ؟

واقترح على « جاد الله » أن أعزمه على « كميك قطايف » ولم أتردد .

ودخلنا المحل ، وطلب كل منا طلباً .. ونظر جادالله إلى طلبه وصاح بالبائع :

— القشدة مالها قليلة ؟

وانحنى البائع فى أدب وتساءل بابتسامة رقيقة :

— قشدة المحل كلها تحت أمرك يا سعادة البيه .. أتريد مزيداً من القشدة ؟!

— طبعاً .

وأخرج الرجل طبقاً من القشدة ووضع لى قطعة وجادالله قطعة .

والتهم « جادالله » القشدة .

فعاد الرجل يتساءل بأدب :

— كان يا سعادة البيه ؟.

وأجاب جادالله وهو يتلمظ :

— كان .

وظل الرجل يضع القشدة ويتساءل : كان ؟ .. وجادالله يلتهم ويقول :

كان .

وكلنا يعتقد .. أن القشدة ملحقة بالكميكة قطايف .. وأنها جزء من الطلب

الذى تناولناه ، والذى لا يزيد ثمنه بأى حال عن خمسة قروش .

وأخيراً غسلنا أيدينا ، وتناول كل منا كوباً من الماء المثلج ، وختم الرجل المهذب حوارته بيتنا بالدعاء لنا « بالهناء والشفاء » . ثم قدم لنا .. تذكرة الحساب بستين قرشاً .

ومن يومها .. وأنا أصغر عندما أصبح جادا لله معي ، أن أعرف بالضبط ثمن ما سياًكله قبل أن يفعل .

وبدا « مدحت » يتناول طعامه .

طعام النادي العادي ، وحيداً في الشرفة .

ونظر من النافذة الزجاجية إلى النافورة ، وإلى شجرة الكافور ، وسرعان ما حل أمامه منظر آخر .. جبال تمتد في الأفق .. ذات سفوح خضر وقمم بيض ، وأسقف الدور الحمر المنحدرات ذوات المداخن .

و .. وماذا أيضاً ؟

ماذا .. بعد كل هذه البلاهة والعبث ؟

منذ أن غادر المستشفى وهو يفكر في الرسالة البلهاء ، وفي صاحبها الطفلة الشقراء .. ذات الضفيرة .

أهناك جنون أكثر من هذا ؟

ماذا ينوي ؟ وفيم يفكر ؟

إنه يفكر في أن يكتب إليها ، ويرد على دعوتها الوهمية . بدعوة مماثلة . بل لقد تصور ماذا يمكن أن تكون عليه الدعوة . بكل تفاصيلها وحذافيرها ! بل لقد دعاها فعلاً .

إنه حتى الآن .. لم يفعل شيئاً بمفرده ، لقد صحبها في كل ما فعل في الطريق . وفي ملعب الاسكواش .

وفي الغداء .

وأكثر من هذا .. قص عليها حوادثه ونوادره .

صنع خفير الزلقان قلماً ، وكيف أكل « كميك قطايف » هو وزميله

« الحيوان » بستين قرشاً .

أهذه أخبار تروى ، وحوادث تقص ؟

ماذا تقول عنه ، وهو يحكى لها كيف صفع خفير المزلقان قلماً ؟

متوحش .. أم همجى ؟

ثم ، يخبرها بعد ذلك أنه أكل بستين قرشاً « كميك قطايف » .

يعنى .. حيوان نهم .

لماذا لا يبحث عن شيء آخر في ذهنه يمكن التفاخر به .. غير الخفير ، والتهام

القشدة !

يحدثها مثلاً عن عملية .. المعدة ، التى قطع ثلاثة أرباعها ؟ أهذا كلام ؟

إن الصبية ، سيغنى عليها قبل أن تكمل الرسالة .

أليس عنده أخبار .. ألطف من هذا !؟

ماذا !؟! أئخبيرها عن نوادره مع المرّضات !؟

لقد ضرب إحدى المرّضات بالأمس .. علقه ساخنة . عندما وجدها

تسرق نصف اللبن ، وتخلط النصف الآخر بالماء ، ولما سأها أجابت عليه

بيجاجة ، أنها قصدت أن تخففه ، لكى يسهل على المرضى هضمه

لا .. لا .. هذه فضائح لا ينبغي أن تروى ، ثم إنها تنتهى بأنه ضرب المريضة

علقه ، وهذا يؤكد وحشيته .

يجب أن يبحث عن شيء آخر .

ولكن لماذا يبحث .. إنه لن يكتب إليها شيئاً مما فكر فيه من سخافات .

سيكتب إليها رسالة مختصرة .. يشكرها على دعوتها . ويرجو لها الصحة ،

ويتمنى لها أطيب التمنيات ، ويرجوها أن تبلغ سلامه إلى « منى » .

هذا أقصى ما يمكن أن يكتبه

أجل .. أجل

لن ينزلق .. إلى مثل هذا النزق ، والطيش .. عليه أن يكون متزنأ .

ولن يرسل إليها صورة أخرى .
تكفيها جداً .. الصورة التي أرسلها إليها .
ليس لديه خير منها ، إنه ليس ممثل سينا .. حتى يجلس أمام المصور .. يلوى
عنقه ويرفع وجهه ، ويفرج شفثيه ، في ضحكة سخيفة بلهاء ..
وغادر مدحت النادي ، وقد أقنع نفسه بكل ما قال . وفي طريقه إلى المستشفى
قبيل الغروب .. لم يتجه إلى المستشفى رأساً بل استمر في طريقة إلى المحطة .. ثم
إلى ميدان مصطفى كامل .
وأوقف العربية . ثم هبط إلى الميدان ثم سار متلکماً ، كأنه لا يبغى قصداً
معيناً .. حتى وقف أمام باب علق على يمينه بعض صور فوتوغرافية وكتب
فوقها .. « أرمان » .

ونظر إلى الصور نظرة فاحصة .
ثم انتنى راجعاً إلى العربية ، وهو ينهر نفسه :
كفى سخافة .
وقبل أن يصل إلى العربية كان قد عاد إلى الباب مرة أخرى : سخافة .. له ؟
هل التصوير سخافة ؟
إنه سيصوّر .. لأنه لا بد له من ذلك .. لقد طلب النادي منه ثلاث صور .
فلم يجد غير هذه الصورة السخيفة التي تشبه الصور المعلقة في قسم عابدين .
هل التصوير عيب ؟ أم حرام !
إنه لن يصوّر من أجلها !
أجل .. أجل .. لن يفكر أبداً في أن يرسل إليها صورة .. إنه لم يبلغ من الحمق
حد أن يصوّر من أجلها . كما طلب منه المغفل « جادالله »
سيصوّر من أجل نفسه .
إن أمه ، وأقرباءه ، يريدون أن يحتفظوا بصورة له .. و « ميرفت » أيضاً قد
طلبت منه صورة .

دلف « مدحت » من الباب ، وقفز درجات السلم .
وبعد برهة . كان قد جلس أمام « الكاميرا » ، وقد أدار عنقه ورفع رأسه .
وفتح فمه راسماً على شفتيه تلك الابتسامة البهية .. التي أصر عليها المسيو
« أرمان » ، والتي يصير عليها كل مصوّر غيره .
وبعد بضعة أيام .. كانت الصورة .. تتخذ طريقها بالطائرة إلى « جانب »
داخل ظرف حوى رسالة طويلة .. كتبها « مدحت » في ليلة .. خالية ساكنة .
.. وجلست نادية .. تمسك بالرسالة ، وتتحسس صلابة الصورة ، وتزن ثقل
الأوراق التي بها .

وأحست بسعادة شديدة .. وهى تغلق باب مكتبها بالمدرسة ، ثم تتلفت
حولها فى حذر خشية أن يكون هناك من يرقبها .. ثم رفعت الرسالة ، ومسحتها
بشفتيها فى تبتل وعبادة ، كما تمس شفتنا العابد أضرحة الرسل والأنبياء .
وفتحت الظرف ، وأخرجت الصورة بأصابع مرتجفة .. من فرط الفرحه .
ونظرت إلى الصورة ، وأجابيت على ابتسامتها بابتسامة عريضة .
ومرة أخرى عادت تتلفت فى حذر وخشية .
ثم رفعت الصورة إلى شفتيها .. وقلبي يدق فى عنف ، ومضت فترة وهى
تأمل الصورة ، ثم تشردد يصبرها من النافذة .

وبعد أن تماكنت نفسها .. أخرجت الرسالة ، وبدأت فى القراءة ،
وانهمكت فى القراءة .
والابتسامة تعلقو شفتيها .

ابتسامة .. لا تلبث حتى تنقلب إلى قهقهة
لشد ما أحبت دعوته إلى الاسكواش ، وإلى الغداء .. ولشد ما أحبت وصفه
للطريق .

ولشد ما استمتعت .. بكوب العصير الذى سقاها إياه .. إنها تحس
« برغاويه » على شفتيها .

والبطاطا ! لماذا لم يشتري لها « بطاطا »
في المرة القادمة ستصبر على أن يشتري لها . إنها تحبها جداً ، ويمكن أن تؤجل
تناولها إلى ما بعد اللعب ..
بل كان يمكن أن تأكلها قبل اللعب .
إنها على أية حال لن تفعل بها ما فعله به « الكميك قطايف » الذي أكله بستين
قرشاً .

مرة أخرى .. وجدت نفسها تقهقه .
ولكنها قطعت القهقهة عندما أحست بالباب يفتح . وسمعت صوت مدام
« كلود » يقول لها في رقة :

— ألا تنوين الرحيل يا نادية !! لقد مضى على وقت الرحيل نصف ساعة .
ودهشت « نادية » .. فقد سرقها الوقت ، وهي منهكة في الصورة
والرسالة .

لقد قرأت الرسالة .. أكثر من خمس مرات .

وعندما هبطت إلى الفناء ، وجدت « منى » تهم بالصعود إليها قائلة :

— ماذا أخرك إلى الآن ؟

وأجابت نادية في عجلة :

— شغل .. كان عندي شغل كثير .

وضحكت « منى » قائلة :

— يا كذابة .. إن في وجهك .. أنباء مثيرة لطيفة .. قولي الحق .. شغل ..

أم رسالة حلوة ؟!

وأخرجت « نادية » الرسالة من جيبها قائلة ، وهي تضحك :

— رسالة حلوة جداً .. جداً

واختطفت « منى » الرسالة ، ثم أخرجت الصورة ونظرت إليها قائلة في

دهشة :

— ما شاء الله .. أخيراً ، بدا كالبنى آدم .

— وماذا كان يبدو من قبل ؟!

— كالثيران التي تتأهب للمصارع .

— مجرمة .

وَعَادَت « منى » تتأمل الصورة ضاحكة ، وهي تقول :

— وما له يتسم هكذا !. مبسوط !!

ثم فتحت الرسالة ، وهالتها الصفحات المزدهمة بالسطور . فتساءلت في

دهشة :

— كل ذا كلام ؟! لقد « تدرّج » جداً .. ماذا يقول لك ؟

وألقت على الصفحة الأولى نظرة عابرة .. فاصطدمت عينها بكلمة

« البطاطا » فصاحت في دهشة :

— « بطاطا » .. يخرب بيته .. أبصح أن يذكر سيرة البطاطا ، في رسالة

غرام ؟!

وخطفت « نادية » الرسالة من يدها قائلة في نهر :

— من قال إنها رسالة غرام ؟!

— أمال رسالة إليه ؟! رسالة ، في « شوى البطاطا » ؟!

وهزت « منى » رأسها مستمرة في سخريتها الضاحكة وقالت :

— الله يكون في عونك .. واحد يتحدثك عن الدستور .. والثاني عن

البطاطا .. من صبرى لمدحت يا قلبى لا تحزن

وقالت نادية غاضبة :

— الحق على أنا التي أريتك الرسالة .. آخر مرة أطلعك على شيء .

ومدّت « منى » يدها فلفتها حول كفتى نادية وضمتها إليها قائلة :

— أغضبت ؟! إني أضحكك يا عبيطة .. هاتي الجواب .

وأخذت الرسالة وقبلتها قائلة :

— أموت في البطاطا ، وبياعين البطاطا !
ثم وضعت كفيها على خدها مثل بائع البطاطة ، وهو يهتف :
— معسله قوى يا بطاطا .
وصاحت بها نادبة :
— كفى عن هذا .. ماذا يقول الناس عنك في الطريق .
— الذين سيفهمون العربى .. سيعرفون أنى أنادى على البطاطا ، والذين لا
يعرفون .. سيظنوننى أغنى .
وألقت « منى » نظرة على نهاية الرسالة فإذا بها ملحوظة يقول فيها مدحت :
« أرسل إليك صورة أخرى لى ، كما طلبت .
« ولا شك أنه يسعدنى .. أن أتلقى منك .. صورة أخرى » .
وهزت « منى » رأسها ، وهى تقول :
— مشكلة .. هل لديك صورة أخرى !?
— لددى « اليوم » صورنا القديم .. أستطيع أن أرسل إليه ما شاء من الصور .
ونظرت « منى » إلى وجه « نادبة » ، وإلى الإشارب المحيط به ، وتملكها
إحساس بالعطف عليها والقلق من أجلها ،
ولكنها أخفت مشاعرها بضحكة مرحة وجملته مازحة هاذرة

(٣١)

لن يراها ..

استمرت الرسائل بين « نادية » و « مدحت » .. تحمل دعوتها الوهمية ..
وصورهما المتبادلة ، وحاول « مدحت » في أول الأمر أن يوهم نفسه ، أنه يياشر
عملية .. إحسان ، وشفقة .. دفعته فيها الظروف
ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه قط من شعور المتعة الذى يغمره كلما تسلم
رسالة من « جاب » .. أو كلما جلس ليكتب إليها رسالة .
وكانت العملية — عملية تبادل الرسائل — من أنسب عمليات المتع الحسية
لطبيعة مدحت .. فهو مخلوق رقيق فى باطنه .. وإن كان يكسور رفته بمظهر
عبوس متجهم يحاول أن يكتسب به هبة فى عمله ، واحتراماً ممن حوله .
كان مظهره الجاد يقف حائلاً أمام مشاعره الرقيقة .. وكان يكره أن يبدو مجباً
ودوداً .. إلا فى ضيق الدوائر المحيطة به ، والتي لا تتعدى .. صاحبه « جاد الله » .
ومنحته الرسائل :. دائرة أضيق .. بنفس فيها عن طبيعته المرفهة المحبة ..
دائرة لا يكاد يكشفها فيها أحد .. سوى نفسه .. ومخلوقة مجهولة .. شبه
وهية .. تسكن فى أعالي جبال الألب .. كأنها إحدى أميرات الأساطير .
ومع ذلك فقد كان يصيبه أحياناً نوع من الحذر فى كتابته ، عندما ما يتذكر
نفسه ، ومظهره .. وجدّه .. ويتذكر العملية العجيبة التى ينغمر فيها ، والكائنة
— غير الكائنة — التى يصادقها ويمزح معها ، ويدعوها لمرافقته .. فى ثلاث
أرباع نزهاته ، والتي يطلعها ببساطة على خبايا نفسه .
لقد استطاعت « نادية » .. أن تكتسب ثقة المخلوق الحذر المنطوى .. بصدق
مشاعرها ، وإخلاص دعوتها .. وبساطة حديثها ، وأكثر من هذا .. بمقرها

النأى ، وعواقبها المأمونة ، وخطرها البعيد غير المحتمل .
وبمر الأيام .. أصبحت رسائلها .. شيئاً حيوياً ، فى حياة « مدحت » ،
واحتلت قراءتها .. والرد عليها .. مكاناً من وقته .. يتساوى فى الأهمية .. مع
عملياته ، ومحاضراته ، وبقية الأعمال الرئيسية التى تتركب منها حياته .
ورغم محاولاته المتعالية المترفعة فى صد مشاعر الحب من التسرب إلى تفكيره
وبالتالى إلى كتابته ، ورغم تأكيدته لنفسه ، المرة .. تلو المرة .. أن العملية كلها
لا تعدو .. عطفاً على غريبة نائية .. لا يحس لها بأكثر من إحساس الأخت
الصغرى .

ورغم كل هذا .. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يؤكد لها ذات مرة ، وكأنه لا
يقصد شيئاً .. أن « ميرفت » ليست خطيبته ، وأنه لم يكن بينهما أكثر من
صداقة عابرة .

ولم يستطع كذلك أن يمنع إصراره على وقف تلك العلاقة المعلقة بينه وبين
« ميرفت » ، وعائلتها ، وأن يفهم جاد الله .. باختصار .. أنه لا يفكر فى الزواج أبداً
وأنه فى غنى عن خدمات أيها سواء أكان عميداً للكلية .. أم مديراً للجامعة ، أو
حتى رئيساً للوزراء .

وأكثر من هذا .. لم يستطع أبداً ، أن يمنع نفسه من التفكير فيها ككائن
حقيقى .. موجود .. لا يمنع بعد مقرأها من احتمال لقائها .

ولم يستطع أيضاً .. أن يمنع لهفته على صورها ، وضيقة عندما يحس من خفة
الظرف .. خلوه منها .

وأخيراً لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يكتب إليها .. فى نهاية إحدى رسائله ..
بعد أن انتهى من دعوته لها إلى جزيرة الشاى بحديقة الحيوانات :

« نادية .. أرسل لك مع رسالتى هذه صورة التقطها لى — وكنت أود أن
أقول لنا — ولكن الظاهر .. أن الكاميرا لاتتسع عدستها .. لتصوراتنا ،
ورغباتنا — التقطها لى مصوّر من مصورى الطريق .. أتعرفينهم ؟ هؤلاء الذين

يلتقطون لك الصورة ثم يقذفون لك بالتذكرة .. ويفرون هارين
« لقد التقطها لى وأنا أجلس فى الجزيرة .. فى نفس المكان الذى دعوتك
إليه ، والذى تناولنا الغداء فيه .

« مارأيك فى الأشجار المحيطة بنا ؟ وفى البط السابح فى البحيرة !!

« ترى .. البحيرة .. هنا .. تشبه بحيرتكم ؟!

« لماذا لا ترسلين إلى صورة لك ، وأنت فى إحدى نزهاتك .. أعنى فى
إحدى نزهاتنا ، على الأقل ، حتى آخذ فكرة عن هذه الأماكن التى تصحيبيننى
فيها .

« ترى .. « جاب » قد خلت من المصورين الخطافين ؟!

« وإذا كانت قد خلت .. أليس عندكم مصوّر . فى محل .. يستطيع أن يلتقط

لك صورة حديثة !

« ألم تلاحظى أن كل صورك التى أرسلتها لى . قد مضى على أحدث صورة
منها مالا يقل عن ست سنوات !

« هل من ذلك .. أن « موضة » التصوير قد بطلت ؟

« أم أن التصوير قد أضحى .. مسألة .. عيب ؟

« أم أفهم أن بلدكم قد خلا من المصورين !

« أم مفروض على .. ألا أعرفك .. وألا أعرف شيئاً عن ملاحك بعد الثانية
عشرة ، وأنت قد أخفيت نفسك بعد هذه السن تحت « التزيرة » وخلف
« البرقع » .. فلم يعد يرى لك وجه أو تبصر لك صورة !
« أيتها . المتمنعة المحجبة .

« أيها الشيخ المختفى .. منذ الثانية عشرة .. اظهر وبان عليك الأمان »

اختشنى ، وأرسلنى صورة حديثة ، لأعرف على الأقل كيف تبدين الآن .

« وحتى أحس وأنا أصطحبك فى دعواتى أنى لأمسك فى يدي صبية صغيرة

ليست فقط لم تعد الثانية عشرة .. بل تأبى أن تتعدها .

« إني في انتظار الصورة .

« صورة .. بلا ضفائر ، ولا « فيونكات » .

« صورة .. أستطيع أن أدعو صاحبها .. إلى الأوبرا ، دون أن أخشى من نومها وسط السهرة ، ودون أن أعود بها محمولة على يدي .. أو على كتفي » .

وهكذا لم يستطع « مدحت » .. رغم ما به من تودة ، واتزان ، وعقل .. أن يمنع لهفته .. على أن يعرفها كما يجب أن تعرف ، وأن يقربها إلى ذهنه كواقع .. كشيء يعرف سماته وملامحه كما هو كائن .. لا كما يتوهم أن يكون .

ووصلت الرسالة إلى « نادية » .

حملتها إليها « منى » في يوم من أيام أبريل ، وقد استلقت « نادية » في فراشها تستريح من وعكة برد أصابتها ، ومنعتها من الذهاب إلى المدرسة .

وكان الربيع قد بدت طلائعه والثلوج قد أخذت في الذوبان وانحدرت مياهها من أعالي الجبال .. متدفقة في أخاديد السفوح .. وبراعم الأوراق الخضراء قد كست الأغصان التي عراها الشتاء ، وزهور أشجار الفاكهة قد كللت فروعها بألوانها البديعة ، و « نادية » تجلس على فراشها ، وقد أطلقت بصرها متنقلا بين قمم الجبال في أقصى الأفق والسحب المتتابعة على قرص الشمس تحجبه تارة وتخفيه تارة .. وهي تنصت في لهفة إلى وقع أقدام « منى » تجتاز الممر الخارجي ، وتسمع صوتها طالبة الطعام .

ولم تطق « نادية » صبراً .. فنهضت من فراشها وأطلت من أعلى السلم

صائحة :

— منى .

كان موعد الرسالة قد حل ، وكانت تعد ثمانية أيام من إرسال رسالتها ، ثم تبدأ لطفة الانتظار ، وقد حاولت اليوم الذهاب إلى المدرسة للتبكير في تسليم الرسالة المنتظرة ، ولكن أمها أصرت على منعها ، ولم تستطع « نادية » الإصرار على الذهاب .. لا سيما ، وهي تعلم أن حرارتها ما زالت مرتفعة ، وجسدها ما زال

مجهداً .

ورفعت إليها « منى » وجهها من أسفل السلم ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامتها
المرحة وتساءلت في سخرية :

— مالك مسروعة هكذا ؟

— أريد أن أسألك .

— عن ماذا ؟ .

— عن المدرسة .

— مدام كلود تهديك أزكى السلام .

— أهذا كل ما فى الأمر ؟

— وجابى تسأل عن صحتك .

— ويتر . ؟

— يسأل أيضاً عن صحتك .

— فقط . ؟

— وعن صحة جدتى .

وبدا الضيق على « نادية » وتساءلت فى صوت حزين :

— ألم .. ألم .. يرسل لك شيئاً ؟

وهزت « منى » رأسها فى استخفاف متسائلة :

— شىء .. شىء مثل ماذا ؟

وهتفت بها « نادية » فى غيظ :

— اسمعى .. كفى استعباطاً .. لماذا لا تصعدين إلى .. بدل هذا الصراخ من

أسفل السلم !

وضحكت « منى » قائلة :

— لا تشخطى هكذا .

ثم قفزت السلم صاعدة ، وهى تقول :

- لو صبرت لحظة لصعدت إليك .
ولم تكذبصل إلى آخر السلم حتى مدت يدها في جيبتها وأخرجت الرسالة ،
وهي تقول ضاحكة :
— هاتي شلن أولاً .
واختطفت « نادية » منها الرسالة ، وهي تقول مؤنبة « منى » وقد غمرتها
الفرحة :
— يا كلبة .
— ومالك فرحة هكذا !! كأنك قد سلمت ألف جنيه . ترى أين دعاك هذه
المرة ..؟
ولم تجب نادية فقد انطلقت عائدة إلى حجرتها .. لتنفرد بالرسالة ، وهبطت
« منى » لتتناول طعامها .
وبعد برهة عادت إليها .. لتجدها قابعة في الفراش والرسالة ملقاة في
حجرها ، وقد بدا عليها شروود حزين .
وهزت « منى » رأسها متسائلة ، وهي تقضم تفاحة في يدها :
— ماذا حدث !! كفى الله الشر؟!
ولم تجب « نادية » ، ومدت « منى » يدها تتناول الرسالة ، وهي تردف قائلة :
— لعل الدعوة هذه المرة ليست على ما يرام .. أين ذهبتما ؟ إلى الأراجوز ..؟
لا بأس يا نادية .. نحن في آخر الشهر ، وموسم العمليات قد كسد .. و ..
ورفعت « نادية » رأسها وقاطعتها قائلة :
— اسمعى يا « منى » .. إن مدحت يريد منى صورة حديثة
— صورة حديثة؟!
— أجل .. لقد لاحظ أن كل صوري قديمة ، وتساءل : لماذا أصر على إخفاء
وجهي بعد الثانية عشرة ؟
وبدت الدهشة على وجه « منى » وتساءلت :

— إخفاء وجهك .. هل .. تظنين ...
— لا .. لا .. إنه فقط يتساءل .. وهو يريد صورة بلا ضفائر ، ولا
« فيونكات » .

وضحكت « منى » قائلة :

— معه حق .

وأطرقت « نادية » وتساءلت في صوت خفيض يائس :

— وما العمل ؟

ورفعت « منى » كنفها ببساطة :

— ولا شيء ! أهى معضلة ! تصوّرين .

وتساءلت « نادية » في فزع :

— كيف .. ؟

وردت « منى » بنفس البساطة التي تتحدث بها :

— تذهبين معى غداً .. إلى المصوّر على الناصية أمام « الكوافير » .. ثم

تسألينه أن يصوّرك .. وتقعدين أمام الكاميرا ، وتتركين الباقي عليه .

وصمتت « نادية » ، وقد بدا عليها الوجوم واليأس .. ثم مدت يدها لتحسس

الإيشارب الذى لا يفارق رأسها وعنقها وتمتمت كأنها تتحدث نفسها :

— كيف أقف أمام المصوّر .؟

— كما تقفين أمامى .. وأمام أى مخلوق آخر .

— وأظهر فى الصورة بالإيشارب ؟

— ولم لا ؟ إننا هنا فى عز البرد .

ثم صمتت برهة ، واستدركت قائلة :

— وإذا لم تعجبك الصورة بالإيشارب ، فاخلعيه .

— وأبدو فى الصورة كما أنا !؟

— لن يظهر شيء فى الصورة ، وإذا ظهر .. فستضيئه الرتوش .

— وكيف أقف أمام المصوّر .. بشكلي هذا ؟!
— وماذا يهمك من المصوّر .. إنه لن يخطبك .
وارتسمت على وجه « نادية » أمارات حزن عميق وقالت لمنى عاتبة :
— هل تظنين أنني أستطيع حقاً أن أخدعه بالرتوش الذي يصنعه المصوّر ؟!
— إنك لا تخدعينه يا حبيبتى .. إن هذا عمل المصور .. إن الندبة التي في
جبينى .. لا يتركها المصورون تظهر في الصورة أبداً .. فهل تظنين هذه
خدعة ؟!

— هل ندبة جبينك .. مثل حرق وجهى ؟!
— إذن تصوّرين بالإيشارب .. لن يكون به ما يدعو للعجب أبداً .. إنه
إيشارب وليس « ملاءة لف » .

وهزت « نادية » رأسها في استسلام ، وضمتها « منى » إليها وهي تقول
ضاحكة :
— وسأذهب معك لكي أصوّر أنا أيضاً .. إن عصام ما زال يصر على صورة
حديثة يضعها في حافظته .

وقبل أن تغادر « منى » الغرفة عادت تقول لها مؤكدة :
— اتفقنا ؟! سنذهب للتصوير غداً !
وهزت « نادية » رأسها موافقة .
وفي اليوم الثاني .. كانت التوءمتان تطرقان باب المصوّر ، ونظر الرجل إليهما
من وراء منظاره وتساءل ضاحكا :

— توءمتان ؟!
وأجابت « منى » ضاحكة :
— من أدراك ؟!
— الشبه .

وتساءلت « منى » وهي تنظر إلى وجهها في المرأة المقابلة وتبتسم في مرح :

— أهي جميلة مثلي ؟

وضحك الرجل قائلاً :

— لو نزعت عنها الإيشارب ، وسرحت شعرها نفس التسريحة .. أعتقد أنه يكفيني أن أصوّر إحدانا ، وأخرج من صورتها عدداً كافياً لكليتيكما
وقالت « نادية » مازحة وقد بدد لطف الرجل ما تملكها من رهبة
— إذن تصورين أنت نيابة عني .

وقال الرجل :

— بل تصورين أنت نيابة عنها . إن وجهك أكثر طيبة .

وصاحت « منى » ضاحكة :

— هل يعنى هذا أنني شريرة !؟

وأجاب الرجل :

— حاشا لله .. إنها أكثر طيبة ، وأنت أكثر لطفاً

وقالت نادية :

— وأنت أكثر رقة وأدباً .

ودفعتها « منى » أمامها وهي تقول :

— هيا بنا .. فليس لدينا وقت لتتقارض المدح

وأشار الرجل إلى غرفة صغيرة وهو يقول لنادية :

— تستطيعين أن تخلعي فيها الإيشارب وتعيدى تصفيف شعرك .

وهزت « نادية » رأسها في شيء من الخوف ورفعت يدها تحكّم وثاق

الإشارب على عنقها قائلة :

— لا .. لا .. سأصوّر كما أنا .

— برأسك مربوطاً هكذا !؟

— أجل .. أجل .

— ولكنك ستكونين بدونه أجمل كثيراً .

وردت « نادية » في إصرار وضيق :

— إني أفضل أن أكون هكذا .

وهز الرجل كتفيه قائلاً في استسلام :

— أمرك .

وانتهى المصور من تصوير التوعمتين .. وبعد يومين ، كانت نادية تجلس في مكتبها بالمدرسة ، وقد انتهت من كتابة الرسالة .. ووضعتها في الظرف ، وأمسكت بصورتها .. تنظر إليها في تمهل وإمعان ، وقد بدا عليها الضيق والقلق .

ترى . كيف ستبدو له الصورة !!

إنها تبدو بالإيشارب .. كاللاجنات ، والمهاجرات .

لماذا أصرت على ارتداء الإيشارب ؟

ولكن كيف تستطيع أن تصوّر .. بدونه ؟ .. كيف تجرؤ ؟ .

ألم تقل لها « منى » إن المصور كفيل بعمل ما يلزم من رتوش لإخفائه .. إذا ظهر ؟ . ولكن ألا تكون تلك خديعة ؟

ألا تكون بذلك قد خدعته عن حقيقتها ، وأرسلت له وجهاً غير وجهها !

وهذه الصورة .. ألا تعتبر خديعة !

ألا تكون الخديعة .. إلا بالتغيير ، والتبديل ؟

والإخفاء .. ألا يعتبر خديعة ؟

أعتبر الصورة ذات الإيشارب .. الذي أخفى ما بها من تشويه صورة حقيقية

لها !

لماذا تورطت إلى كل هذا ؟

لماذا لم تقصر العلاقة .. على مجرد الرسائل ؟ . لماذا زجت بها إلى تبادل

الصور ؟

ألم تكن هي البادئة بطلب صورته !!

ماذا كانت تتوقع غير تلك النتيجة !

إنها جرؤت على الكتابة إليه .. لإحساسها بأمن البعد ، واستحالة اللقاء ، ولتقتها بأن الجانب المادى للعلاقة .. الذى قد يضطرها إلى عرض نقطة ضعفها وهو شكلها .. لم يعد له وجود .

ومع ذلك فهى تجد نفسها قد لفتت .. لتواجه جزءاً من المشكلة التى ظنت أنها قد تجاوزتها ، وأنه لم يعد هناك من سبيل لمواجهةها .

وهى مهما فعلت .. لا تستطيع أن تحلها إلا بالخداع .. بل إن ما فعلته حتى الآن يعتبر خداعاً .. بالتجنب ، واللف والدوران .. فكل ما أرسلته من صور لطفولتها كان تجنباً منها للواقع المرير .. واقع شكلها المشوه .

وهى الآن تجد نفسها مضطرة إلى الاستمرار فى المزيد من الخداع ، بأية صورة من صورها .. وبأى شكل من أشكاله .

وإذا كان الخداع مسلماً به .. فلماذا لا تقدم عليه بصورة منصفة !؟

لماذا تضطر إلى صورة الإيثار التى تبدو فيها كاللاجئات والمهاجرات ، والخدم !؟

لماذا لا تصوّر بدون إيثار .. وتساءل الرجل وهو كما بدا لها رقيق لطيف أن يقوم بعمل « الرتوش » اللازم ..

ومدت يدها لتناول مجموعة ، وتقلبها بين أصابعها .

ووقع بصرها على إحدى صور « منى » .. بين صورها .

واستبقها بين أصابعها تتأملها برهة .

كانت صورة جميلة .. رشيقة .. أنيقة فاتنة .. بدت بجانب وجهها وقد عقص شعرها فى صورة ذيل الحصان .. ليس بها شبه اللاجئات والمهاجرات .

أيمكن حقاً أن يكون هناك شبه بين الأئتين .. وتذكرت ما قاله المصور :

« لو نزعنا عنها الإيثار ، وسرّحت شعرها نفس التسريحة أعتقد أنه يكفينى أن أصوّر إحداك وأخرج من صورتها عدداً كافياً لكلتيكما .»

لو نزعنا الإيثار إذن .. فستبدو كهذه الصورة .. أنيقة ، رقيقة ،

أرستقراطية .. لماذا إذن لا تنزعه ؟

ولكن لماذا تنزعه ؟

لكي تحصل على صورة مماثلة ؟

ولماذا لا تأخذ نفس الصورة ؟

ألم يؤكد الرجل .. أنه يستطيع أن يصور إحداهما . ويخرج من الصورة عدداً

كافياً للأخرى !

لماذا تتعب نفسها في التصوير مرة أخرى !!

لماذا تفضح نفسها بخلع الإيشارب وبتسريحة الشعر .. ما دام أقصى ما يمكن

الحصول عليه هو صورة أخرى طبق الأصل من هذه الصورة !!

ألم يقل هذا المصوّر نفسه !!

أليست المسألة من أولها خداعاً في خداع !!

فلماذا لا تقدم على ما يمنحها أطيب النتائج .. بأسهل الوسائل ؟!

هل تخشى أن تكتشف الخدعة ؟

متى ؟ .. عندما يراها ؟

وهل تنصرف هي على أساس احتمال رؤيته لها ؟

إنه لو رآها لهدم كل شيء .

هل تخشى أن يكتشف الخدعة .. لو قارن الصور الحديثة بصورها القديمة ؟!

إن آخر صورة لديه منذ ست سنوات .. بالصفائر و « الفيونكات »

ومفروض أن تكون قد تغيرت في السنوات الست .

ثم إن الشبه موجود .. كل من رآها يجزم بهذا ، ولن يشك أحد أن الضيبة

صاحبة الصورة ذات الصفائر .. ليست هي الآنسة صاحبة الصورة ذات ذئب

الحصان بعد ست سنوات .

ولكنها ستكون خديعة كبرى .

وهل هناك فرق بين الخديعة الصغرى .. والخديعة الكبرى ؟!

وأمسكت صورة « منى » تتأملها . وتقارنها بصورتها ذات الإيشارب ..
وأجست بكره لصورة الإيشارب ، وكره لما بها من تشويه يخفيه الإيشارب .
وبالسبابة والإيهام .. سحبت صورة « منى » ، ووضعتها في الظرف بجوار
الرسالة .

إنها بلا جدال .. لن تخذله فيها !
وعندما يطلب صورة أخرى .. سترسل لة صورة أخرى لنى .
وكلما طلب صورة ستصور له « منى » .
ستصورها له بين الثلوج ، وعلى سفح الجبال ، وعلى شاطئ البحيرة .
وستشترى « كاميرا » بدل الراديو .. بالنقود التي جمعتها
أجل .. ستقوم هي بدور المصور الخاطف الذي يصور .. ويقذف
بالتذكرة ، ثم يعود هاربا .
إن الخديعة تجر الخديعة .
ولن تكتشف خديعتها إلا إذا رآها .
وهو لن يراها .

(٣٢)

إنه يحبها

أمسك « مدحت » بالرسالة الزرقاء يتحسس بأصابعه الصورة الصلبة التي حواها الظرف ، وهتف « جاد الله » وهو يقف وراءه ويحس تردده :
— افتح يا أستاذ .. أرنا آخر صورة .. لعلها تكون قد استتحت .. وقصت
ضفائرها .. وفكت فيونكاتها .
وفتح « مدحت » الظرف ، وأخرج الرسالة .. فسقطت الصورة على
المكتب .. وانطلق من شفتي « جاد الله » صفير طويل .. وصاح في دهشة
وإعجاب :

— يا بنت الإيه !!

ولم ينبس « مدحت » ببنت شفة ، وأخذ ينظر إلى الصورة مأخوذاً ..
ويتأملها ، وقد شرد فكره .
ومدّ « جاد الله » يده محاولاً اختطاف الرسالة ، وهو يقول ضاحكا :
— أظنك اقتنعت الآن أنها تستحق الكتابة .. ما رأيك ؟!
وتتم « مدحت » قائلا ، وهو ما يزال ينظر إلى الصورة :
— لطيفة !

— لطيفة فقط .. إني على استعداد لأن أذهب إلى قسم الألب من أجلها .. إنها
هائلة .. ولكن ماذا كتبت هذه المرة ؟ .. هل تعرف أن دمها خفيف جداً !
وأطبقت أصابع مدحت على الرسالة . ولم يدع « جاد الله » يتناولها منه
بل أمسك بالصورة وأعادها إلى الظرف ، ثم وضع الظرف في جيبه قائلا :
— هيا بنا .

— ألا تنوى قراءتها؟! —

— بعدين .

وضحك جاد الله قائلاً :

— بعدين ؟ .. أم هناك أسرار بينكما؟! على أى حال ، حلال عليك .

ولم يجب « مدحت » وازدادت في ملامحه علامات السرور فاستغرق « جاد

الله » في الضحك قائلاً :

— والله وقعت .. واللى كان .. كان .

ونظر إليه « مدحت » نظرة زاجرة وهتف به :

— ما هذا السخف الذى تقول؟! —

— أرهن أنك تحبها .

— أنا؟! —

— أجل أنت .

— أحب ماذا؟! .. أنت مجنون!

— اسمع .. لا تدخل فى عيى .. وتكروتنى .. بدمتك ألا تتمنى أن تراها؟! —

— يجوز .. من باب حب الاستطلاع .

— حب الاستطلاع فقط؟! أتعنى أنها تتساوى فى نظرك مع قوس النصر ..

وبرج إيفل؟! —

وضحك مدحت وأجاب :

— مع الفارق .. إن برج إيفل لم يكتب إلى ، ولم يرسل لى صورته .

وأردف جاد الله متمباً قول مدحت :

— ولم يدعك فى لطفة .. ولم يخبرك أن حياته معلقة ، فى سطور منك .. ولم

يلاحقك بالدعوات .. ولم يصحبك فى كل نفس يتنفسه .. أو حركة

يتحركها .

وعاد السرور إلى وجه « مدحت » ، وأردف « جاد الله » متسائلاً :

— اسمع يا مدحت .. هل تشك أن الفتاة تحبك !؟

ورفع كتفيه قائلاً في حيرة :

— تجبنى !.. كيف !؟

— كما يحب الناس بعضهم .. ماذا تقصد بسؤالك كيف !؟

— أعنى كيف تجبنى .. وهى لا تعتبرنى أكثر من وهم ، تحدثنى كوهم ..

وتدعونى كوهم .. إنها لم تتحدث أبداً عن أى احتمال .. للقاء بيننا .. بل لم تبدلنى

أنها تأمل فيه .. أو تمناه .. إنها تخاطبنى كما تخاطب الأرواح .

— ولكنها تعرفك جيداً .

— تعرفنى كشىء مضى ، ولكنها تنوهمنى كشىء آت . أتعرف كيف أحس

من حديثها معنى !؟

— كيف !؟

— أحس .. كأنى إنسان كان فى حياتها .. ثم خرج منها .. ولم يعد لها إليه من

سبيل .. أحس كأنى ميت .. لا أمل لها فى لقاءه .

— يا شيخ . « فالله ولا فالك » . ما هذا الذى تقول !

— إبنى أقول الحق .. إنها لا تتحدث أبداً عن أمل فى مستقبل . إنها تعاملنى ،

باعتبارى شيئاً مستحيلاً عليه أن يكون أكثر مما هو فى وهمها .. أتفهم ما أعنى ..

إنها لا تأمل أبداً .. كما يأمل بقية الناس .. أنت تعرف أننا دائماً ، نأمل فى خطوة

جديدة .. بعد كل خطوة نخطوها .. ولكن تبدو أنها قد جمدت آمالها عند حد

معين .

— وهل تأمل أنت فى خطوة أخرى !؟

— وأحس « مدحت » أن « جاد الله » يتصيد ، فهز رأسه متسائلاً وهو يحاول

أن يمنح نفسه فرصة للتفكير :

— ماذا تعنى !؟

— أعنى هل أنت نفسك .. تأمل فى خطوة أبعد !؟ هل تأمل مثلاً فى أن

تراها .. وأن .. وأن ..
— ولم لا ؟!
— وماذا تأمل أيضاً ؟!
— آمل في أن أصادقها .. وأن أحقق لها الدعوات الوهميه .. التي دعوتها إليها .
— وماذا أيضاً ؟!
— لست أدرى بالضبط .. ولكنني أحس أني أود .. أن أجسدها أمامي .
— أنت واثق إذا .. أنها شيء حقيقي ؟!
— طبعاً .
— وتخذلك .. أن تكون شيئاً وهمياً .. خدعةً مثلاً .. أو أكذوبة . .
وبدت على وجه « مدحت » علامة الضيق والخذلان .. فأردف « جاد الله »
قائلاً :

— لا تكتب هكذا .. أنا أقول مثلاً .
— بالطبع أكره أن تكون أكذوبة .
— لقد باتت إذن شيئاً في حياتك .. شيئاً واضح الملامح يشغل جزءاً من تفكيرك واهتمامك .
— أعتقد هذا .
— وإذا فقدته .. تحسن أنك فقدت شيئاً ؟!
— لا شك .
— شيئاً عزيزاً ؟
— تستجوبني ؟!
— أبداً .. إنما فقط .. أعرفك بمشاعرك .. أنت تضرر المسألة في نفسك وترفض أن تحددها أمام عينك .. إنك تحب الفتاة .
— كيف ؟!
— « تاني ! »

— أعنى كيف أحب .. مخلوقة لم أرها .. مخلوقة كل معالمها .. مستمدة من السطور .. والصور .. هل يعقل أن يحب إنسان صورة .. ووصفاً ؟
— ولم لا ؟! إن الحب دائماً لا يكون إلا صورة .. ووصفاً .. نظل نحملها في أذهاننا .. حتى نلتقى بأقرب الناس شياً بها وانطباقاً عليها .. فنسرمي في أحضانها .. والفارق بين حالتك .. وحالات غيرك من المحبين .. أن المخلوقة وجدت ، أولاً .. ثم رسمت في ذهنك صورتها وأوصافها .. فإذا أحست أنها قد لاءمتك .. وأغلب ظني أنها لاءمتك فعلاً ، فليس عليك إلا أن تمد يدك لتتناول الأصل .. إنها نعمة من الله أن أرسلها إليك ، لتوفر على ذهنك عملية خلق الصور والصفات التى تمنناها فيمن تحب .. إنك مخلوق ضعيف التصور .. باهت الخيال .. وكان يحتمل .. أن تستمر في حياتك هكذا بلا شعور .. ولا حب .. لأنك أكسل من أن تفكر فيما تريد .. أو تحدده في ذهنك وتصوره لنفسك ، أليس هذا حقيقياً ؟! .. أجب !!

وهز « مدحت » رأسه .. وأجاب ضاحكاً :

— أنت غلباوى .

— وأنت حمار عنيد .

— أنا !!

— أجل أنت .. لماذا لا تعترف أنك تحبها ؟!

— الله .. أما مجنون !! أحب من يا غبى .. إنها مخلوقة لطيفة .. أشفق

عليها .. وأتسلى معها .

— تتسلى ؟!

وهز « جاد الله » رأسه وأردف في استسلام :

— تتسلى .. تتسلى حتى تفرق لأذنيك .. ولا تجد من ينقذك .. مع السلامة

يا أستاذ .. يا متسلى .

وافترف الصديقان .

وعندما عاد « مدحت » إلى حجرتها في « منشية الطيران » وتمدد على مقعده المريح في الشرفة المطلة على المطار . ولاحظ له أشباح الدور في ضوء القمر الباهت تقطع خط الأفق وقد نتأت من بينها قباب « هليوبوليس بالاس » .. وبرج قصر البارون .. وبدت أشجار الكافور الضخمة .. بسور المطار ، ومن أسفل الشرفة تصاعدت رائحة زهر البرتقال الذي يملأ حديقة البيت .. تحملها نسيمات مايو الدافئة لتشبع الجو بأريجها العطر .

ومرة أخرى عاد النقاش يدور حول .. ساكنة قمم الألب .. الشقراء المرهفة .. الرقيقة .. اللطيفة .. الذكية الحنون .. المحبة .. الودود .. ال .. ال .. التي لا يستطيع إلا أن يصفها بكل وصف طيب ، بلا مبالغة ولا تزيد . عاد النقاش مرة أخرى يدور حولها .. المخلوقة التي لا يحدد وجودها سوى السطور والصور .. المخلوقة الكائنة بالوصف والرسم .

وفي هذه المرة كان النقاش ، بين مدحت ، وبين نفسه ، كان نقاشاً .. أصرح .. وأجراً .

أهو حقاً ، يتسلى معها ، ويشفق عليها ؟!

جائز .

محتمل أن يكون هذا .. هو بعض ما يفعله معها ، ولكنه قطعاً ، ليس كل ما يفعله .

إنه يمارس معها عملية تسلية ، وشفقة .. ولكن هذا قد أضحي ضمن عملية .. أعم وأشمل .

قد تكون المسألة .. بدأت شفقة ، وامتدت تسلية .

ولكن الشيء المؤكد ، أنها لم تنته ، إلى هذا فقط .

إن هذه المخلوقة ، الرقيقة ذات العينين المتسعيتين ، والشعر الذهبي .. المسترسل في جدائل ، أو المعقوص على شكل ذيل الحصان ، قد أضحت — كما استدرجه جاد الله — جزءاً من حياته .

جزءاً .. فقط !!

إنه لم يحس باهتمام مخلوق ، قدر ما أحس لها .
وهو يستحس نفسه .. وقد يخجل أن يظهر هذا الاهتمام أمام أحد من حوله ،
ومع ذلك ، فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه منه .
وهو يسلم به لنفسه ، كنوع من أنواع الشذوذ ، الذى يحاول دائماً أن
يلصقه بنفسه ، والذى يؤكد عنه من حوله .
إنه يعتبر شذوذاً من نفسه ، أن يمنح كل هذا الاهتمام ، وهو الإنسان المفروض
فيه الترفع عن مشاعر الحب .. وغير هذا من السخافات — لإنسانه — أقرب
وصف يمكن أن توصف به .. أنها غير كائنة .

إن أحداً .. من كل من حوله ، من معارف أو قريبات أو صديقات .. لم
يستطيع أن يستحوذ منه على مثل هذا الاهتمام .. أو التفكير
ولكن هذه المخلوقة قد استطاعت . وهى قد تسربت إلى نفسه .. لتكون
جزءاً هاماً من حياته .. ومشاعره .. وتفكيره .
اعترف بهذا .. أم أنك .. سلم بهذا أم خجل .
واهتمامه بها كان فى مظاهر ، إن أخفاها عن الناس ، فمن العيب أن يحاول
إخفاءها عن نفسه ..

لطفته الشديدة على رسائلها .. وإحساسه المتمتع بدعوتها واستغراقه معها فى
كل ما تذهب إليه أو تعيش فيه ، ثم .. استمتاعه بالرد عليها وبدعوتها إلى كل ما
يذهب .

بل أكثر من هذا ، يقينه بأنه قد بات يلبى دعوات السهرة والولائم من أجلها
هى ، لكى يصفها لها .. ويمتعها ، ويسليها .
وهو يتصورها تصحبه فى كل ما يذهب إليه .

وأخيراً يتبلور كل هذا فى إحساسه بأنها باتت مخلوقة حية .: قرية من نفسه ،
وبأن لقاءها ، قد أضحي شيئاً محتماً .. إن لم يحدث اليوم ، فسيحدث غداً ..

أو بعد الغد .

ومع ذلك ، فإن شيئاً من كل هذا لم يخرج عن دائرة تفكيره ولم يحاول أن يفصح لها عنه ، ولا حاول أن يبيديه لأحد من حوله .

وجلس يكتب إليها ليلتذاك .. يصف لها مجلسه ، ويحمل إليها أريخ البرتقال ، مع نسيمات مايو الدافئة ، وينبئها بأنه قضى أول أمس يسير معها في شوارع القاهرة .: محاولاً شراء أسطوانتها المحببة ، « فالس الوداع » لشوبان .. والتي لا تفتأ تصف له دقائقها المنسابة .

ووصف لها شارع « عدلى » ودخولهما محل « بابازيان » وافتقاد الأسطوانة ، ثم المشوار الذى ساراه سوياً إلى شارع « سليمان » حيث دخلا ممر سينا « راديو » وكيف ابتاع لها « غزل البنات » من المحل القائم على اليسار أمام محل الأسطوانات .. وكيف خرجا من المحل بخفى حنين .. وذهابهما إلى المحل الكائن في شارع « الأنتكخانة » .. بجوار « أفيرينو » .
وأخيراً حصولهما على الأسطوانة ، وسماعها معاً ، داخل « الكشك » الزجاجى الصغير .

إنها تدور الآن في « البيك أب » الموجود في حجرته . إنه يسمعها للمرة العاشرة في يومه هذا ، فهو قد يترك « البيك أب » مغلقاً عليها ، وتعود الإبرة إلى الأسطوانة لتعيد إذاعتها بمجرد أن تنتهى .

إن موسيقاها المنسابة في الأعماق .. لا تتوقف !

لم يكن يتصوّر قط أن مقطوعة من الموسيقى يمكن أن تصيب الإنسان بمثل هذا الأثر من النشوة .. والحزن .

لماذا يحس مع هذه المقطوعة ، كل هذا الإحساس ؟!

أمن فرط ما حدثته عنها ؟!

ألأنها تدفع بها في نفسه ؟!

ألأنها تحمل إلى ذهنه صورتها ، وهى في حجرتها الصغيرة أمام

المكتب ، تشرّد يبصرها من النافذة ، إلى الأفق البعيد الذى بدت فيه القمم
البيض .. وإلى السنديانة التى تخنو يديّ على سقف المحطة المتحدر .. وترفع إلى
السماء يداً أخرى .

من يدري !!

قد تكون المقطوعة .. معجزة فى حد ذاتها ، أو تكون المعجزة .. فى أنها قد
باتت قطعة منها .. من « نادية » العزيزة الغريبة .. الجالسة فى حجرتها تنظر إلى
سد الجبال الذى يحجب عنها شمس الوطن المشرقة .

وظل « مدحت » مسترسلا فى الكتابة .. والأسطوانة لا تكف عن
الدوران .. وموسيقاها ذات الدقات المتقطعة الهادئة .. المناسبة فى عمق .. لا
تتوقف ، ولا تنبى .

وأخيراً .. وعندما انتهى من الرسالة ، أحس أنه قد نسى شيئاً هاماً .. إنه لم
يعلق على الصورة بعد .

وأمسك بالصورة فى يده ، وكتب « صورتك فى كفى أمام عيني . هل يجب
أن أقول عنها شيئاً ؟ لو تركت لنفسى ، لما قلت شيئاً .. فأنت عندي .. أجل ..
وأسمى من مجرد صورة .

« ورغم ذلك أحس — بعد طول إلحاحى فى طلبها — أنه يجب أن أقول رأى فيها .
« الواقع أنك أجمل كثيراً ، مما كنت أتصوّر .

« إن صورتك ذات الضفائر لطيفة ، وهى تحمل فى مجموعها .. طابعك
الهادئ ، اللطيف .

« أما صورتك الأخيرة .. فماذا أقول عنها ؟!
« إني لست مغزلاً ممتازاً ، ولكنى مع ذلك أجزؤ فأقول إنها رائعة ..
بأنفك ، وعينيك ، وشعرك المعقوص فى ذيل الحصان .. ورقبتك الفارعة ..
و .. وماذا ؟ أظن هذا يكفى .

« فأنا لم أعتد أبداً .. هذا الغزل .

« أنت جميلة دائماً يا « نادية » .
« فى طفولتك .. وفى صباك .
« وأؤكد لك أنك ستكونين جميلة أيضاً عندما تصبحين عجوزاً .. شمطاء ..
لك من الأحفاد ذرية ضخمة .
« إنى أشعر دائماً بالاعتزاز بك .. وبكل ما يصدر عنك .
« سأنتهى الرسالة .. قبل أن أندفع لأقول أكثر من هذا .. فأنت تعلمين ما
تفعله نسيمات الصيف بنفوسنا .. تعلمين أثر زهور المشمش والخوخ .. وعبير
زهور البرتقال .
« وقد تعلمين ما يمكن أن يفعل كل هذا .. إذا سرت فيه دقائق الوداع ..
لشويبان » .

ووصلت الرسالة إلى « نادية » .. بكل ما فيها من نسيمات داخات وأريج
عطر .

وصلتها وهى هابطة من حجرتها بالمدرسة فى طريقها إلى البيت . وكانت تحس
بالأمل ينبض فى كل ما حولها .. فى الأشجار والطيور .. والزهور .. والأطفال
منطلقين فى فناء المدرسة .. وفى صوت عجلات القطار يغادر المحطة .. وفى نداء
الباعة .. وفى هزات ذيل كلب ناظر المحطة .. وفى غزل فتیان المدرسة .. و ..
وكانت هى التى أصرت على أن تسلك الطريق الطويل المزدهم .. بعد أن
كانت دائماً تفضل اختصاره بالسير بجوار سور سكة الحديد .

لم يكن بنفسها خوف من الناس .. ولم تفكر أبداً أن وراء الإيثارب الحريرى
الذى تلف به رأسها وعنقها .. شيئاً يمكن أن تخشى أن يكشفه الناس ..
وكانت تتوقف عند المحلات .. وكانت تعاكس المارة ، وتضحك بصوت
مرتفع .. لقد نظرت إليها « منى » فى دهشة متسائلة :

— نادية .. ماذا بك؟! أجننت!؟

— لماذا!! لأنى أقلدك ..؟

— أكل هذا من أجل الرسالة التي تخفينها في جيبيك !؟
— أبداً .. إلى أحسن بسعادة عامة .. الربيع دائماً يدفع في نفسى بهذا
الإحساس .. كل شيء جميل يا « منى » .
— معك حق .. ما رأيك في أن تتسلق الجبل غداً ..؟
— موافقة .

— على فكرة .. هل رددت علي رسالة « جمال » ..؟
— أجل .. إنه إنسان طيب جداً .. لقد رددت عليه ، وعلى عمى سليمان ..
وعلى صبرى .. لقد كتبت بالأمس . ثلاث رسائل .
— ماهى أخبار صبرى !! أما زال منهمكا في الدستور !؟
— دستور إيه ..؟ لقد انتهى منه منذ مدة ، إنه الآن منهمك جداً ، في بناء
السد العالى .

وقهقهت « منى » قائلة :

— مرة واحدة .

— لقد قال لى إنه لا أمل لمصر بدونه .. وإنه لا رخاء لأجيالنا القادمة إلا به
— دعه أولاً يحقق الرخاء .. لجيلنا الحالى .
وتوقفت « نادية » أمام محل لبيع آلات التصوير والأفلام وأخذت تنظر إلى
« الفاترينة » في تمنع .. وجذبتها « منى » قائلة :
— ياللا يا نادية .. حتى نتغدى ونلحق السيينا .
واستمرت « نادية » في مكانها تحديق في « الفاترينة » ، ثم هزت رأسها وبدت
كأنها حزمت رأياها على أمر .. وقالت :

— اسمعى يا منى .. لقد قررت أن أشتري كاميرا .

— كاميرا !! ليه ..؟

— لأصورك بها .

— أنا ..؟

- أجل : إني معجبة بك جداً .
— وابتسمت « منى » في خيبتها وقالت :
— تعنين معجبة بنفسك ؟!
— وضحكت « نادية » وردت قائلة :
— أنا وأنت واحد .
— ولكن .. ألا تنتظرين حتى ترى رأيي قى ! لماذا لا تفتحين الرسالة
وتقرئينها !
— الآن .. ؟
— ولم لا ؟!
— لا : هذه الرسالة لا تقرأ على عجل ، ونحن في ضجة الطريق .. إنها تحتاج
إلى خلوة ، وهدوء .
— وموسيقى .. وزهور .. وسرحان .. و .. و .. أليس كذلك ؟..
— طبعاً .. ليس هناك فارق بين السندوتش ، والديك الرومى . هل
تستطيعين أن تأكلني الديك الرومى على قارعة الطريق ؟
— طبعاً .. إذا وضعته في ساندوتش .
— لا .. لا .. أنا أحب أن آكله على المائدة ، وحدى .
— الظاهر . أن بك اليوم لوتة !
— يجوز .. هيا بنا نشترى « الكاميرا » . قبل أن أفيق .
— والنقود ؟!
— سأشتريها بثمان الراديو .
— والراديو .. ؟
— يلها ربنا بعدين .. إننا نستطيع أن نسمعه عند « جاني » .. لقد أستطعت
أن أسمع محطة مصر أول أمس .
— حقيقة ؟!

— لقد سمعت محطة تديع .. أسطوانة جبل التوباد .. أعتقد أنها محطة مصر .
— ولماذا لم تنصتى حتى النهاية .
— السخيف « توني » أدار المؤشر .. هيا بنا نشترى الكاميرا .
وبعد دقائق .. خرجت نادية من المحل والكاميرا في يدها وقد وضع فيها فيلم .
وقالت « نادية » في لهجة مندرة :
— خذى بالك من نفسك جيداً .. أنت تعرفين .. من تمثلين بصورتك .. لا
أريد .. مرقعة .

— والله سأفضحك .. لن أصور إلا بالماليه .
وفي تلك الليلة جلست « نادية » تستعيد قراءة رسالة مدحت . كانت للمرة
العاشرة .. تعود إلى قراءتها في نفس اليوم .
ثمّة شيء .. أو أشياء .. في هذه الرسالة ، يدفع في نفسها خليطاً مضطرباً من
المشاعر .

لأول مرة .. تحس أن روابط الأوهام .. قد تجسدت وأضحت شيئاً صلباً ..
يمكن أن يبرز في حيز الحقائق .
لقد بدت لها أوهامها .. كأنها أبنجرة تكثفت .. لتصبح قطرات .. والقطرات
قد تجسدت لتصبح شيئاً صلباً ملموساً .
وكانت سعيدة بذلك .
سعيدة جداً .

فمجرد الإحساس ، بأن « مدحت » .. طيف الأوهام .. وفارس
الأحلام .. قد أضحي مخلوقاً حياً .. تشدّها وإياه ، روابط كتلك التي تشد
المخلوقات الحية .

مجرد هذا الإحساس — بصرف النظر عما يمكن أن يؤدي إليه من نتائج —
يدفع في نفسها فرحة البعث ، ونشوة الحياة .. وكأنها مخلوق ولد ، ليوافه
النور .. والهواء .. والشمس ..

ومع هذا الإحساس بالبعث .. وبالأوهام ، التي أضحت حقائق .. يداخلها شعور بالخذر ، والقلق .. والخوف .

الخوف .. من أثر الخديعة ، في هذا البعث .

أيمكن أن تكون الصورة .. المخادعة ، سبباً في تحقيق كل هذا؟! لا .. لا .

إن أحاسيسه واضحة جلية في كل رسائله ، قبل أن يرى الصورة .

في دعواته الحارة .. وفي خوفه عليها ، وفي رفته نحوها ، في كل حرف من رسائله كانت تحس ، بخفقة .. ونبضة .

لم تكن المسألة ، أبداً .. مسألة صورة . بدليل أنه قال لها « أنت عندي أجمل وأسمى من مجرد صورة » .

ولا تكاد تدفع بالطمأنينة في نفسها حتى يعود إحساس القلق والخذر والخشية ليهاجها في عنف ويعيد على أسماعها قوله في الرسالة :

« الواقع أنك أجمل كثيراً .. مما كنت أتصوّر .

« إنك رائعة ، بأنفك .. وعنقك وشعرك . »

ولم تتحمل هجوم الصوت الخذر القلق ، وهزت رأسها في ضيق وعنق .. كأنها تحاول طرده .

إنه قال ذلك مجاملاً .. وحتى لو لم يكن مجاملاً .. وكان ذلك رأيه الحقيقي .. فأى خوف في ذلك؟ .

أترى قوله سيختلف لو أنها أرسلت صورتها هي ؟ إن لها نفس الأنف ونفس العينين ونفس الشعر !!

ألم يقل المصوّر بنفسه ذلك .. وأنه يستطيع أن يصوّر إحداهما .. ويخرج من الصور كمية مضاعفة تصلح للالتين !

هل لو صوّرت هي .. كانت صورتها تختلف عن هذه ؟ وهل كان قوله .. سيختلف عما قال ؟

لماذا إذن لم تصوّر ؟

هل كانت تستطيع ؟
والإيشارب ، والعنق ، والحريق .. و .. أف .. لكل هذا !!
إن رأسها يوشك أن ينفجر .. ولكن ما قيمة الصورة ، وهو يقول لها « إنك
أجمل وأسمى من الصورة » ؟
أحَقاً .. يعنى ذلك !!
أحَقاً .. قد باتت شيئاً هاماً فى نفسه ؟!
وهب أنها قد باتت كذلك .. فماذا تريد ؟!
إلى أى نتيجة تريد أن تصل ؟. هل تجسر على لقائه ؟!
بشكلها هذا ؟
بالإيشارب !. أم بالعنق المحروق ؟!
ولكن لماذا تفكر فى هذا ؟
لماذا لا تستمتع .. بما حققته من نجاح ؟
إنها قد باتت تعنى لديه شيئاً .. أو على وجه أدق .. وأصرح .. إنه يحبها
فلماذا لا تستمتع بذلك ؟
أجل .. أجل ..
إنه يحبها .. يحبها .
ودفنت رأسها فى الوسادة .. وتركت جسدها ينتفض فى الفراش ، ودموعها
تغرق غطاء الوسادة .

(٣٣)

فك قيد .. !!

غربت شمس ١٨ يونية ١٩٥٦ لتبعث في مغربها بأضواء باهرة .. تشع في قلوب المصريين .. فقد أفلت مع شمس ذلك اليوم شمس الاستعمار التي اصطلى المصريون سعيها سبعين عاماً ، وانزاح عن مصر كابوس المستعمر الذي أثقل كاهلها وأنقض ظهرها .. وبدت مصر في تلك الليلة وهي أشرق ما تكون ضياء .. وأبهى نوراً ، وكأن قطرات الدم والعرق التي بذلتها الأجيال المكافحة في سبيل الحرية والكرامة .. قد صيغت في حبات من النور تكلل جبين مصر الحرة المكافحة الناهضة .

وبدا الازدحام في شارع « الزمالك » وقتذاك على أشده ، وتكدست العربات في الطريق .. حتى كادت حركة المرور تشل .. وبدا « نادى الضباط » وقد غمرته الأضواء الكاشفة ، واحتشد به المدعوون من جميع طبقات الشعب الذين دعاهم رئيس الجمهورية .. لحفل أقيم ابتهاجاً بعيد الجلاء .

وامتدت الحديقة المواجهة لبناء النادى بعد أن أزيل بناء الاتحاد المصرى الإنجليزى الذى كان يجاور النادى ، ورصت آلاف المقاعد أمام المسرح المكشوف القائم في نهاية الحديقة والذي يحجب وراء أستاره فرق الموسيقى والغناء .. والمجموعات القائمة بالاحتفال .

اتخذ المدعوون أماكنهم في الحديقة ، وفي ركن على اليسار جلس مدحت وحاد الله بين أساتذة الجامعة ومدرسيها ، ومد جاد الله ساقيه وفرك كفيه وتجشأ ، ثم ضرب بكفه على بطنه قائلاً :
— عشوة دسمة .

وأجاب مدحت :

— لقد كنت تأكل .. كأنك تأكل في آخر زادك .

— ولم لا .. إن لم أكل في يوم جلاء الإنجليز .. فمتى أكل ؟!

— كأنك أنت الذى أجليتهم ؟!

— وهل لديك شك فى ذلك . ألم أشارك فى مظاهرات ١٩٣٥ .

— أبهذا أجليتهم ؟!

— وأنى اشترك فى ثورة ١٩ .

— معقول !

— وجدى كان فى جيش عرابى .

— أصيل .. مجاهد أباً عن جد .

— أتسخر ؟. ألم تسمع « جمال عبد الناصر » وهو يقول اليوم فى الإذاعة

« إن جيلنا لم يصنع ذلك وحده . وإن أجيال شعبنا كانت تكافح وتناضل ، وإن

الشهداء كانوا يسقطون على الأرض وبجوارهم أعلامهم مضرجة بالدماء ولكنهم

لا يستسلمون أبداً ، وأن قوى المقاومة فىنا ظلت تحفق وتنبض » .

ونظر مدحت إلى جاد الله فى دهشة ، وتساءل :

— جاد الله !! ماذا حل بك ؟!

— له !

— أخقأبت تؤمن بما تقول ؟!

— ولم لا !!

— إنه كلام « جمال عبد الناصر » ؟

— أعرف هذا .

— ولكنك كنت تسخر من اتفاقية الجلاء !

— يجوز .

— وكنت تقول إنها إحدى مناورات الإنجليز التي تعودوا أن يخدرونا بها منذ سبعين عاماً .

— أنا قلت هذا ؟

— ألا تذكر ونحن في حجرة النواب في المستشفى !

— ربما .. قلت .

— وقلت إنهم ضحكوا على جمال !

وزغد جادالله مدحت في فخذه ، وقال زاجرا :

— اخفض صوتك يا غبي .

وابتسم مدحت وأردف هامساً :

— وقلت إنهم لن يجلوا .

— وبعدين !!

— ماذا حدث الآن حتى بت تحفظ كلام « جمال عيد الناصر » ؟!

— ماذا حدث ؟!

— أجل .. ماذا حدث .. حتى غيرت رأيك فيه ؟!

— أيها الغبي .. وماذا تريد أن يحدث أكثر من هذا .. لقد حدث الشيء الذي

كان يبدو لي أنه لا يحدث أبداً .. لقد جلوا .. أنكشحو .. لقد باتت كلمة

الجللاء التي كنا نردها بلا وعى حقيقة واقعة .. لقد اتضح لي أنه هو الذي ضحك

عليهم .. لقد شيعهم اليوم في بورسعيد وكاد « يخرج لهم لسانه » ساخراً .

وفي الناحية الأخرى كانت هناك تيمة للحديث بين اثنين آخرين .. عصام ،

وقد جلس في ركن الضباط وبجواره صبرى وقد أخذ ينصت إليه في لهفة وشغف

متسائلاً :

— وبعدين .. ماذا حدث ؟! صف لي كل شيء .. كم وددت أن أكون

هناك .

— كنا نقف في السرادق الكبير الذى أقيم في مبنى البحرية ، كانت نسومات البحر تهب علينا غليظة رطبة .. كان السرادق مزدحماً .. وكانت الفرحة تفعم قلوبنا جميعاً . كنا نضحك ملء صدورنا .. لم نكن في احتفال رسمى ، وإنما كنا في عرس .. كانت مدينة بورسعيد تبدو كالصبي في يوم عيد .. يعدو بالزمارة والبالون ، ويرقص ويغنى .. كانت المدينة كلها تضحك وتمرح ، كأنما أزالنا عن نفسها كابوساً .. أو رفعت غمة ، وكان الناس يتبادلون التهاني على غير معرفة .. كان بنفوسهم إحساس الأهل .. وقد تخلصوا من غريب ثقيل ، وانطلقوا يمرحون بلا كلفة ولا خشية .. وكانت القطع البحرية قد اصطفت أمام منصة « الرئيس » وقد بدت هى والسفن الزاسية فى الميناء مزدانة بالأعلام الملونة مكللة بالزهور .. كأنها فى سامر أو فى « زفة » .

وتساءل ضبرى فى لهفة :

— وأين كان جمال ؟!

— كان يجلس فى المنصة .

— وكيف كان يبدو ؟!

— كان يتسم .. ولكنى كنت أحس وراء ابتسامته شيئاً من الرهبة .. رهبة الإحساس بجلال الموقف وضخامة العمل .. رهبة الشاب الصغير الذى كان يعدو منذ خمسة وعشرين عاماً وسط الطلبة فى ميدان « المنشية » ليهتف وسط المظاهرات بالحرية والاستقلال ، وينادى بجلء الإنجليز عن بلاده ، والذى كان يرى مواطنيه من حوله يسقطون صرعى برصاص المحتل وعلى شفاههم نداءات الحرية التى توارثها المصريون جيلاً عن جيل .. مع إرث الاحتلال والذل والعبودية .. كنت أبصر فى ملامحه وراء الابتسامة المشرقة ، رهبة الشاب الصغير الذى أمضى عمره يحلم بحرية وطنه .. ويهتف مع مواطنيه باستقلاله ، يرى نفسه ، وقد تحققت بواسطته أحلام مواطنيه ، وتجمعت فى يديه قوى الشهداء والمكافحين منذ سبعين عاماً .. لتدفع قلوب المحتل الغريب وتفلت أعناق

الوطن من أيديه ، وتزجج عن صدره كابوسه . وبقدر ما كنت أحس بفرحة الناس .. كنت أحس برهبته ، وعندما نهض .. ليرفع العلم على السارية .. كنت أحس بمدى انفعاله الذي تخفيه ابتسامته المشرقة ، وخطواته الثابتة ، وهامته المرفوعة .

— وكيف رفع العلم !؟

— حمله مطوياً بين كفيه .. وبخضرتة نضرة وإيناع ، وبياض هلاله .. نور وإشراق .. وكأنه قطعة من الحياة الخضراء اليانعة .. والنور الأبيض الناصع ، وانحنى « جمال » على قطعة الحياة والسلام والنور وقبلها .. وفي عينيه اغروراقة .. وفي قسامته اختلاج ورجفة .. ثم رفعه بيده ، ونظر إليه ، وهو يعلو ويرفرف .. وضع الناس بالهتاف . وأحسست أن الأرض تهتز تحت قدمي من فرط حماسهم .. وخيل إلي أن « جمال » لم يرفع علماً .. وإنما فك قيذا ، وحطم قضباناً ، وأطلق العنان لوطن حبيس .

وصمت عصام .. وبدا عليه كمن يغالب انفعالا .. وهز رأسه وبدا كأنما

يحدث نفسه :

— كانت لحظة عجيبة ..

وتساءل صبرى في لهفة :

— وماذا قال جمال !؟

— لم يتحدث كثيراً .. لقد قال : « إن هذه اللحظة هي لحظة العمر .. بل هي العمر كله .. لحظة كافح من أجلها الآباء والأجداد .. وراحوا قبل أن ينعموا برؤيتها » .

وصمت عصام وعاد صبرى يستحثه قائلاً :

— أهذا كل ما قال !؟

— لست أذكر أكثر من هذا .. لقد رفع عينيه إلى العلم المرفرف ، وقال ، وكأنه يتهلل إلى الله : عسى ألا يرفرف على هذا الوطن وعلى هذه الأرض ، سوى

هذا العلم .

وبدا التأثير على ملاح صبرى ومد يده يتشاغل بمسح منظاره السميك ، وهو يقول :

— وددت لو فقدت نصف عمرى لكى أشاهد تلك اللحظة .. لقد سبق أن ذهبت إلى بورسعيد .. ذات صيف . وكان الإنجليز ما زالوا هناك .
— أنا أيضاً ذهبت إليها .. بضع مرات ، ولكنى أحسست بها اليوم شيئاً آخر .. ربما لم يكن هناك شىء عادى قد تغير بها ، ولكن إحساس الحرية ونشوة الاستقلال .. قد خلج عليها رداءً عجيباً .. أظهرها كأنها .. عروس تزف ، وملاً ربوعها .. بالفرحة والبهجة والحب والسلام .

— ليتك دعوتنى

— كيف أدعوك .. لقد كنت فى طابور .

وصمت صبرى وهز رأسه قائلاً :

— على أية حال ، سأدعوك أنا إليها .. بعد اثنى عشر عاماً لنحتفل بعيد جديد .

— عيد جديد !؟

— أجل .. ما زال هناك فى القتال .. مزيد من الأعياد .

— لا أفهم ما تعنى !؟

— عندما ينتهى عقد امتياز القناة .. وتجلو عنها الشركة الفرنسية ، وتصيح القناة لنا .

ورفع عصام كفيه قائلاً فى غير مبالاة :

— إنها لنا الآن .

— أنت عيبط .. ليس لنا فيها غير حثالة كأس .. لقد قرأت عنها كتاباً فى الصيف الماضى .. فذهلت .

— له !؟

— لقد بدت لي كدولة داخل الدولة .. كضرع حلوب .. نلقى بها للغير ..
ليلتهم خيره ، ويمن علينا ببضع قطرات ..
— على أية حال .. مصيرها لنا .. متى قلت لي إن الامتياز سينتهي ؟!
— بعد اثني عشر عاماً .. سنة ١٩٦٨ .
— هانت .

— إذا لم يتلاعب المستعمرون .
— أى مستعمرين ؟ لقد انتهينا من الاستعمار . يا أستاذ .. أنسيت بماذا نحتفل
الآن !!

— لقد انتهينا من عدة جولات ، ولكن هل تظن أننا انتهينا من الجولة
الأخيرة !!
— أى جولات تعنى !! إنها معركة كبرى خضناها معه وقد كسبناها بعد
صراع سبعين عاماً .

— اسمع يا عصام .. إنك ما زلت غشيمًا في السياسة .. سأشرح لك
الجولات التي خضناها مع المستعمر .. لقد كسبنا المعركة الأولى التي استمر
الصراع فيها بيننا وبينه — كما قلت — سبعين عاماً ، وانتهت بتسليمه بالجلء ..
ولكنه لم يسلم به ، وهو يضم الانسحاب فعلاً ، وإنما كان يعد لجولة جديدة .
— ماذا تعنى ؟!

— أعنى جولة الأحلاف .. إنه لم يكذب انتهى من التسليم بالجلء حتى رد إلينا
الكرة .. في صورة حلف بغداد .. فأعدناها إليه ، ورفضنا الحلف .

وضحك عصام وتساءل في شيء من السخرية :

— وماذا فعل هو أيها السياسي المخنك ؟!

— أعادها إلينا مرة أخرى .. في صورة الضغط .. ومنع السلاح .

وعاد عصام يضحك قائلاً :

— الكرة الآن في أقدامنا ؟!

- أجل .. الكرة مع جمال .
— جمال شاط ؟
— شوطة جامدة .. فى مؤتمر باندونج .. استقرت فى المرمى محققة هدف
الحياذ الإيجابى والتعايش السلمى .
— وازدادت ضحكة عصام وقال :
— الكرة الآن مع المستعمر ؟
— باصاها لإسرائيل .. إسرائيل شاطت فى الصبحة .
— خسارة .
— ولا خسارة ولا حاجة .. « جمال » خد الكرة .. جمال طلع بيها .. جمال
شاط .. حنت دين شوطة .. رجت اللاعب كله بصفقة الأسلحة .
— وبعدين !؟
— الكرة مع المستعمر .. المستعمر جرى بيها .. المستعمر شاط ، وحلف ما
يشترى القطن منا .
— خسارة .
— بالعكس .. « جمال » خد الكرة وحذفها مع القطن للصين الشعبية ،
وماعاها اعتراف بالصين الشعبية ، والبقية تأتى .
— وقهقهه عصام قائلاً :
— خسارتك فى الطب .. كان يجب أن تكون مديعاً فى الكرة .
— الكرة السياسية فقط .
— إذن خذ بالك جيداً .. حتى تصف لى أولاً بأول .. لأنه ليس لى جلد على
متابعتها .
— يعطى الحلق لى بلا ودان .
— أى حلق تحسدنى عليه ؟
— وجودك فى الجيش .. وسط الدبابات ستالين . ومشاهدتك للجلاء .

اليوم .

— أما زلت تحسدني على حفلة اليوم؟!

— طبعاً .. لو شاهدتها لا استطعت على الأقل أن أصفها لنادية .

— ولماذا لا تصفها لها كما وصفتها لك أنا .

— سأحاول .. ولكنني أكره دائماً أن أكون مجرد ناقل .. إني أحب أن أشارك

في شيء .. هل تصدق أن الشيء الوحيد الذي يضايقني في احتفال الجلاء

اليوم .. هو إحساسى بأنهم جلوا في سكوت .

— يا أخي احمد ربنا .

— الحمد لله .. ولكنني كنت أود أن أشاهد جلاءهم على الأقل لأضرب

واحداً منهم « شلوتاً » .

— لكي يضربك رصاصة!!؟

— سأضربه مثلها .. ماذا تظنني .. عاجزاً عن ضرب النار !! لقد ضربت في

التدريب العسكري .

— مفهوم .. مفهوم .. على أية حال .. ربنا رحم الإنجليز منك .. لقد نجوا

بجلدهم .

ونظر عصام في ساعته في قلق ثم تساءل :

— لقد بلغت التاسعة والنصف .. متى ينوون البدء .

وسمعت ضجعة من الخلف والتفت صبرى ثم بدا عليه الحماس واللهفة ووقف

قائلاً :

— لقد أقبل جمال .. سأرقبه جيداً حتى أستطيع وصفه لنادية ، وأنا أنتخيله

يرفع العلم .

وضحك عصام وقال :

— أخشى من طول ما تكتب عنه في رسائلك .. أن تحبه نادية ، وتتركك !!

وبدا الوجوم على وجه صبرى ثم انبسطت أساريه .. وأجاب قائلاً :

— إنها لن تتركنى من أجله . إنها تحبه كما أحبه . وعلى أية حال ، لا داعى لأن أخاف أن تتركنى .. لأنها لم تأخذنى بعد .

— ولن تأخذك أبداً .. ما دمت تأبى أن تفتح فمك بكلمة حب .

— كلة حب .. إنها لا تعطينى الفرصة .. إن طريقتها فى الكتابة آلية ،

كطريقتها فى الحديث .. تكيل فمى ، وتقتل ألفاظ الحب على شفتى .

وعبر « جمال » ومرافقوه المرز وسط ضجيج التصفيق ، وحماس الهتاف .

واستقر فى صف المقاعد المواجه للمسرح وسط السفراء والوزراء ، وبعد لحظات اعتلى

المسرح .. وبدأ فى تسليم الأوسمة لأعضاء مجلس قيادة الثورة ، وسط الهتاف

المدوى .

وانتهى تسليم الأوسمة ، وعاد الرئيس مكانه . وأطفئت أنوار الحديقة ،

وسلطت الأضواء على المسرح ، وبدأ النشيد الافتتاحى ، وتوالى على المسرح

نجوم السينما يحملون الأعلام ، ووقف « عبد الوهاب » بين نجوم الموسيقى

ينشدون : « قولوا لمصر تغنى معايا فى عيد تحريرها ، تم النصر وصبحت حرة

بأيدي أحرارها » .

وخلال النشيد والناس يرددون فقراته فى حماس وفرحة . التفت جادالله إلى

جواره ليرى مدحت محنيا إلى الأمام وقد وضع يده على بطنه وبدت على وجهه

علامات الألم . وبدت الدهشة والقلق على وجه جادالله وهمس به :

— إيه يا مدحت !! مالك !

وهز مدحت رأسه قائلا :

— لا شىء .

— ما بك حقيقة ؟

— أبداً .. مقص كالمعتاد .

— ولكنك لم تتناول العشاء !

— ربما من أثر الغداء .

- هل أكلت شيئاً غير عادى ؟!
- ربما .. لقد أكلت قطعة كنافة .
- لا بد أنها هى التى أتعبت معدتك .. كان يجب عليك أن تحاسب .
- أحاسب أكثر من هذا !! لقد ضقت بها ذرعاً . إني أشك أن بها قرحة .
- لم أر أجهل منك بالطب .. لست أدرى كيف يسمحون لك بهذه العمليات التى تقوم بها . أكلما أصابك هذا المغص .. اتهمت معدتك بالقرحة؟! — أنا أدرى بنفسى .
- بل أنت أجهل بنفسك .. أنت وسواس كبير .. أتذكر عندما قمت بعمل أشعة منذ عامين ، واتضح أن معدتك ليس بها شيء ؟!
- الأشعة كلام فارغ .
- أتذكر ما قاله لك الدكتور سليمان من أن معدتك ليس بها قرحة ؟! ..
- الدكتور سليمان لم يكن على حق .
- إذا ماهى أعراض القرحة التى عندك ؟! هل نزفت من معدتك دماً ؟!
- يا غيبى .. أتظن ذلك من ضرورات القرحة ؟!
- أعتقد أن ذلك من أول مظاهرها .
- أبدأ .. كلام فارغ
- إذا كنت واثقاً أن عندك قرحة .. فلماذا ...
- أنا لست واثقاً .. إن عندى شكاً فقط .
- وما العمل إذن ؟!
- إني أفكر فى السفر إلى إنجلترا لأعرض نفسى على الدكتور « تتر » .
- تتر ؟!
- أجل .. لقد قابلته هنا فى العام الماضى ، وهو نفسه الذى أقترح على زيارته .
- ولكنك لم تخبرنى وقتذاك ؟!

- لأنى لم آخذ دعوته على محل الجدد .
— والآن ؟!
— أفكر فيها جدياً .
— من أجل قطعة الكناقة التى أتعبتكم ؟!
— من أجل معدتى أولاً ، ومن أجل رغبتي فى أن أسافر إلى أوروبا هذا الصيف .. لأنى فى حاجة قصوى للراحة
— من هذه الناحية معك حق .. وإن كنت أعتقد أن إجازة فى الإسكندرية أو بورسعيد كافية جداً .. وإلا أول ما تشطح تنطح .
— الإجازة فى الإسكندرية كعدمها .. لأنهم يستطيعون إعادتي إلى المستشفى ، بتليفون أو تلغراف .
— إذن اذهب إلى مرسى مطروح أو بورسعيد .
— محصل بعضه .. سيعيدوننى بنفس السرعة .
وكانت فرقة « الريحاني » قد اعتلت المسرح .. ووقفت « ماري منيب » تمثل دور « الداية » التى تنتظر المولود .
ونظر مدحت إلى المسرح نظرة من لا يفهم شيئاً مما يجري ونفخ فى ملل قائلاً :
— اسمع يا جادالله .. ما رأيك فى الانصراف قبل أن يزدحم الطريق ويتعذر علينا العودة ؟!
— انتظر على الأقل حتى ينتهى فصل الريحاني .
وبعد لحظات كان الفصل قد انتهى .
وكان « مدحت » يتسلسل بين الصفوف متخذاً طريقه إلى خارج النادى ..
ووصل إلى عربته التى تركها فى شارع فرعى بجوار النادى .. ثم سار يشق طريقه بين المنادين والسائقين حتى وصل إلى شارع « الزمالك » .. وكان المفروض أن يتجه يسرة إلى كوبرى أبى العلاء .. ولكنه اتجه يمينا ثم دلف فى شارع شجرة الدر متجهاً إلى طريق النيل خلف نادى الجزيرة وقال جادالله :

- لماذا لفتت هذه اللفة ؟
- لأنى أفضل هذا الطريق .
- له ؟ .
- لأنى أحب أشجاره المتعانقة .. المسكللة بالزهور الحمر ، وأحب منظر
النيل على حافظه .
- وضحك جادالله قائلاً :
- ما شاء الله .. لقد أصبحت شاعراً .. هذا شيء جد عليك . منذ بدأت
تكتب الرسائل إلى « جاب »
- لا تكن سخيلاً .
- أشياء كثيرة .. تغيرت فيك .. لقد بت مخلوقاً مهذباً .. لو كنت أعلم
هذا سلطتها عليك منذ مدة .. على فكرة .. ما أخبارها؟!
- بنحير .
- ألا تنوى المجيء إلى هنا؟!
- لا أظن .
- أنتويان إذن الاستمرار على رسائلكما الوهى .. دون أن يفكر أحد كما في
رؤية الآخر؟!
- كف عن قولك رسائلنا الوهى ، وإلا ضربتك .
- لا تزعل ، أقصد رسائلكما .. العلمية .. الاقتصادية .
- لا تسخر .
- ماذا أقول إذن .. المهم . أليس لديكما مشروع للقاء ؟
- حتى الآن .. لا .
- ومستقبلاً؟!
- من يدري .
- ألا تدري أنت؟!

- ربما استطعت أن أراها وأنا في طريقى .. إلى لندن.
وهنا انفجر جاد الله مقهقهاً وصاح به :
- يا ابن الإيه . أتسرح بى كل هذه السرحة ، وأنا كالحمار لأدرى شيئاً .
— تدري شيئاً عن ماذا ؟
- تدعى أن بمعدتك قرحة ، وأن الدكتور « تنر » دعاك لزيارته ، وأنتك
تريد السفر إلى لندن .. وأنا أصدقك كالأبله !
- ولماذا لا تصدقنى !؟
- لأن هناك شيئاً أهم من هذا كله يهيبىء لك السفر .
- أولاً أنا لم أجزم بعد بالسفر ، وثانياً .. إذا سافرت سأسافر من أجل
معدتى .
- مفهوم .. مفهوم ، وبالصدفة .. ستمر في طريقك « بجبال الألب » ولن
يكون من الذوق أن تمر هناك دون أن تسأل عنها .. أليست هذه هى خطتك !؟
- أنت سخيف .
- سخيف لأنى كشفت نواياك ؟
- قلت لك إنى سأسافر من أجل معدتى .
- ستسافر إلى لندن ؟
- أجل .
- بالطائرة !
- ولم بالطائرة ؟
- لأن الناس كلهم يسافرون الآن بالطائرة .
- قد أسافر بالطائرة ، وقد أسافر بالباخرة إذا كان لددى وقت .
- وسيكون بالطبع لديك وقت ، وستنزل فى مرسيليا ، ثم تمضى بعض
الوقت فى فرنسا .. أليس كذلك ؟
- ربما .

— بل مؤكد .. قل الحق !!
ولم يجب مدحت .. كان يشرد يبصره من خارج العربة ، وقد بدت الأرض
تلمع أمامه ، وأخذت مصابيح الطريق تتواتر على وجهه ، وفروع البانسيانس
المكحلة بالأزهار الحمر تتكاثف في مظلة تمتد طوال الطريق .
والسكون سائد ، ونسمات الليل تهب رطبة من نافذة العربة ، وأخذ يفكر
في كل ما قاله جادالله .
إن فكرة السفر قد أخذت تقوى في ذهنه ، وأخذت معالمها تتضح ، وسماتها
تتأكد .
وكانت معدته .. هي العذر الواضح للسفر .
العذر الذي يطوى في باطنه كل العلل والاتهامات التي قالها صاحبه .

(٣٤)

تفكير في زيارة !

- في صباح أحد الآحاد .. جلست « نادية » على مقعد في الحديقة وقد أمسكت رسالة مدحت الأخيرة بين أصابعها وبدا عليها الشرود وأقبلت « منى » من الباب الخارجى تصيح بنادية :
- نادية .. هيا بنا .. سنصعد الجبل الآن .. سيمر علينا « تونى وجابى » بعربتهما وستناول الغداء فوق الجبل مع بقية الشلة وهزت نادية رأسها فى ضيق وقالت :
- لن أصدع معكم .. لى متعبة .
- قلت لك سنصعد بالعربة .. أيتها الغبية .
- وعندما ما اقتربت « منى » منها هتفت :
- ما ذبك ؟!
- وأخفت « نادية » الرسالة قائلة :
- لا شىء .. صداع خفيف .
- صداع ؟
- أجل .
- وهزت « منى » رأسها فى دهشة متسائلة :
- منذ متى كان الصداع يصاحب هذه الرسائل ؟!
- ورفعت « نادية » حاجبها مدعية أنها لم تفهم ، وتساءلت قائلة :
- ماذا تعنين ؟!
- أليست هذه رسالة مدحت ؟

- أجل .
— ماذا حدث إذن ؟
— لا شيء .
— هل تعودت أن تلقي رسائل مدحت بمثل هذا الشرود والقلق والانتقاض ؟
— قلت لك إن بي صداعاً .
— كنت أعرف أن رسائل مدحت أنجع الوسائل في شفاء الصداع .. إنها خير بكثير من « الأسبرو » .
— أتمز حين !
— بل أقول جادة .. إنى أعرف تماماً مدى تأثير رسائله عليك .. لقد بعثتكَ من جديد .. انتشلتك من هوة اليأس ، وأحاطتكَ بسياج من الأمل المشرق .. لقد كنت في أول الأمر أهزأ بها وأكره لك أن تتشبهى بخيوط واهية من الأحلام .. ولكنى بعد أن رأيت ما فعلته بك .. بت أحبها ، وأشاركَ السعادة التى تغمركَ بها .. فماذا حدث حتى تبعث فيك هذا الشرود والقلق ! ..
وصمتت «نادية» .. واستغرقت في شرودها .
وعادت « منى » تسأل :
— نادية لماذا لا تجيبين ؟! أرىنى الرسالة !
وسمع صوت « نفير » عربية توفى يتوالى على باب الحديقة وصاحت جالئ منذرة :
— دقيقتين ، ثم تتحرك العربة .. ليس لدينا وقت . وجذبت منى نادية من ذراعها قائلة :
— هيا يا نادية .. لن أتركك وحدك .. لقد أخذنا الجراموفون معنا وسنرقص أمام البحيرة فى حديقة بيت مسيوريتو ، وسنشوى اللحم على سيخ فوق النار .. وإذا كانت المياه دافئة سأنزل فى البحيرة . لقد أخذت المايوه . و ..
ونظر « نادية » إلى « منى » فى دهشة وقاطعتها قائلة :

— تنزلين فى البحيرة ؟!
— ولم لا ؟ إن الشمس ساطعة والجو دافئ .
— إن مياه البحر مثلجة .. إياك ، وهذه الحماسة .
ورفعت « منى » كتفها قائلة فى لهجة المنذر :
— سأنزل إذا لم تأتى معنا .
— أتهدديننى ! إنها حياتك أنت يامغفلة وليست حياتى أنا .
وقالت « منى » فى إصرار :
— إذا لم تأتى سأستحم فى البحيرة .
— استحمى .. انفلقى .
— وسأعوم ، وأجرى .. حتى أجهد ويحدث لى ما تخشيان حدوثه أنت
وأملك .

ولم تتحرك « نادية » وعادت « منى » تقول :
— سأنزف دماً من صدرى .. و ...
وقاطعتها « نادية » ناهرة ، وهى تحس بغصة فى حلقها :
— ما هذا السخف الذى تقولين ! أتظنين نفسك صغيرة !
ورفعت « منى » كتفها ، وهى تسير متجهة إلى الباب :
— أنت وشأنك .. لقد أنذرتك .
ثم أردفت تقول ضاحكة :
— إنى أحس اليوم بلهفة إلى الانتحار .
ونهضت « نادية » وهى تتبعها قائلة :
— يادملك !! أتظنين نفسك خفيفة !
وأمسكت « منى » بيدها ، وقالت وهما فى طريقهما إلى الباب :
— لم تقولى .. ماذا ضايقتك .. فى رسالة .. المحروس ؟
— ليس هذا وقته .. سأخبرك فيما بعد .

- إذن أعطينى الرسالة أقرأها .
- الآن ؟!
- ولم لا !
- أمام هذا الحشد الذى ينتظرنا فى العربية ؟
- إنهم لا يفهمون العربية .. وسنقول لهم إنها رسالة من عمى .
- لا .. لا .. سأريها لك عند ما نعود .
- إذن أعطينى فكرة .. حتى لا يتتابنى قلق .. طوال هذه الفترة .
- فكرة عما ذا ؟!
- عما ضايقتك فى رسالة مدحت . ماذا به ؟
- إنه مريض .
- مريض بماذا ؟
- بمعدته .
- وأى جديد فى ذلك .. ألم يقل فى رسائله من قبل . إنه يأكل طعاماً مخصوصاً لأن معدته متعبة ؟
- أجل ، ولكنها لم تكن متعبة إلى هذا الحد .
- أى حد !
- إلى حد الشك فى أن بها قرحة .
- من قال له هذا ؟
- هو نفسه .
- هو يشك فى أن لديه قرحة !
- أجل .
- وماذا قال له الأطباء ؟
- لم يقولوا شيئاً .
- لماذا ؟

— لأنه لا يريد أن يستشير أحدهم .. لأنه يعتقد أنهم جميعاً لا يفهمون .
— إذا كان الأمر كذلك .. لماذا لا يقطعها .. كما يقطع معدات بقية الخلق ..
الذين يوقعهم القدر تحت رحمته ، ويريح نفسه .
وبدا الانزعاج على وجه « نادية » وقالت ناهرة :
— ما هذا السخف الذى تقولين ؟
وضحكت « منى » وردت قائلة :
— وبهذا القدر تخشين عليه ، وعلى معدته !؟
وأجابت « نادية » فى غضب :
— أنت تافهة .. لا يأخذ المرء منك غير « التريقة » ، والسخرية .. الحق
على أن قلت لك .

وربت « منى » ظهرها فى حنان وردت :
— أغضبت ! إني أضحك يا نادية .. متأسفة .
وأقبلت التوءمتان على الباب الخشبي ، وبدت العربية لهما وقد اكتظت
براكبيها الذين انطلقت منهم الصيحات الهاذرة والضحكات الماجنة
وردت الفتاتان تحيات الشلة ، وقبل أن تتخذا مكانهما فى العربية تساءلت
منى :

— وماذا ينوى أن يفعل !؟
— إنه يفكر فى الذهاب إلى لندن .
وهزت « منى » رأسها وأجابت مازحة :
— معقول ، ويمر علينا فى طريقه ليقضى معنا أسبوعاً .
وتمتمت « نادية » فى صوت خفيض ، وقد أطرقت وبدأ عليها الشرود
والقلق :

— إن هذا هو ما يفكر فيه فعلاً
وهتفت « منى » مأخوذة :

- إيه ؟
- وفزعت الشلة المحيطة بها في العربية من صيحتها المأخوذة ، وصاحوا بها :
- ما بالك !! ماذا حدث لك ؟
- ولم تجب « منى » .. بل عادت تحملق في نادبة متسائلة :
- يفكر في ماذا !؟
- في المرور علينا ، وهو في طريقه إلى لندن
- وهفت « منى » صائحة :
- يا نهار أبوه أسود .
- وصاحت جابى بالتوءمتين .. والشلة تنظر في دهشة إلى انفعالهما في المناقشة
- دون أن تفهم معنى ما يقولان :
- تحدثنا بالفرنسية حتى نفهم .
- وأردف تونى يحتج قائلاً :
- تحدثنا بلغة متحضرة
- وزغذته « منى » في خده بطرف أصابعها صائحة بالفرنسية :
- متحضرة يا غبى !! إن لغتنا هي أصل الحضارة .. عندما كنتم مغرقين في
- بربرية القرون الوسطى وظلامها .. كنا نقول الشعر وندرس الطب والفلسفة
- بالعربية .. مفهوم أم تريد أن أفهمك أكثر !؟
- وصاح تونى :
- بلا زغد .. لم أرفقا أطول منك يداً .
- في المرة القادمة .. سأستعمل شيئاً آخراً غير يدي .. إياك والتحدث بسوء
- عن المصريين أو العرب .. ألا تعرف من أنا !؟
- وهز تونى رأسه وقال في استسلام :
- كنت أحب ألا أعرف .

والتفتت « منى » إلى « نادية » وقد عاودت تسأؤلها المأخوذ بالعربية :
— قولى لى .. أحقاً ينوى هذا الحمار المحيىء إلى هنا ؟!
ورفعت نادية كتفها بحمىة فى شرودها القلق المنزعج :
— إنه يفكر فى هذا .
— إنه مجنون . يجب أن تمنعنه من التفكير فى هذا بتاتاً .
وقالت « نادية » كأنما تحدث نفسها :
— لم يخطر ببالى قط .. أن هذا شىء يمكن أن يحدث .. أبداً .. أبداً .
— لعله مجرد كلام .. إنه لا شك لا يعنى هذا .. غير معقول أن يذهب إلى
لندن مجرد أن معدته لا تهضم « الكنافة » و « الفتة بالثوم » .. إن المفروض ألا
تهضم المعديات الآدمية ، هذه المفجرات ، وثلاثة أرباع المصرىين معداتهم ليست
خيراً من معدة .. « سى مدحت » .
وهزت « نادية » رأسها فى حزن وأجابت :
— لا .. لا .. إنه دائماً يشكو من معدته .
— صحيح أنه يشكو من معدته .. أهذا يدعو .. لأن يترك عمله وعبادته
ومرضاه ويطير إلى لندن ؟
وصحمت « منى » برهة ثم أردفت قائلة كأنما تعدد فى مناقحة :
— وليته كان سيطير ! .. لهان الأمر وزال الخطر .. ولكنه بسلامته ..
سيستسكع بمعدته المقروحة .. فى البحار وسكة الحديد ، ويصعد قمم الألب ..
لمجرد المرور عليك .
ولم تجب « نادية » . كانت المشاعر والانفعالات تصطخب فى نفسها ..
مشاعر متناقضة ، وانفعالات متضادة متباينة .
أيمكن أن يحس لها بما يدفعه إلى هذا ؟!
إنه يقول هذا فى رسالته .
ولكن ألا يمكن أن يكون مجرد كلام .. كما قالت منى !

ربما .. ولكنه أيضاً يمكن أن يكون حقيقة .
هل كانت تتصور في يوم من الأيام .. أن يشعر لها « مدحت » بما يدفعه إلى
زيارتها في قسم الألب ؟!
ولكن هل يزورها .. هي ؟!
هل هي .. نادية .. بشخصها ، ودمها ، ولحمها .. التي يحس لها من
المشاعر .. ما يدفعه إلى التفكير في زيارتها ؟!
أم هي صاحبة الصور التي تعودت أن ترسلها له في كل رسالة ؟
أهي نادية — صاحبة الرسائل — المقصودة بالزيارة ؟!
أم هي « منى » صاحبة الصور !
شيء يبعث على الحيرة والشك .
من هي المخلوقة التي يفكر « مدحت » في زيارتها .. أم هي هذه .. أم تلك ..
أم خليط منهما معاً !!
على أية حال .. إنها قطعاً .. ليست « نادية » بكل تفاصيلها .. ليست
« نادية » مائة في المائة .
إنها جزء من « نادية » .. تضاف إليها أجزاء أخرى من صور « منى » ومن
صنع أو هامه هو .
ومع ذلك ، ورغم أنها تعرف أن الصورة التي في ذهنه ، والتي يحس لها ما
يدفعه إلى التفكير في زيارتها .. ليست صورتها هي .. فإن شيئاً ما في باطنها .. قد
يكون رغبتها في الأمل والمقاومة والحياة .. يدفعها إلى الإحساس .. بأنها هي
وحدها المخلوقة المستقرة في ذهنه .. الراسية في نفسه .. والتي يتوق إلى رؤيتها
ويفكر في زيارتها !!
ولكن هب أنها كانت هي .. أم كان غيرها .
ما الفائدة ؟ ما دامت في جميع الافتراضات .. عاجزة عن أن تلقاه ، لأنها لا
تصلح للقاء ، كما وطدت نفسها من أول الأمر .

إنها تعجز عن لقاءه .. بعنقها المشوه .. الذى يحجبه إشارب لا يفارق رأسها .

ثم إنها قد تكون هى صاحبة المشاعر التى يكنها لها .. وهما على البعد ، والصلة مقصورة على الرسائل والأحاسيس .

ولكن أتجسر على ادعاء ملكية هذه المشاعر .. عندما تواجهه ، وبجوارها أختها « منى » !
لا .. لا ..

إن اللقاء ، سيكون فجیعة . إن زيارته لها ، أمر مستحيل .
وأفاقت « نادية » من شرودها على صوت « منى » تقول وكأنما تم تفكيرها من وجهة نظرها هى :

— غير معقول !! . غير معقول أن يجشم نفسه كل هذه المشقة .. لمجرد أن يراك !

وأحسنت نادية — رغم انزعاجها من تفكير مدحت فى زيارتها — بالضيق من قول منى وهمست متسائلة :
— ولمه ؟

— إنه لو فعل هذا يكون مجنوناً .. هل تتصورين أن مخلوقاً مريضاً بمعدته .. بدل أن يطير إلى لندن فى بضع ساعات .. يظل متسكعاً فى البحر أربعة أيام حتى يصل إلى مرسيليا .. ثم يظل يطوى القفار بسكة الحديد حتى « فين » ثم يترك طريقه ويصعد إلى « جاب » ثم يعود إلى « فين » مرة أخرى ، ويتجه إلى « جرينويل » .. ثم باريس .. ثم « كاليه » ويعبر المانش إلى لندن .. لماذا يركب كل هذه المصاعب .. أمن أجل أن يلقي فتاة كتبت له بضع رسائل وأرسلت له بضع صور .. أمعقول هذا !؟

وتمتت « نادية » فى خليط من الأسف ، والارتياح . الأسف .. لأنه ليس لديه من المشاعر ما يدفعه إلى ركوب الصعب ، من أجلها .. والارتياح .. لأنه

غير معقول أن يحضر إليها .

تمت « نادية » قائلة :

— طبعاً غير معقول .. إنه مجرد كلام .

وصمت « منى » برهة ، ولكنها لم تلبث حتى لعب الفأر في عبا .. وهزت رأسها قائلة :

— ولكن هيبه فعل ؟

نظرت إليها « نادية » متسائلة في شرود :

— هه !

— أقول .. هيبه فعل .. إنه كما يدولى .. إنسان غير معقول ، فماذا يمنع .. من أن يقدم على أشياء غير معقولة ؟

وزادت علامات الشرود في وجه نادية .

وعادت « منى » تتساءل :

— ماذا نفعل .. إذا كان تفكير هذا « المجنون » جاداً ، وإذا نوى فعلاً أن

يزورك !

وردت « نادية » قولها كالماًخوذة :

— ماذا نفعل !

— أجل ماذا نفعل .. ديرينا .. أنت السبب في كل هذا !

وصمت « منى » برهة ثم أردفت قائلة بعد تفكير :

— لو أنك لم ترسلى له صورى .. لكان الأمر أسهل من هذا .

— كيف !!

— كان يمكنك أن تلقيه .

وبدا الخوف على « نادية » وأجابت :

— أهذا معقول !! كيف ألقاه ؟

— وأنت مرتدية الإيشارب .. إنه لن يمكث إلا يوماً ، أو يومين .. ثم

ينصرف إلى غير رجعة .

وتساءلت « نادية » بلا إرادة :

— إلى غير رجعة ؟

— طبعاً .. أم تظنينه .. ينوى أن يقيم معنا .. ليقطع أزوار ومعدات سكان

« جاب » !

وهنا التفت « توني » إلى « منى » وهز كتفيه قائلاً :

— ألا تنويان أن تكفا عن المناقشة بلغتكما المتحضرة ، ماذا تقولان عن

« جاب » !

والتفتت إليه « منى » قائلة :

— نقول إن نصف شبانها حمير .

— ولماذا لا تقولانها بالفرنسية؟! كلنا نعرف هذا .

وكانت العربة قد وصلت إلى أعلى الجبل ، وأخذت تشق طريقها بجوار

البحيرة ، وقد نهذت الأغصان على الطريق من الجانبين .. وبدأ البيت المهجور .

وقد ازدادت مظاهر الخراب به ، وتساقطت ضلف أبوابه .. وبدت الهوة من

ورائه وقد تكاثف بها ضباب خفيف .

وقفز الفتية والفتيات من العربة ، وانتشروا في الحديقة المقفرة ، بعضهم

يعدون الطعام ، والبعض يستمع إلى الجراموفون .

ولفت « نادية » حول البيت ، واستقر بها المقام أمام الكوخ المنعزل القائم

وراءه .. والمطل على الجرف الذى تبدو المقابر فى أسفله كأنها نقط بيض .

وجلست « نادية » على المقعد الحجرى بجوار الكوخ ، وأطلقت بصرها فى

الفراغ العريض الذى بدت فى آخره الغمامة البيضاء التى تعلو هام الأفق .

ومدت يدها فأخرجت الرسالة من جيبيها ، وعاودت قراءتها .

وقبل أن تصل إلى نهايتها سمعت وقع أقدام خلفها .. وأبصرت « منى »

تهتف بها :

— لم يخب ذكائى .. لقد توقعت .. لا بد أن تكونى هربت بالرسالة إلى هنا .
ومدت يدها قائلة :
— دعينى أقرأها .
وحاولت « نادية » أن تعيد الرسالة إلى جيبها قائلة :
— بعدين عندما نعود إلى البيت .
وخطفتها « منى » من يدها قائلة :
— هاتى .. لأرى كيف يفكر المجنون .. فى زيارتنا .
وجلست « منى » على المقعد الحجري بجوار « نادية » التى انهمكت فى
قراءتها ، وأخذت « نادية » تنقل البصر بين « منى » وبين الوادى الممتد أسفل
الجرف ، وأصوات الجراموفون وضجيج الشلة يأتى إليهما من وراء الدار .
وعندما انتهت من القراءة بدا عليها الشرود .. وسألته « نادية » فى قلق
قائلة :

— ما رأيك !؟

— شىء مخير .. ليس بمستبعد على هذا الأحمق .. أن يزورنا فعلا .

— وما العمل !؟

— امنعيه .

— كيف !؟

— اكتبى إليه ألا يحضر .

— أهذا معقول !؟

— ولِمَ لا .. قولى له .. إنك ستسافرين فى هذا الوقت .

— إلى أين !؟

— إلى أى مكان .. إلى جرينوبل .. إلى جنيف . اكذبى أى أكذوبة .

وصمتت « نادية » برهة مطرقة ثم قالت :

— معقول .

ثم أطلقت من صدرها تنهيدة حزينة ، ونظرت إليها « منى » بطرف عينها ثم هزت رأسها قائلة :

— عجيبة !

— من ؟

— الدنيا !! من كان يصدق أنك تحاولين الفرار عندما يفكر في زيارتك !

— على أية حال .. لا أظننى سأحتاج إلى الفرار .. لأنه لن يخرج تفكيره إلى

حيز التنفيذ .. إنه مجرد كلام كما تقولين .

— أرجو هذا .

وسمعتا من ورائهما صوتاً ينادى :

— أيتها المصريتان .. مؤامرة ؟

والفتت الفتانان فإذا « بتونى » قد أقبل عليهما ومعه بعض الرفاق .

وأجابت « منى » قائلة :

— أجل .. مؤامرة .

— لأجل ؟

— طردك من جاب .

— معقول .. ألم تطردوا ملككم عن عرشه ؟

— أجل طردناه ، لأنه كان فاسداً منحلاً .

— طرده ديكتاتوركم ناصر .

وتدخلت نادية قائلة فى غضب :

— عبد الناصر ليس ديكتاتوراً .. أيها الغبى لقد حقق لنا كل أمانينا .. لقد

منحنا العزة والحرية والكرامة .. وقد أعلن الدستور باسم الشعب ، وأجرى عليه

استفتاء .. وانتخب « عبد الناصر » بأغلبية تزيد على ٩٩٪

وهمست « منى » لنادية متسائلة :

— من قال لك كل هذا !؟

- وأجابتها « نادية » هامة :
- صبرى فى رسالته التى وصلتنى بالأمس .
- لقد أضحت رسائله نشرات سياسية .. ألم يقل لك بعد إنه يحبك ؟!
- ولم تجب « نادية » على سؤالها ، فقد شغلها عنه صياح تونى ساخراً :
- كلام فارغ .. إنى أصر على أنه ديكتاتور .
- وقبل أن ترد « نادية » مدت « منى » يدها وخلعت حذاءها من قدمها ورفعتة منذرة تونى بقولها :
- الظاهر أنى سأضطر لإسكاتك بسلاح جديد . ثم صاحت به :
- تونى .. اسحب كلامك .
- وأجاب تونى ضاحكاً :
- سحبتة .. إنك تستعملين معى طريقة الديكتاتورين العتاة .
- لا ينفع معك غير هذا .
- انتبهينا .. لن أحدثك فى السياسة بعد ذلك .. أنت مخيفة ..
- وتدخلت « جابى » قائلة :
- هيا بنا .. لقد أعد الطعام .
- ونفض الجميع متجهين إلى حديقة البيت على شاطئ البحيرة ، وطوت « نادية » الرسالة فى جيبها ، وذهنها ما زال شارداً فى صاحبها .. وهى تحس بخنين إليه .. إلى لقائه .. ورعايته .
- وفى المساء .. عندما أوت إلى حجرتها جلست فى فراشها ممسكة بالكراسة الزرقاء لتكتب الرد لمدحت .. واختتمت ردها بالترحيب بزيارته .. وأنها لا تمنى شيئاً قدر لقياءه .. ولكنها تخشى أن يخونها الحظ لأن هناك احتمالاً لسفرها مع أمها وأختها لقضاء الشهرين القادمين عند خالتهما فى « جرينوبل » .
- وأحسست وهى تطوى الرسالة بنوع من الأمن والطمأنينة . إنه بلا شك .. بعد هذا الاعتذار .. لن يكون هناك احتمال لأن يفكر مرة أخرى فى الزيارة .

(٣٥)

حق يسترد .. !!

مر أسبوع بعد أن أرسلت « نادية » ردها . وفي مساء ٢٦ يوليو كانت الشلة قد اجتمعت في شرفة النادي الرجالية حول مائدة الشاي .. بعد أن انتهوا من « التنس » .

وبدا مسيو « بيتر » كاتب المدرسة العجوز مقبلاً على الشلة ، ولم يكذب يصير « منى » حتى مديده في جيبه هاتفاً :

— رسالة لك يا مدموازيل « منى » .. لقد مررت عليكم في المنزل فقالوا لي إنك هنا .. فقلت لنفسى أشرب فنجاناً من الشاي .. وأعطيتها الرسالة .
ومدت « منى » يدها تتناول الرسالة قائلة :

— شكراً يا مسيو « بيتر » .. لم يكن هناك داع لأن تتعب نفسك أبداً . إن رسائلنا تستطيع الانتظار .

الواقع أنى لم أتعب نفسى .. فقد كان على أن أمر على بيتكم لأحمل رسالة من المسيو « رينو » إلى والدتكم .. فلما أخبرتنى أنك في النادي .. فضلت أن أمر عليك لأسلمها إليك .

— شكراً لمجرد التفكير في حملها لى .

— إلى أعرف قيمة رسائل الغريب .

وقالت جابى :

إنها لم تعد غريبة يا مسيو « بيتر » .. إنها تقيم بيننا .

وضحك « بيتر » وأجاب :

— مهما أقامت بيننا فإن وطنها .. هناك .. هناك .. في بلاد الشمس الساطعة

والنهر العريض .. والأهرام الشاخنة ، وأنى الهول العظيم .. إن وطنها هناك ..
هناك .. في بلد « ناصر » .

ورفع العمجوز يده بالتحية وانصرف .
وأمسكت « منى » بالرسالة وقرأت الحظ على الظرف ، وقالت « لنادية »
التي نظرت إليها نظرة مستفسرة :
— من عصام .

وفضت « منى » الظرف وأخرجت الرسالة .. وأخذت تقرأها وهى
ترشف فنجان الشاى وتلتهم قطعة من الكيك .
وكانت تبدو عليها شتى الانفعالات وهى تقرأ الرسالة .. كانت تبتسم
تارة .. وتتجهم أخرى ، وكانت « جابى » ترقب ملاحظها فى شىء من الدهشة ،
بينما أخذت « نادية » تنقل بصرها بين « منى » وهى منهمكة فى القراءة وتنظر
إلى الأفق وقد أخذت الشمس تقترب منه ملقمة ذيوها الحمر على أسقف الدور
المنحدرة وقد بدا بناء المحطة من بعيد بشجرته الضخمة التى تكاثفت أوراقها حتى
كادت تخفيه بفروعها التى تحنو عليه .

وكان « تونى » قد انحنى على الراديو الضخم الموضوع فى ركن النادى ..
ينقل المؤشر من محطة إلى محطة وقد أخذ يصدر منه صفير وذبذبات منفصلة
وكلمات متقطعة بشتى اللغات ، حتى استقر على محطة تصدر موسيقى صاخبة
معربرة .

وصاح « تونى » فرحاً :

— روك أند رول .. من أمريكا بلد العجائب .

ثم رفع ذراعيه مفتوحتين هاتفاً :

— من يشاركنى الرقصة قبل أن تنتهى؟! هيا يا منى .

وكانت « منى » قد انتهت من قراءة الرسالة وبدا عليها التجهم وهى تطويها
وأجابته فى غيظ :

— أوقف هذه الموسيقى الهمجية التى تصدع بها آذاننا .

وصاح « تونى » فى لهجته المرتفعة التى حاول بها أن يغلب صوت الموسيقى الصاخبة :

- همجية .. يا همجية ؟ .. إنها من أمريكا .
— ليكن .. أرحنا من سماعها .. إنى لا أريد أن أسمع شيئاً من أمريكا !
والتفتت إليها « جابى » فى دهشة وتساءلت :
— عجباً ! لماذا ؟
— لأنها سحبت قرض السد العالى .
— وما هو السد العالى ؟
— الذى بنى آمالنا عليه .. الذى سيحفظ لنا مياه نيلنا الضائعة البحر ،
ويصلح منها بضعة ملايين من الأفدنة تزرعها ونجنى ثمارها .. لكنى نهبىء لأنفسنا
ولأبنائنا حياة أفضل .. حياة كالتى يحيونها .. ويحياها فلاحوهم ، وعمالهم .
وأردفت « نادية » قائلة :
— أجل .. إنه أملنا فى أن يحيا أربعة وعشرون مليوناً كما يحيا الآدميون ..
ياكلون لقمة طيبة ويشربون ماء نقياً ، ويقطنون فى مسكن نظيف .. حقيقة ..
إننا نرى فيه وسيلتنا إلى حياة كريمة .
وسألت جابى :
— ولماذا لا تقيمونه ؟
— لأننا فى حاجة إلى نقود .
— ولم لا تقترضون ؟
— لقد عرضت علينا أمريكا وإنجلترا قرضاً لإقامته .
— ولماذا لا تأخذونه ؟
وصاحت « منى » وهى تهز الرسالة فى يدها :
— لقد عادوا وسحبوا عرضهم .
وأجاب « تونى » وهو يحرك ساقيه على نغمة دقات الرقصة الصاخبة :

- هم أحرار في نقودهم .
وأجابته « منى » صائحة :
— ولكنهم ليسوا أحراراً في إهانتنا .
وتساءلت جابى :
— وكيف أهانوكم ؟
— قالوا إنهم لن يعطونا قرضاً .. لأننا فقراء .. ومفلسون .. واقتصادنا
منهار .
ومدت «نادية» يدها وهي تأخذ الرسالة من « منى » وتساءلت في دهشة :
— من قال لك هذا ؟
وأجابت منى :
— عصام .
— عصام كتب لك هذا ؟ لقد أصابته عدوى صبرى .
— لقد أصابت العدوى .. أربعة وعشرين مليوناً .. إن رسالته مليئة
بالسخط على أمريكا .
وأجاب « تونى » وقد كف عن الرقص وأقبل يجلس على مقعد بجوار نادية :
— لأنكم شيوعيون .
وتساءلت « نادية » في دهشة :
— من قال إننا شيوعيون !؟
— لأنكم اشتريتم أسلحتكم من روسيا .
— أكان علينا أن نتنظر حتى تعتدى إسرائيل بأسلحتكم ، التي أيتهاها
علينا .. ولا نمد يدنا إلى الأسلحة المعروضة علينا .. لكيلا نهم بالشيوعية ؟
— بل أخذتم السلاح لتقيموا إمبراطورية عربية موالية للشرق .
— الإمبراطورية العربية .. لن تقام أبداً بالسلاح .. ولكنها ستقام بالمشاعر
الموحدة .. والمصالح المشتركة .. ولن يقيمها فرد .. ولكن ستقيمها شعوب ..

ترى بقاءها في كيانها الموحد .. ونحن لن تكون موالين لشرق أو لغرب . إننا نحاول أن نكون كتلة محايدة .. تعمل للمحافظة على التوازن من أجل السلام .
— هذه خدعة شيوعية .

— بل تلك هي أغراض مؤتمر باندونج .. أغراض سليمة واضحة لا يمكن أن تشوبها الخديعة .. هل هناك خديعة .. في أن تكون العلاقات بين الدول قائمة على احترام حقوق الإنسان ؟

وهزت « جاني » رأسها بالنفى ، فعادت « نادية » تتساءل في انفعال :
— وهل هناك خديعة في أن تقوم هذه العلاقات على احترام سيادة الأمم وسلامة أراضيها ؟

وعادت « جاني » تهز رأسها بالنفى ، واستمرت « نادية » في تساؤلها :
— وهل هناك خديعة في الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس وبين جميع الأمم ؟

وهزت « جاني » رأسها مرة ثالثة .. وقبل أن تعاود أسئلتها صاح بها « توني »
محاولاً إسكاتها وهو ينهض متجهاً إلى الراديو :
— انتبهنا .. لا تصدعي رعو سنا .. بمبادئك .. إننا لم نأت إلى هنا لسماع دروس في السياسة والمبادئ .. من يريد أن يرقص !؟

وقبل أن يصل إلى الراديو قفزت « منى » من مقعدها ولحقت به وهي تهتف :
— دع الراديو .

— ليه ؟

— لأني سأسمع القاهرة .

— وماذا من المغريات يمكن أن تأتينا به القاهرة !؟

— خطبة الرئيس « جمال عبد الناصر » .

ثم التفتت إلى « نادية » متسائلة :

— ألا تريدان سماعها يا نادية !؟ إن اليوم ٢٦ يوليو .. وقال لي عصام إنه

سيذهب إلى الإسكندرية هو وصبرى .. لسماعها في ميدان المنشية .
وبدا على « نادية » الشرود .. ترى هل ينوى مدحت سماعها ؟!
إنه لم يبد قط اهتماماً بالشئون السياسية .
— لم يحدثها أبداً إلا عن عملياته ومرضاه ، وطلبته ، ورياضته .
إنه يبدو كأنه يعيش في معزل عن الأحداث التي تحيط به .
ولكنه مع ذلك قد يسمع الخطبة .

— أجل .. قد يكون جالساً الآن مع صاحبه « جاد الله » في مكتبه في
المستشفى .. أو في حجرته بالبيت .. قد انحنى على الراديو يدير مفتاحه .. إنه قد
يشاركها في الاستماع إلى نفس الصوت .. تحت نفس السماء وعلى نفس
الأرض !

ولكن هل يستطيع الجهاز أن ينقل الصوت إلى هنا ؟ ولِمَ لا !!
لقد جرّبه بضع مرات .. فسمعت محطة القاهرة تارة .. وسمعت صوت
العرب تارة أخرى .. ولكنها كانت في المرات القلائل التي استطاعت أن تحصل
على المحطة ، كان الصوت متقطعاً .. وكانت محطات أخرى تشوش عليه وتعلق
فوقه .

على أية حال .. لِمَ لا تجرب هي و « منى » .. ليس لديهما ما يمنعهما عن
الاستماع مهما طالت مدته .

ونهضت « نادية » تتبع « منى » إلى الراديو .
وكان « تونى » يصيح « بمنى » وهي تحرك المؤشر يمنة ويسرة :
— ما هذا السخف ؟!

وأدارت « منى » رأسها وهي تنحنى على الراديو .. وصاحت به في غيظ
مكبوت :

— كف أنت عن هذا السخف .. وإلا جررت على نفسك الأذى .. أنت
تعرف ما يمكن أن أصنع بك .

— ولكنى أريد أن استمع إلى الموسيقى .
— لديك « البيك آب » .. أو جهاز الأسطوانات . خذ بضعة فرنكات هبة
منى .. واذهب لتسمع ما تشاء .. فقط اغرب عنا الآن .
وهز « تونى » كتفيه فى غيظ :
— ولكن ما ذنب كل هؤلاء حتى تسمعهم خطاب جمال عبد الناصر ؟!
— إن أحداً منهم لم يشترك .
وهنا صاحت « جابى » تنهر « تونى » :
— تونى .. دعها تسمع وكف عن مشاغبها .. لو كنت بعيداً عن وطنك
لقدردت لهفتها على سماع أى صوت من وطنها .
— لو كنت بعيداً عن وطنى .. لما اشتقت أيداً إلى سماع .. بينو :.. أو موليه .
وأجابت نادية ضاحكة :
— لأنك لا تؤمن بهما .. أما نحن فتؤمن تماماً بجمال عبد الناصر
وهز « تونى » كتفيه ، ثم صاح فى الشلة :
— من منكم يريد الرقص ؟!
ونهمضت بعض « الشلة » وراءه إلى حجرة « البيك آب » ، وجلس البعض
يتشاغلون بلعب الشطرنج والمناقشة .
وجرت « نادية » مقعداً بجوار الراديو ، وجلست بجوار « منى » التى
انهمكت فى تحريك المؤشر ، وبعد لحظات اقتربت « جابى » بمقعدها وجلست
بجوارهما .
وأخذ المؤشر يتحرك بمنة ويسرة ، « والوش » يتعالى .. « والطققة »
تزداد .. والليغات المختلفة تتشابك ، والنغمات المتناقضة تتقاطع وتتضارب .
وهزت « منى » رأسها ، وهى منهمكة فى إدارة المؤشر وتساءلت موجهة
الحديث إلى جابى ونادية :

— حقيقة لست أدري لماذا يكرهنا الأمريكان .. ويناصبوننا كل هذا العداء !؟

وأجابت « نادية » ببساطة :

— لأن هناك عداًء بيننا وبين إسرائيل .. ولأن ثلاثة أرباع إدارات الدعاية والإذاعة والنشر في يد اليهود .. ولما كان يتحتم على الأمريكان أن يساعدوا أحد الطرفين .. فهم يفضلون دائماً مساعدة إسرائيل .

وهزت « منى » رأسها وأجابت :

— ولكن عصام يقول إن السبب في رفض تمويل السد العالي بمثل هذه الطريقة الوقحة هو مؤتمر بريوني .

— طبعاً .. لأنهم يعتبرون أن من لم يسر في فلكتهم ، فليس منهم .. لقد قال لي صبرى .. إن العالم في نظر الأمريكان ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما : قسم أمريكي ، وقسم شيوعي ، والذي ليس أمريكياً ، لا بد أن يكون شيعياً . ونظرت « منى » بطرف عيناها إلى « جاني » ، ثم قالت بالعربية :

— وهل نحن شيوعيون حقيقة ؟

وأجابت « نادية » ، وهي تضحك من تشكك « منى » السدال على

جهلها .. وأجابت بالفرنسية :

— طبعاً لا .. نحن غير شيوعيين مطلقاً

— إذن لماذا يحبنا الشيوعيون ولماذا يعطوننا الأسلحة ؟

— لأنهم يؤيدون موقف الحياض الذي نقفه .

— ولماذا يؤيدونه .. ولا تؤيده أمريكا !؟

— لأن أمريكا تحاول أن تكتل الدول في حزام يحيط بالدول الشيوعية .. كأنه

درع يمنع تسرب الشيوعية إليها ، أو واق يتلقى عنها الصدمة .

— من أنبأك هذا !؟

— أنبأتني إياه معلوماً العامة ، يا جاهلة .. إن الحزام الذي أعنيه يتكوّن من

ثلاث قطع أو ثلاث حلقات .. الحلقة الأولى حلف الأطلنطي في أوروبا .

— والثانية ؟!

— حلف بغداد في الشرق الأوسط .

— والثالثة ؟

— حلف ما نيلا في جنوب شرق آسيا .

— قلت لي .. وماذا تريد منا أمريكا ما دامت قد كوّنت هذا الحزام ؟!

— تريد أن نتخذ مكاننا في الحزام .. لا تريد أن نسقط فنحدث به ثغرة ينفذ

منها النفوذ الشيوعي .

— وهل يريد النفوذ الشيوعي حقاً أن يتسرّب من هذه الثغرة ؟

— حتى الآن .. يكفيه جداً .. ألا يلتزم حوله الحزام في حلقات محكمة من

دول معادية له أو تسير في ركاب إحدى الدول .. يكفيه جداً أن تكون هناك

ثغرات .. من دول لا تعادية .. بل تقف معه موقف المحايدين .. الذى لا يشارك في

مهاجمته ويرحب بصدّاقته والتعاون معه ، كما يرحب بصدّاقة الطرف الآخر

والتعاون معه .

— وهل ستكتفى الشيوعية بهذا الموقف من الدول ؟ ألا تحاول أن تتسرب

إليها .. كما يتسرّب الماء في الورق النشاف .. ببطء وبساطة ؟

— جائز أن تحاول هذا .. فتلك طبيعة الأمور .. وأظن مهمة الدول

المحايدة .. مثلنا ومثل الهند .. أن تقاوم محاولات التسرّب وأن تحتفظ بحيادها

حقيقة .. وإلا ذابت كتل الحياد .. وانهارت مبادئ التعايش السلمى .. والحياد

الإيجابي .. وعاد العالم مرة أخرى إلى كتلتين متافرتين لا وسط بينهما ، وأصبحنا

« كأننا يا يدر لا رحنا ولا جينا » .

— ويصبح إحساس الأمريكان بالخدر من تصرفاتنا .. ومقاومتهم لا تجاه

الحياد الذى نتجه .. إحساساً في موضعه .

— على أية حال كان يجب ألا يبدعونا .. بالشك .. والعداء .. وأن يفرّوا بين

اتجاهات القومية واتجاهات الشيوعية .. إنهم يتوهمون كل محاولة للتحرر من نفوذهم ، ارتقاء في أحضان الجانب الآخر .

وكانت أصابع « منى » ما زالت تدير المفتاح والأصوات المتنافرة .. و « الطقطقة » و « الخرفشة » ما زالت تتوالى من الجهاز .

وفجأة سمع صوت يأتي متقطعاً من بعيد وميزت أذن « نادية » فيه بعض كلمات عربية فهتفت بمنى :

— سمعت !؟

واقتربت « نادية » من الراديو وتناولت من « منى » مفتاح الراديو قائلة :

— دعيه لى .

وقربت « نادية » .. أذنها من الجهاز ، وأخذت تحرك المؤشر ببطء شديد حول المحطة التي صدر منها الصوت العربى .

وسمعت نبرات الصوت خافتة متقطعة .. وما لبثت حتى اتصلت .. وأدارت « نادية » المفتاح على آخره فعلا الصوت وازدادت النبرات وضوحاً .

— واستطاعت أذن « نادية » أن تميز الصوت يهتف قائلاً :

« أيها المواطنين .. حينما نتجه اليوم إلى المستقبل ، بعد سنوات أربع من الثورة . نتجه بقوة وإيمان .. نعتمد على الله ، ونعتمد على أنفسنا .. من أجل تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها هذه الثورة ، والتي كافع من أجلها الآباء والأجداد ، من أجل إقامة دولة مستقلة استقلالاً حقيقياً .. لا استقلالاً زائفاً ، استقلالاً سياسياً واستقلالاً اقتصادياً . »

وهنا غطى صوت على الراديو فقد اندفع « توفى » يصيح بجأى :

— جابى .. تصوورى .. لقد أحضروا هنا أسطوانة « الفيس برسلى »

الأخيرة . أنتصوين هذا ! أترقصينها معى يا « منى » ؟

وصرخت فيه « منى » فى حدة :

— هس ..

وانحنى تونى ساخراً وأجاب :
— متأسف .. لم أكن أظن أن الوحي قد هبط .. عن إذتكم . إني أفضل
« آلفيس بريسلى » و ..

وعادت « منى » تصبح به :

— قلت لك صمتاً .

وعاد « تونى » من حيث أتى .

وحاولت « منى و نادية » معاودة الإنصات إلى الراديو ولكن الموجة ..
كانت قد اختلطت بموجات آخر .. وعادت الطقطقة ، والأصوات المتقاطعة
تتعالى من الراديو ، وعادت أصابع « نادية » تدير المفتاح في بطء وحرص ..
ومضت فترة والموجة ضائعة بين غيرها من الموجات .. وغادرت « جالى »
مقعدها ، وأخذت ترقب لاعبى الشطرنج ، وبدا الملل على وجه « منى » ..
وأخذ سمعها ينصرف إلى أصوات الجاز المتصاعدة من الغرفة الأخرى .

وقبل أن تهم بالنهوض ، عاد الصوت يهتف مرة أخرى في حماس : « قناة
السويس التى ضحينا فيها .. قناة مصرية .. هذه القناة ملك لمصر .. فهى شركة
مصرية مساهمة ، حفرت بواسطة المصريين ، ١٢٠ ألف مصرى ماتوا أثناء
حفرها .. وكان المفروض أن نأخذ ١٥٪ من الأرباح فوق ٤٤٪ من الأسهم ،
ولكن مصر أدينت واضطرت إلى بيعها بمبلغ ٤ مليون جنيه ، وتنازل لإسماعيل عن
الأرباح ، فحصلت إنجلترا مجاناً على ٤٤٪ من الأسهم .

« إن دخل القناة ٣٥ مليون جنيه لآ تأخذ مصر منها سوى مليون جنيه ، اليوم
ستعاد حقوقنا فى قناة السويس .. ولن نلجأ إلى الاقتراض من تجار الحروب لكى
نقيم السد العلى ونبنى بلدنا بل سنبنيه بسوا عدنا ، ومن قطرات عرقنا ودمائنا
نحن أغنياء .. ولكننا كنا متهاونين فى حقوقنا .

« أما اليوم فنسترد هذه الحقوق خطوة خطوة .. و .. » .

ووصل أحد الجرسونات ومال على « منى » وهم أن يقول لها شيئاً

فصاحت :

— ابعـد الآـن .. لا أريد أن أسمع شيئاً .

وهز الجرسون كتفيه وانصرف في دهشة .

وعادت « منى » إلى الإنصات ، وتعالى من الراديو هتاف كأنه بحر يجيش أو
سماء ترعد .. وبعد برهة صمت الضجيج وعاد الصوت يهتف في صوته الواصل :

« قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس :

باسم الأمة — رئيس الجمهورية :

مادة ١ — تؤم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية إلى شركة مساهمة
مصرية .. وينتقل إلى الدولة جميع مالها من أموال وحقوق وما عليها من
التزامات ، وتحمل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً على إدارتها ويعوض
المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكون من أسهم وحصص بقيمتها
المقدرة عند صدور هذا القانون ويتم هذا التعويض بعد استلام الدولة لجميع
مهمات الشركة المؤممة .

مادة ٢ — يتولى إدارة ...

ومرة أخرى ضاعت الموجة .. وغلبت عليها صيحات بلغة غير مفهومة .. ثم

دقات موسيقى وحاولت « نادية » عبثاً أن تضبط الموجة .

وأقبلت « جاني » عليهما بعد أن انتهى دور الشطرنج وهتفت بهما قائلة :

— ما هذا الاهتمام العجيب ؟! كأني بكما تستمعان إلى إعلان الحرب ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

— إلى إعلان التأميم وأنت الصادقة .

— أى تأميم ؟

— تأميم قناة السويس

— لست أفهم .

وأجابت « نادية » ، وهي تحاول ضبط مفتاح الراديو :

وسألت « جابى » فى دهشة :

— ولكن قناة السويس ملككم .

— أبداً .. لقد كانت ملكنا اسماً ، ولكنها ملك الناس كلهم عدانا فعلاً ..

لقد كانت دولة داخل الدولة .

وقالت « منى » :

— لقد جعلها « عبد الناصر » ملكاً للدولة المصرية بعد أن كانت ملكاً للدول

الأخرى .

وعادت « نادية » تدير المفتاح بأصابعها اليمنى ويسرة حتى علا الصوت يهتف

من جديد :

« اليوم ، وقد عادت الحقوق إلى أصحابها بعد مائة سنة إنما تحقق التحرير

الحقيقى .. لقد بنيت القناة من أجل مصر ، ولكنها كانت منبعاً للاستغلال ..

وليس عيباً أن أكون فقيراً ، ولكن العيب هو امتصاص الدماء .

وأقبل « تونى » ووراءه « الشلة » وهم يتصايحون ويتضحكون .

ثم هتف فى ارتياح .. كأنما يسمع عن جريمة ارتكبت :

— أم قناة السويس ؟!

ونظرت إليه « نادية » وتركت مفتاح الراديو من يدها وأجابت ببساطة

وسخرية :

— أجل أم قناة السويس .. القناة المصرية .. التى تجرى فى أرض مصر ..

أترأه قد ارتكب منكراً ؟

وصاح تونى :

— هذه سرقة .. هذه همجية .

وهنا ارتفعت كف « نادية » بلا وعى .. وهبطت عليه فى صفة مدوية ،

وهتفت وهى تضغط على نواجذها :

— السرقة هى ما تفعلونه منذ مائة عام .. والهمجية هى ما تفعلونه فى

الجزائر .

ومد تونى أصابعه يتحسس فى ذهول أثر الصففة المفاجئة على وجهه ، وقد
جحظت عيناه وفغرفاه وصاح مشدوهاً :

— متوحشة .. سأعرف كيف أؤدبك .

وهتفت « منى » بالعربية ، وهى تضحك ساخرة :

— أتتيل .

ومدت « جابى » يدها فجرت « تونى » للخارج لتضع حداً للمعركة قائلة :

— أنت الذى بدأت بإهانتها ياتونى .

وسار « تونى » وراءها ، وهو يتحسس أثر الصففة ويتلفت إلى نادبة

مذهولاً ، وهو يتمتم :

— سوفاج .

وعادت « نادبة » تضبط الموجة وعلا الصوت الهاتف يقول :

« والآن أيها المواطنين ، يتجه إخوة لكم من أبناء مصر لإدارة القناة ، والآن

فى هذه اللحظة ، يتسلمون شركة القناة المصرية ويديرون ملاحظتها ، وهى جزء

من مصر ، نقوم بهذا العمل لنسترد حقنا المغتصب ، ونقيم السد العالى ونشيد

صرح العزة والكرامة » .

(٣٦)

لا يمانع ...

لم تستطع رسالة « نادية » التي أشارت فيها لمدحت إلى احتمال رحيلها من « جاب » ، والتي حاولت أن تصده عن التفكير في زيارتها .. أن توقف تيار هذا التفكير ، وأخذت الفكرة تنمو وتتضخم في ذهنه ، وأخذ يهيء لها نفسه ويدفع إليها بالمبررات والعلل .. وازداد إحساسه بتلف معدته .. وبارهاق أعصابه ، وبضرورة السفر إلى لندن .. لفحص معدته وعلاجها .. وبقضاء فترة استجمام يستريح فيها من الجهد المستمر المتواصل .

وكثر أشعته التي أجراها على معدته ، وزادت تحاليله ، ورغم سلبيتها فقد أقنع نفسه أن شيئاً ما .. موجود يباطنه يستحق العلاج والسفر .

وهكذا استطاع أن يقيم لسفره حجة قوية مقنعة .. لنفسه ولمن حوله .. وأن يبدو لزاء نفسه ، ولزاء الناس جاداً صارماً كما تعود أن يكون ، وأن يكبت تماماً ذلك الميل الخفي المتوارى الذى يكمن في قرارة نفسه .. كما تكمن البذرة التي أنبتت النبات وأظهرت فروعه وأوراقه .. وبقيت هي متوارية .. بجذورها المندفعة في باطن الأرض ، والتي تبعث الحياة في كل برعم في النبات ، وإن ظلت خفية مجهولة لا يحس لها وجود ..

وهكذا انتشرت في نفسه فكرة السفر كما ينتشر النبات بفروعه وأوراقه ، وكان ساق النبات ومحوره ودعامته الظاهرة هي فحص معدته وعلاجها .. يقوية ويؤيده ما تسببه له من منغصات ومتاعب .. وإرهاقها الدائم في بضع السنوات الأخيرة .

أما البذرة الخفية .. التي لم يحاول هو نفسه النيش حولها ، فكانت

« نادية » .

« نادية » .. المجهولة .. النائبة .. التي تسربت إلى أعماقه ، والتي بات يحس بأنها أشد الناس قرباً إليه وارتباطاً به ، والتي أصبح يعرف كل تفاصيلها ودقائقها .. كأنها لم تفارقه لحظة .

« نادية » .. التي يعرف كيف تمس وكيف تعيش ، وهو الذي لم يأبه لحظة أن يشغل نفسه بإنسان على وجه الأرض .. سوى نفسه .

« نادية » التي يعرف شكل حجرتها .. الفراش الخشبي العتيق .. الذي كانت تنام عليه أمها وهي فتاة .. بنقوشه وزخارفه ، والتسريحة العالية المستقرة في ركن الغرفة .. المحفورة بالزهور « الأويما » ، والمقعد الكبير طراز « لوبكانز » والباب الزجاجي المؤدى إلى الشرفة الخشبية المطلة على حقول الكرنب والبنجر ، وحظيرة المواشى ، وقمم الجبال تبدو في الأفق بيضاء مختلطة بالسحب ، والأشجار المتكاثفة على سفح الجبل .

« نادية » التي يكاد يعرف كل حركة من حركاتها ، وكل سكتة ، والتي يراها كل يوم تنحدر بحقيبتها في المنحدر المؤدى من « روميت » إلى مدخل البلدة ، وتسير بجوار سور سكة الحديد حتى تصل إلى المدرسة المطلة على المحطة . إنه يكاد يعرف منظر المحطة .. بكل ما فيه من تفاصيل . حتى هذا الحمال الذي تعود أن يرتدى المعطف الكاكي و « يكبس » القبعة حتى أذنيه ويدفع أمامه عربة الأحمال الحديدية الصغيرة .

« نادية » التي يعرف عنها .. أكثر مما يعرف عن أصدق أصدقائه .. وأقرب أقربائه ، والتي يحس بوجودها معه أكثر مما يحس بأمه التي تعيش معه تحت سقف واحد ولا يفصل حجرتيهما سوى جدار رقيق .

كانت بنفسه لفة إلى رؤيتها ولقاتها والحديث معها .. وإلى تحقيق الدعوات الوهمية التي دعت إليها .

كانت بنفسه لفة إلى أن يصعد معها الجبل ، ليجلسا على شاطئ البحيرة ،

يوقدان النار ويطهوان الطعام .
كانت بنفسه لهفة إلى أن يذهب معها إلى النادي ، ليلعب التنس ويشرب الشاي .

كانت بنفسه لهفة إلى أن يجلس معها أمام المدفأة يناقش حديثها ، ويحدث أمها .. ويتلقى مشاكسات أختها .

ومع كل هذه اللهفات .. لم يحاول قط أن يبرز لنفسه أو لمن حوله .. فكرة زيارتها كعلة للسفر .. بل طواها .. كأنها شيء لا وجود له .. وكأن سفره .. لم يكن أبداً إلا للعلاج والاستجمام .

وبدأ يتخذ خطوات إيجابية للسفر .. على الأساس الواضح .. فاتصل بالدكتور « تنر » في لندن ، وكتب إليه بضع مرات .. وأخذ يعد جواز السفر ، ويسأله عن ترتيباته ووسائله .. وحصل من شركة السياحة على بضع خرائط لجنوب أوروبا وإنجلترا .

وخلا إلى نفسه ذات عصر في مكتبه بالمستشفى ، وأخرج إحدى الخرائط وأخذ ينظر إليها نظرة فاحصة .

وركز عينيه على المنطقة الجبلية في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا وبدأ يبحث عن منقطة بذاتها .

واستطاع أن يقرأ بالحروف الإفرنجية الكبيرة Hautes Alpes وأخذ يتبع الحدود الرأسية التي تخترق الجبال فاصلة بين فرنسا في جانب ، وسويسرا وإيطاليا في جانب آخر .. وأخذ يتبع الحدود من الجنوب إلى الشمال حتى وجدها تلتقى ببحيرة « ليمان » .. وهبط بصره مرة أخرى يفحص الجزء الفرنسي من الجبال .. وبرزت أمامه مدينة « جرينوبل » .

لا بد أن تكون « جاب » قرية من هذه المنطقة .. فقد حدثته عنها « نادية » في عدة مناسبات ، ليهبط إذن مع خط سكة الحديد .

هذا تقاطع سكة الحديد جنوب « جرينوبل »

هذه بلدة « فين » . وهذه بلدة ..
وفجأة بدت له « جاب » بحروف صغيرة .
وتملكه إحساس بالسعادة ، وهو يرقب الحروف الثلاثة الصغيرة ، وأخذ
ينظر إلى النقطة السوداء .. وانطلق خياله يجسد ما وعته ذاكرته من مناظرها ..
قمم الجبال ، والأسقف المنحدرات ، والمداخن .. و .. و ..
وإنها ليست بعيدة عن طريقه .

أجل .. لو أنه سافر بالباخرة .. فسيهبط إلى مرسليليا .. لكي يذهب إلى
جنيف أو باريس !
وهو لا بد أن يذهب إلى إحداها أو كليهما .. لأنه يجب ألا يترك الفرصة تمر
دون أن يرى هاتين العاصمتين الكبيرتين .

أجل .. إن المفروض عليه أنه ذاهب للعلاج ، والاستجمام .
وهو ليس مصاباً بمرض ملحّ عاجل يستدعي الطيران فوراً إلى لندن .. فلا
شيء إذن يدعوه إلى الاستعجال ، بل إن مرضه قد يكون خير علاج له ، مجرد
الاستجمام والراحة ، والتجوال في هذه المناطق الجبلية الرائعة ، قد يغنيه عن
العلاج نفسه .

والمدينة الصغيرة .. لا تبعد كثيراً عن طريقه من مرسليليا إلى جنيف أو إلى
باريس .. فهو يستطيع أن يهبط في « فين » ثم يذهب إليها يوماً أو بعض يوم .. ثم
يعود مرة أخرى إلى طريقه الأصلي .. دون أن يبدو عمله .. غير طبيعي .

غير طبيعي ؟

لمن ؟!

أهو مسئول أمام أحد ؟!

أهناك من يحاسبه .. ويحدد له الطريق الطبيعي ، وغير الطبيعي ؟! إنه حرفي
أن يذهب حيثما شاء ، وقتما شاء .

وفي أن يذهب ليستجم في أي مكان .. فبشيء .. أو جنيف أو زيورخ .. أو ..

أجل . أجل . كل هذا معقول . معقول . ولكن ليس في « جاب » .
إن « جاب » هذه لم يسمع أحد بها من قبل ، ولا عرف عنها أنها مكان
للاستجمام أو الاستشفاء .

فأى علة يعلل بها سفره إليها !

ولكن من الذى يطلب التعليل !؟

نفسه !

والناس من حوله !

بل « نادية » نفسها .. وأهلها !

إن المعقول أن يمر بها .. وهو في طريقه إلى مكان ما .. أما أن يذهب خصيصاً

إليها .. فشىء يبعث على الريبة .. والشك .

إن شخصيته ، وكبريائه .. واستخفافه بالمبول الحادة .. لا تقبل منه مثل هذا

العمل .

لو أن « جاد الله » مثلاً .. قد أقدم عليها .. لما لامه أحد ! بل ليدا .. ذلك

منه .. حماقة طبيعية .. لا تستبعد من صاحب حماقات .

وكما يقول المثل .. « العيب من أهل العيب مش عيب » . فالحماقة من أهل

الحمق ليست حماقة ، أما منه فهي حماقة كبرى .

ومع ذلك فهو سيسافر .

وسيسافر بالسفينة .

وسيهبط في مرسليليا .

ويأخذ سكة الحديد المتجهة شمالاً .

وسيهبط في « فين » .

لأى سبب !! ولأية علة !!

وسياخذ القطار إلى « جاب » ، وسيلقاها .

سيلقى « نادية » .. وسيسلم عليها ، ويضحك معها .. ويذكرها

برسائلها .

وأحس بسعادة غامرة ونشوة لذيذة .

إنها لا شك ستحس بنفس السعادة وبنفس النشوة .

ولكنها تقول إنها قد تسافر في ذلك الوقت .

ما أغباها !.. ما الذى يضطرها إلى السفر في هذه الفترة ! لماذا لا تؤجله ؟ ربما

لأنها لا تملك التأجيل .

لا بد أن أمها ، وخالتها وجدتها .. دبرن أمر السفر في هذا الموعد . فلماذا لا

ترفض هي ؟

ولكن هل تستطيع ؟!

ولم لا تتأرض مثلا .. أو تتذرع بأى عذر ؟!

مثل ماذا !

هل تجسر أن تقول إنها تنتظر زيارته ؟!

طبعاً لا ..

من يكون هو .. بالنسبة إليها .. حتى تؤجل سفرهم من أجله ؟

إنه في نظرهم إنسان مجهول .

مجهول .. بقدر ما هي مجهولة .. ممن حوله .

والتعارف الباطنى الذى حدث بينهما .. لا يحس به أحد سواهما .

ولكنها تقول .. قد ..

أى أنها قد تسافر أو لا تسافر .

فلماذا يزعج نفسه .. بتأكيد الاحتمال الأول .. احتمال السفر !.

لماذا لا يتصرف على أساس الاحتمال الثانى ، وهو بقاؤها ؟

ولكن هب أنها سافرت !!

لتفعل ما تريد ...

لقد عرض عليها هو فرص اللقاء .. فإذا كانت قد رفضتها .. فلتنفلق .

وتملكه إحساس بالشفقة عليها .

وود لو كانت بجواره ليربت على ظهرها ويضمها إليه في عطف .

ما ذنبها حتى تنفلق؟!

على أية حال إن خير ما يفعله هو أن يسافر ، وليحدث ما يشاء .. إنها لا شك ستبذل كل ما تستطيع للبقاء .. إذا رأت منه تصميمًا على السفر .. وإذا لم تفلح في البقاء .. فلن يمنعه ذلك من السفر .

إنه لن يجسر كثيراً إذا هبط في « فين » ، وذهب ليقضى بضع ساعات في « جاب » .

ليشاهد فيها جبالها ، وبحيرتها وشوارعها .. ويرى بيت « نادية » ومكتبها المطل على المحطة .

أجل .. إنها متعة .. أن يشاهد كل تلك الأماكن التي صورتها له ، ويطوف بها ويتنسم هواءها .. سيكرن أقدر على تصوورها .. إذا ما دعته إليها بعد ذلك ، وستدهش هي عندما يكتب إليها بعد ذلك عن بلديتها .. كتابة العارف الوائق .

وستضايق عندما تعرف .. أن الفرصة سنحت للقائهما ثم ضاعت .

ولكنه سيطمئن .. بأنه لا بد أن يلقاها ثانية .

أجل .. إن لقاءهما في رأيه قد بات أمراً محتماً .

إن ما بينهما من رباط وتفاهم ، وود وصدقة .. و .. و ..

ولماذا لا يقول حياً ؟

لماذا يحس بالخجل من هذه الكلمة !

لقد سبق أن اعترف فيما بينه وبين نفسه أنه يجبها ، فلماذا يحاول أن ينحى

الكلمة عن شفثيه ؟

إن هذه المشاعر الجياشة العميقة التي رسبت في نفسيهما لا يمكن أن تبدد في

الهواء .

لا يمكن أن تنتهي إلى لا شيء .

إلام يمكن إذن أن تنتهى !؟

إلى .. إلى ..

هو نفسه .. لا يمانع .

لا يمانع أبداً .. من أن يشد نفسه إليها .. مدى العمر .

لا يمانع أبداً .. من أن يضعها ذلك الموضوع الذى أرى أن يضع فيه أحداً ..

موضع المكبل لحرية .. المسيطر على أوقاته .

إنه يحس أنها أكثر المخلوقات فى هذا العالم ملاءمة لهذا الوضع .

إنها لطيفة ذكية .. حساسة رحيمة .

إنه يحب كل ما بها .

كل كلمة ، وكل تصرف ، وكل تفكير .

يجب كل لحظة فى صورها .. وكل لفنة .

وهو من أجل هذا لا يمانع أبداً فى أن يرتبط معها بوثاق دائم ، ورباط أبدي

مقدس .

إنه لا يخشى منها على نفسه أبداً

بل هو يتوق إليها .

إلى هذه الصببية الشقراء .. التى لازمتها فى أفكاره وغدواته وروحاته طوال

الأشهر الماضية .

ولكن هل هى ترحب بهذا !؟

ولم لا !؟

إنها لم تطرق قط هذا الموضوع من قريب أو بعيد .

والمفروض أنها لا تطرقه .. ما دام هو لم يطرقه .

ولكنها أيضاً لا تطرق أى موضوع عملى .. كل حديثها أوهاوم فى أوهاوم .

أيمكن أن تكون هى نفسها وهماً !!

وأحس بمرارة أليمة .. كأنما يوشك أن يفقد أعز ما عنده .

ما هذا السخف !!

أبعد كل هذه العلاقة .. يعود إلى التشكك في حقيقتها ؟!
لماذا إذن لم تقل له في خطاباتنا ما يؤدي إلى شيء ؟!

مثل ماذا ؟

إنه لا يعرف ماذا تقول الفتيات في هذا الموضوع !!
ولكن لا بد أنهن يقلن شيئاً .. يدفع الرجل .. إلى أن يخطو خطوة عملية .
أما هي .. فتحدث دائماً .. في الهواء .
على أية حال .. عندما يلتقيان .. لا شك سيكون المجال أكثر ملاءمة ،
والنفوس أكثر شجاعة ، وإقداما .

إنه لن يترك هذه الفرصة تمر .. دون أن يفعل شيئاً .
وهو لا شك سيراه عن كثب ، ويرى أسرتها .. وهو واثق .. أنه لن يخذله
شيء .. لأنها أطلعتة على كل دقائق حياتها

هذا إذا كانت لن تسافر .. وإذا كان سيلتقى بها .

فإذا حدث العكس .. فماذا تراه صانعاً ؟

أسينتظر إلى أن تحين فرصة للسفر في الصيف القادم !
أسينتظر عاماً آخر ؟!

لا .. لا !!

سيكتب إليها بطريقة عملية أكثر من هذا .

وسيتطلب منها زيارة القاهرة .

ومع ذلك فهو يحس أنه سيلقاها ، عند سفره إلى « جاب » .

إنه واثق أنها لن تخذله .

ليست هي النوع الذي يخذل أبداً .

ستبقى لتنتظره .. ولو أدى ذلك إلى أن تفعل المستحيل .

وإنها تحبه كما يحبها .

لم تقل هذا مرة واحدة .. ولكنه يستشف من كل كلمة نكتبها ، ومن كل سطر تضمه رسائلها .

لم تقل له مرة واحدة أنها تحبه .

ولكنه يعتبر حينها مسألة بدهية مسلماً بها .. لا تحتاج إلى قول .. أو تدليل . إنه يحس من رسائلها .. أنه الإنسان الوحيد الذى يعنيا أمره .. والذى ربطت به حياتها .

إنها قد باتت تسأله .. أتذهب إلى هذه الحفلة أم لا تذهب ؟ وهل ترتدى هذه البلوزة أم تلك ؟! وهل هى محقة فى خصامها مع أختها .. أم مخطئة ؟
أبعد هذا يشك فى أنها تحبه .. وأنها تحس له نفس الإحساس وتكن له نفس الرغبة ؟!

سيسافر إليها .. لن يمنعه شيء من السفر .

وأمسك القلم ورسم دائرة حول البلدة وأخذ يجرى بالقلم على الطريق الموصل إليها حتى وصل إلى مرسيليا .

ولم يكد القلم يقف على نقطة مرسيليا حتى سمع صوتاً يهتف من ورائه ضاحكاً : — ما شاء الله .. أقدم انتهيت من رحلتك وعدت ثانية إلى مرسيليا ؟ .
ونظر مدحت ليجد « جاد الله » يقف وراءه مطالعاً على الخريطة مشيراً إلى الخط الأسود الذى رسمه بين مرسيليا وجاب ..

وعاد جاد الله يقول ساخراً :

— ومعدتك .. هل أجريت عملية القرحة بواسطة أحد حلاقى الصحة

بجواب ؟

والفتت إليه مدحت وقطب ما بين عينيه حتى التقى حاجباه الكثيفان وصاح

به :

— ما هذا السخف !! أى عملية هذه التى سيجريها حلاقى الصحة ؟

— هل تظن أن هناك فى هذه القرية المرتفعة فى أعلى قمم الألب أكثر من حلاق

صحة ؟

— من قال إنها قرية .. يا حيوان .. هل ظننتها « منية السيرج » التي نشأ بها
أهلك !؟

— ماذا ستكون أكثر من ذلك !؟

— إنها بلدة محترمة .. بها دور سينما ، ونوادي .

— مفهوم .. مفهوم .. وبها مستشفى من أكبر المستشفيات ، وبها أطباء
عالميون سيفحصون معدتك .

— ومن قال إنى سأفحص معدتى هناك !؟

— إذن لماذا ستذهب إلى هناك !؟

— سأمر عليها في طريقي .

— آه .. فهمت .

— سأنزل في « فين » ثم أستقل القطار الذاهب شرقاً . هل تراه !؟

— لا أرى شيئاً .. وماذا ستفعل ؟

— سأبقى يوماً .. أو بضع ساعات .. حسب الجو .

— ثم !؟

— أعود إلى « فين » ، وأستقل القطار إلى جنيف .. أو إلى باريس .. ثم

أذهب بعد ذلك إلى لندن .

— ومتى تنوى أن تقوم برحلتك البلهاء !؟

— لماذا تقول عنها بلهاء !؟

— لأنى لا أرى لها ميراً أبداً ولا سيما في مثل هذه الظروف .

— أى ظروف !؟

— الظروف السيئة التي نمر بها .

— ومالى أنا ولهذه الظروف !؟

— ألا تعرف أن إنجلترا دعت الدول المنتفعة بالقناة لإصدار قرار في مسألة

التأميم ، وأن المؤتمر منعقد الآن في لندن ؟!

— لينعقد أو يفض .. مالى أنا به .

— هل تظن أن الوقت سيكون ملائماً لكى تذهب للعلاج في لندن وسط هذه

العواصف ؟!

— مادام الدكتور « تتر » لن يشترك في المؤتمر ، وأغلب ظنى أنه لن يعرف أن

هناك مؤتمر سينعقد من أجل القناة ، فإني أستطيع أن أذهب إليه كى يفحصنى في

أى وقت .

— إن الجو السياسى ملبد بالغيوم ، والصحف تقول إن إنجلترا قررت أن تدعو

الاحتياط ، وأن سفن إنزال الجنود وناقلات الدبابات تتحرك إلى جهة مجهولة .

— وإيه يعنى .

— وإن فرقة مشاة كاملة نقلت بالطائرات إلى قبرص .

— لماذا كل ذلك ؟ أمن أجل .. أن شركة قناة السويس المصرية التى كان

مفروضاً أن تكون ملكنا بعد بضعة سنوات .. قد أمناها !

— وسندفع تعويضات لأصحاب أسهمها .

— ما الذى يزعجهم إذن ؟

— يزعجهم المبدأ نفسه .. يزعجهم أن يتقوض نفوذ إنجلترا إلى الحد الذى لن

تستطيع بعده أن تستولى على إدارة القناة .. التى ظلت إنجلترا ترفع عقيرتها وسط

العالم .. بأنها شريانها الحيوى .

— ولماذا يحركون كل هذه الأساطيل ، وينقلون كل هؤلاء الجنود ؟!

— لأجل أن يستعيدوا القناة بالقوة .. إنهم لا شك يضربون أنفسهم

بالنعال .. لأنهم جلوا عنها .

— وهل تظنهم يجرعون على مهاجمتها فعلاً ؟!

— ولِمَ لا .

— كلام فارغ .

- إن أى هجوم منهم سيغلق القناة .
- وسيضع كل بترولهم فى أيدينا .. لأن العرب يستطيعون تحطيم كل أنابيبه .
- كل هذا وتقول إنهم سيهاجمون القناة !
- أنا لم أقل إنهم سيهاجمونها، وإنما قررت واقعاً وهو أن هناك حركات حشد .
- تهويش .
- ليكن .. المهم .. أنه ليس من المناسب أن تسافر فى هذا الجو الملبد بالغيوم ، والذي تجرى فيه على أقل تقدير .. حركات تهويش .
- ليس لى دخل بكل هذا .. إنها زوبعة فى فنجان .. وستنتهى إلى لا شىء .
- إلى هذا الحد. قد أصررت على السفر .
- أجل .
- أحقاً من أجل معدتك؟! قل الحق .
- وتردد مدحت قبل أن يجيب وهو يعبث بقلمه فوق الخريطة :
- إلى حد ما .
- ورفع جاد الله كتفيه مسلماً وقال :
- سافر .. ما دمت تحس بالرغبة فى السفر ، وإن شاء الله سينتهى كل شىء على خير .. لن تكون المسألة أكثر من زوبعة فى فنجان كما قلت .. إن إنجلترا تحاول أن تلعب بسلاح التهويش الذى كانت تلعب به فيما مضى .. هل تذكر بضعة الدبابات التى حركها « كيلرن » إلى القصر .. ليفرض بها الوزارة التى يريدونها ..
- أجل .
- إن عقليتهم لن تتغير ، ولكنهم فقط يعتبرون أن الخاكم الآن أقوى .. فهم يجركون له .. قوات كبيرة .
- بالضبط .. هذا ما يفعلونه ، وستنتهى تحركاتهم إلى لا شىء .
- ومتى نويت السفر ؟

— عندما ينتهى جواز السفر ، وأعرف مواعيد البواخر ، وأجهز بعض لوازم السفر .

— ماذا تنوى أن تحضر لى معك ؟ .

— من جاب ؟

— من لندن وباريس وجنيف يا غيبى .. فأنا لا أريد عيش و « سلاطين لين » .. إني أستطيع أن أحضره من « منية السيرج » التى لا تعجبك .
— ماذا تريد أن أحضر لك .

— ساعة من جنيف ، وامرأة من باريس ، وإذا لقيت المستر إيدن .. فاسأله أين تعلم الردح والشرشحة .. إن خطبه التى شتم فيها « جمال عبد الناصر » تدل على أنه نشأ فى « حوش بردق » لندن .. لقد فقد سمعته كجنتلمان بعد هذه الشلقنة .

وانصرف الصديقان ، وفى الليل جلس مدحت يكتب لنادية ، ويؤكد لها قرب مجيئه .. سواء أكانت فى « جاب » أم لم تكن .

وفى الصباح أسقط مدحت رسالته فى صندوق البريد ، وبعد نصف ساعة .. سقطت رسالتان أخريان فى صندوق بريد مختلفين تحملان نفس العنوان .

إحدهما وضعها صبرى .. ينبىء فيها « نادية » أن التعبئة العامة قد أعلنت فى مصر ، وأن جيش التحرير قد أنشئ وأنه قد انضم إليه .. وهو يتدرب يومياً على ضرب النار ، ويخبرها أن مصر كلها تقف لتشد أزر « جمال عبد الناصر » ، وتحافظ على أضخم ربح حصلت عليه مصر وهو قناة السويس .

أما الرسالة الثانية فقد كتبها « عصام » إلى « منى » ينبئها بأنه سيرحل غداً إلى القسيمة مع كتيبة السيارات .. بعد أن استكملوا معداتها ، وأنهم متخذون كل أهبة لصد أى محاولة لإسرائيل للصيد فى الماء العكر .

(٣٧)

تدبير للمقاء !!

جلست « نادية » في حجرتها تقرأ رسالة مدحت ، وقد وقفت وراءها « منى » .. ولم تكذتتهى من قراءتها حتى سقطت الرسالة من يدها واستغرقت في شروود شديد .. وهبطت « منى » في استرخاء على المقعد الكبير ، ومدت ساقها ، وتركت رأسها يسترخى على صدرها ، وقالت كأنما تحدث نفسها :
— جالك الموت يا تارك الصلاة .

وطوت « نادية » الرسالة ، وهي تتساءل في بأس :

— وما العمل !؟

وصمت « منى » برهة وبدا عليها الاستغراق في التفكير وأخيراً تساءلت قائلة :

— اسمعى يا نادية .. هل تحيينه حقيقة !؟

ورفعت « نادية » حاجبيها في دهشة وتساءلت :

— وماذا يجدى هذا الآن !؟

وعادت « منى » تتساءل في إلحاح :

— أجيبي علىّ أولاً .. هل تحيينه حقيقة ؟ أعنى هل تريدينه هو أم تريدين عملية الحب التى نسجتها أوهامك .. وخلقتها خيالاتك وأحلامك !؟ .. هل تتمنين أن تعيشى معه أم تفضلين أن تيمى فى قصة حبه !؟

ونظرت إليها « نادية » حانقة وأجابت فى امتعاض :

— لست أدرى معنى لهذه الأسئلة السخيفة التى تسألينها .

— إنها ليست أسئلة سخيفة .. إنها ستحدد طريقة تصرفنا معه .

— كيف !؟

— إذا كنت تريدينه حقيقة .. فقابليه .. وضحي له كل شيء .. واعتذرى عن خدعة الصورة التى أرسلتها إليه .

وبدا الارتياح على وجه « نادية » وهتفت فى فزع :

— أقالبه ؟

— أجل تقابليه .. لِمَ لا !؟

ونظرت « نادية » إلى المرأة المواجهة لها وجذبت عن رأسها الإيشارب بحدة وأخذت تتحسس آثار الحريق فى عنقها وقد اختلجت شفتاها وبدت فى ملامحها تقلصات بكاء وأجابت هامسة وهى تغالب دمعها :

— كيف أقالبه !؟

— إذا كنت تريدينه حقاً .. فيجب أن تقابليه .. يجب أن تعرضى نفسك للتجربة .

ودفنت « نادية » رأسها بين كفيها وهى تحاول أن تكبت رجفات بكاء توشك أن تهز جسدها ..

واستمرت « منى » تقول :

— إنها على أية حال .. خير من ذلك اليأس اللانهائى الذى تهيمين فيه. إن التجربة .. ستوصلك إلى شيء .. قد يكون فى صالحك .. ألا يجتمل أن يظل على حبك كما أنت ، فتربحين سعادتك وهناءك وحياتك .

وهزت « نادية » رأسها وأردفت فى نبراتها اليائسة :

— ويحتمل أن يفجع فى .. فأفقد كل شيء وأهدم كل ما شيدته من الأمانى وأبدد كل ما عشته من أحلام .

— وإلى متى ستظلين هائمة فى قصور أمانيك !؟

— إلى ما لا نهاية .

— ليس هناك شيء بلا نهاية حتى أمانينا وأحلامنا .

وصمتت « منى » برهة ثم هزت رأسها وتساءلت في عجب :
— أنت عاقلة يا نادية .. أعقل منى ومن كل البنات اللاتي نعرفهن .. فلماذا
يقف عقلك خارج حدود أحلامك ! لماذا تسوقين النصيح إليّ وإلى كل من
حولك .. وتأبين أن تسوقى النصيح إلى نفسك ؟

وأجابت « نادية » متسائلة في مرارة :

— وبم تريدن أن أنصح نفسي ؟.

— أن تكفى عن هذه الأوهام التي تعيشين فيها ، وتضعى نفسك في الأمر
الواقع .

وعادت « نادية » تتساءل في نفس المرارة :

— وأفقد أعز ما ملكت في حياتي .. أفقد أمتع إحساساتي .. وأجمل
مشاعري ؟!

وضمت « منى » ركبتهما إلى صدرها وهزت رأسها في حيرة وقالت
متسائلة :

— إذن ما العمل ؟! ألا تستطيعين إيقاف مجيئه ؟!

— لقد حاولت في رسالتي السابقة .. ولكنه يصير كما ترين على المجيء .. حتى
ولو لم أكن موجودة .

— إذن نسافر .

— إلى أين ؟!

— إلى أى ناحية .. إلى « جرينوبل » إلى « بريانسون » .

— هل تظنين السفر بمثل هذه السهولة ؟. هل نستطيع أن نقنع « ماما » به ؟
وماذا نقول لها ؟ أقول لها إننا نخشى مجيء مسافر من مصر ؟ ثم متى نسافر ..
ومتى نعود ؟! وهو كما ترين لم يحدد موعداً معيناً ، لو أننا نعرف بالضبط مواعده
لاستطعنا أن ندبر الأمر .

— إنه قد يرسل تلغرافاً .

— هيبه لم يرسل !
وساد الوجوم الفتاتين .. وبعد لحظة رفعت « نادية » رأسها وقالت في صوت خافت ولهجة تنم عن الخطورة :
— اسمعى يا منى .. إن لددى حلا .. لست أدرى ما رأيك فيه !
— ما هو ؟
ولم تجب « نادية » .. وبدا عليها الشرود ، وقالت « منى » تستحشا :
— لم تقولى ما هو ؟!
وتركت « نادية » مقعدها ، واقتربت من « منى » وجلست على حرف المقعد الكبير وقالت متسائلة في نبراتها الشاردة :
— لماذا لا تقابلينه أنت ؟
وقفزت « منى » وهتفت « بنادية » متسائلة :
— أنا ؟
وجذبتها « نادية » من ذراعها وأجلستها على المقعد وعادت تقول في هدوء :
— أجل أنت .. لماذا لا تقابلينه ؟
— أجننت يا نادية !!
— لماذا يا منى يا حبيبتي .. ألسنت أنت نادية التى يعرفها من صورها ؟
ووقفت « منى » أمامها وأشارت بإصبعها محذرة وأجابت :
— اسمعى يا نادية .. إلى هنا وكفى .. لقد وافقتك على مسألة الصور .
وقلت إنها لا تقدم ولا تؤخر ، وإن صورتك وصورتي لا تفترقان كثيراً .. وإن المسألة كلها مجرد لعبة تمكين بها فراغك .. ومصيرها ينتهى . أما أن أنتحل شخصيتك وأمثل دورك .. فلا .
— من قال إنك ستتحلين شخصيتى .. ليست المسألة بمثل هذه الشناعة التى تصورينها .
— ماذا تكون إذن ؟!

- إنك ستتوبين عنى فى لقاته .
- وأين تكونين أنت ؟!
- معك .. باعتبارى منى .
- ما شاء الله .. أتظنين الحيلة ستنتطلى عليه ؟
- أية حيلة .. إننا لن نجهد أنفسنا فى شىء .. وأؤكد له أنه .. إذا حضر حقاً .. ولقينا نحن الاثنين .. فإنه ببساطة سيحدثك على أنك نادية .. لأنك أنت التى انطبعت صورتك فى ذهنه .
- وماذا ستفعلين أنت ؟!
- سأعرفه بنفسى على أنى « منى » .. وسأحاول أن أتصرف كما تتصرفين أنت .
- والتفتت إليها « منى » رافعة أحد حاجبيها متسائلة فى خبث :
- وكيف أتصرف أنا ؟
- بخفة وطيش .. وشقاوة .
- أنا .. أنا التى أتصرف بخفة وطيش .. بعد كل هذا العبث الذى فعلته .. والطيش الذى تنوين فعله .. تهمينى بالخفة والطيش ؟!
- إنه مأزق انزلقنا إليه ، ولا بد لنا من علاجه بطريقة ما .
- وصمتت « منى » برهة وأخذت تقلب الأمر فى ذهنها .. وما لبثت حتى هتفت فى عناد :
- لا ياستى .. أنا لست مجنونة .. من يدرينى ماذا يفعل بى هذا الجزار المتجهم ؟!
- لا تكوفى مجنونة .. ماذا يستطيع أن يفعل بك ؟!
- يقطع لى زوراً أو معدة
- يقطع لك زوراً أو معدة ؟. هل تظنينه يمسك « سكيناً » فى يده ..
- ويطوح به فى خلق الله .. إنه جراح وليس جزاراً .

— من يدري .. ربما اكتشف بى سرطاناً وأصرَّ على قطع أحد أعضائى .
— بعد الشر عنك .. كفى عن هذا المزاح السخيف .. إننا نتكلم حقيقة .
— إذا كنا نتكلم حقيقة .. فهى أنه حاول أن يمارس معى بعض مظاهر
الحب .

— حب ؟ ..

— أجل حب ؟ .. لماذا تنطقينها بمثل هذا الاستغراب والدهشة .. أليس
المفروض أنه يجبك ؟!
— من قال هذا ؟

واستدارت « منى » لتواجه « نادية » وقبضت على ناصية شعرها وقالت
منذرة :

— اسمعى يا « نادية » .. ماذا تظنينه قد دفعه إلى أن يصر على زيارة
« جاب » ! ليرى الآثار الرائعة .. أم ليحضر المؤتمرات العالمية ؟! ماذا عندنا فى
« جاب » يدفعه إلى أن يجشم نفسه لزيارتنا ؟!

— إنه لن يأتى إلينا خصيصاً .. إننا فى طريقه إلى لندن .

— كذاب .. كذاب .. إننا ليس فى طريقه إلى لندن أبداً .

— إنه يتنزه ويستجم .

— هناك أماكن للاستجم والتنزه .. كثيرة .. غير « جاب » .. لماذا لم يذهب

إلى « فيينا » ؟ .

— ربما سيذهب .

— اسمعى .. إذا كنت ستصيرين على هذا البلف .. والاستعباط .. فتفضلى
قابليه وحدك .. تحمليه وحدك .. ودعيني فى حالى .

واقتربت « نادية » منها وضممتها إلى صدرها وقبلت رأسها وقالت تهدئها :

— لا تغضبى يا منى .. حقلك على ، قولى .. ماذا تريدين ؟

وصمتت « منى » برهة تفكر ، وقالت ، وهى تهز رأسها فى حيرة :

— نستيني ماذا كنت أقول ؟
— كنت تقولين .. هبى أنه حاول أن يمارس معك بعض مظاهر الحب .
وهتفت « منى » بلهجة المتذكرة :
— أجل .. هيبه قد فعل .
وهزت « نادية » رأسها مستفسرة وتساءلت :
— مظاهر الحب .. مثل ؟ .
— مثل !؟ ألا تعرفين مظاهر الحب حتى الآن .. يا غبية تقبيل مثلا .. هبى
أنه حاول تقبيلي .. ماذا أفعل !؟
وأحست « نادية » بشيء يعترض في باطنها .
ماذا تفعل !؟
إن مظاهر الحب ليست هى المشكلة وإنما جوهره هو المشكلة .
ماذا تفعل .. إذا أحب « منى » فعلا .. وهو لا شك فاعل ؟
ماذا تفعل إذا تعلق بها .. كصورة مجسدة ، للوهم الذى أحبه .. « لنادية »
التي كتبت إليه .. ودعته .. وطافت به سفح الجبل ، وشاطئ البحيرة ..
ومرحت وإياه في دفء الشمس ، وناجته أمام المدفأة في سكون الليل !
لم يكفها أنها منحته صورة غير صورتها حتى تمنحه كائنة غيرها !؟
ولكن .. هل كانت تملك غير ذلك !؟
هل كانت تملك أن تمنحه صورتها هى .. وهل تجسر الآن على أن تلقاه !؟
لقد سبق أن سلمت أن المسألة بوضعها المادى .. قد باتت مستحيلة بعد أن
شوه الحريق عنقها .. ولم تجد لها عزاء عن يأسها المطبق سوى الصلة الروحية ..
واللقاء الوهمى الذى أضححت تمارسه في رسائلها .
وكانت « منى » في العملية كلها مجرد أداة معاونة .. بصورتها .. في الرسائل
السابقة .. وبكيانها في اللقاء .. المتوقع .
فما الذى يدفعها بعد ذلك .. إلى الضيق .. والقلق .. والجوف .. و ..

والغيرة ؟

أحقاً .. باتت تغار من « منى » !
أبدأ .

لا كانت .. ولا كانت حياتها .. ولا كان حبها .. لو أنها غارت من أختها
الحبيبة الطيبة .

ومع ذلك ، كل التحليلات التي حللتها للموقف .. لم تستطع أن تمنع شعور
القلق والخوف .. من الحل الذي توشك أن تقدم عليه .

ولكن .. هل هناك ، من حل سواه !؟

إن التهديد بالرحيل .. لم يجد في منعه من الحضور .

والرحيل نفسه ، عسير مستعص ، ثم إنها فوق هذا كله وفي أعماق نفسها ،
في أعماق الأعماق .. التي لا يسر لها غور ولا يدرك لها قرار ، تتوق إلى لقياء ،
بأى وضع وعلى أية حال .. حتى ولو كانت على هامش اللقيا .

حتى ولو لم تكن « نادية » ، وكان غيرها يحتل مكانها ، في رؤيته واستقباله
وسماع حديثه .

إنها على الأقل ستراه عن قرب .. وستسمع حديثه ...

وأكثر من هذا .. سترى كيف يتصرف حيالها ، وماذا يحس لها .

ليس لها هي .. ولكن « لنادية » .. التي تمثلها « منى » .

أجل .. ستمتعها ، لهفته عليها ، في صورة « منى » .. فهي لن تعتبر
« منى » ، غير صورة تمثلها ، لأنها لا تستطيع هي أن تحتل ذلك الموضع الذي تود
أن تحتله .

لن تغار من « منى » أبداً .

لأنها ستعتبر كل لهفة على « منى » ، لهفة عليها .. وكل كلمة موجهة
« لمنى » ، موجهة لها ، وكل ضحكة وكل ابتسامة وكل لفظة ، ستلقاها هي ..
وستستمتع بها هي

ولكن هل تستطيع « منى » ، أن ترد بالطريقة التي تحب أن ترد بها هي ؟
إن « منى » خفيفة عابثة وقد تصدمه بتصرفاتها الماجنة الضاحكة ، وهو لا
شك قد كَوّن لها في نفسه صورة ، لا تلائم أبداً .. هذه الصورة التي ستبدو بها
« منى » .

إن عليها أن تعلمها كيف تتصرف ، وكيف تتحدث .
أجل .. يجب ألا نخذله .
يجب أن تتصرف تماماً .. كما تتصرف « نادية » .
ولكن هل تستطيع !؟

ولمّ لا ؟! إن « منى » قد قرأت كل رسائلها ورسائله ، ولا شك أنها ستعرف
ما يمكن أن تقول « نادية » ، وكيف يمكن أن تتصرف .
ولكن هل تستطيع أن تعرف كيف يمكن أن تحس ؟!
على أية حال .. تعرف .. أو لا تعرف ، ليس هناك مفر من هذا الحل .. إن
المسألة كلها لن تعدو ، يوماً ، أو بعض يوم .. سيرحل هو بعده .
وإذا لم يرحل .. فليس هناك أسهل عليها من ادعاء السفر .
وكانت « منى » ترقب « نادية » في شرودها ..
وعندما انتهت « نادية » من سلسلة تفكيرها بتهيئة راحة تساءلت « منى »
ضاحكة :

— ها .. لم تيجبي علّتي ؟!

وهزت « نادية » رأسها متسائلة ، فقد نسيت أن ترد على سؤال « منى »
الذي دفع بها إلى هذا الشرود .

وعادت « منى » تردد سؤالها في لهجة مرحة عابثة :

— ماذا أفعل إن قبّلتني ؟!

وهزت نادية رأسها وأجابت مؤكدة :

— لا تخافى .. لن يقبلك .

- ولم لا ؟!
- أولاً لأن العلاقة التي بيننا .. لا تسمح له بهذا .
- وثانياً ؟!
- لأن طبيعته لا تدفعه إلى مثل هذا النزق .
- نزق .. يا مغفلة ؟! التقييل نزق .. ها .. ما علينا .
- وصمتت برهة ، ثم أردفت متسائلة :
- وثالثاً ؟!
- وثالثاً .. إن التصرف الذي ستصرفينه .. باعتبارك أنا .. لا يمكن أن يدفعه إلى مثل هذا .
- وقلبت « منى » شفيتها وقالت :
- جائز .. جائز جداً .. لو أنى تصرفت فعلاً .. كما يجب أن تتصرفى أنت .
- ورفعت « نادية » إصبعها مخذرة :
- وبالطبع ستصرفين كما يجب أن أتصرف أنا ؟!
- طبعاً .. طبعاً .
- وقفزت « منى » من مقعدها ، واختطفت إحدى زهرات القرنفل .. ثم قربتها من أنفها في حركة تمثيلية ، وقالت ، وهي تسبل هدبها وتمديدها بالزهرة :
- وامدحتاه ؟! واحرق قلباه ؟!
- ولم تتألك « نادية » نفسها من الضحك وصاحت بمنى :
- أنا أفعل هكذا .. يا مهرجة ؟!
- ولم تجب « منى » .. واستمرت في حرركاتها التمثيلية صائحة وهي ترقع في وضع كليوبطرة :
- هلمسى الآن منقذنى هلمسى وأهلا بالخلاص وقد سعى نى
على نابيك من زرق المنايسا شفاء النفس من سود الليالى
- ومدت « نادية » يدها فرفعتها من شعرها ناهرة :

- انهضى وكفى استهزاء .. دعينا نتحدث بجد
ونهضت « منى » ، وهى تقول ضاحكة :
— ألا تريدان أن أتصرف كما تتصرفين ؟!
وجذبتها « نادية » وأجلستها على المقعد قائلة :
— اجلسى هنا .. يجب أن تتدبر الأمر جيداً .. ونضع خطة محكمة .. حتى
لا تنكشف .
— لا تخشى شيئاً دعى الأمر لى .
— ماذا ستفعلين ؟!
— عندما يحضر .. إما أن يرسل إنذاراً بحضوره .. تلغرافاً مثلاً .. وفى هذه
الحالة سأذهب وإياك لنلقاه على المحطة .. وسراه بالطبع يقف فى النافذة ، برأسه
المنحول ، وأنفه الطويل . وحاجبيه الثقيلين .
— منى .. كفى عن الاستهزاء به .
— هل قلت شيئاً من عندى ؟!
— إنه ليس بتمثل هذه الصورة القبيحة التى تصورينه بها .
— متأسفة .. سنراه يقف فى النافذة .. بشعره الذهبى ، وحاجبيه
الرفيعين .. وأنفه الدقيق .
— منى .. كفى سخفاً .
— حيرتنى .. لا يعجبك هذا ، ولا ذاك !! كيف أصفه إذن ؟!
— لا تصفيه .. إنى أعرفه جيداً ، فلا ضرورة لوصفه ، ادخلى فى الموضوع .
— دخلنا فى الموضوع .. سنراه يقف خلف النافذة ، بعينه .. هل أصف
عينيه ؟
— لا ضرورة .. أكمل حديثك ، ماذا ستفعلين عندما ترينه يقف فى
النافذة ؟!
— سأرفع يدي وألوح له .. بتؤدة .

- ولماذا التؤدة ؟
- هل أندفع إليه وأقفز لأحتضنه من النافذة ؟!
- لا هذا ولا ذاك .
- ماذا أفعل إذن ؟!
- ابتسمي ابتسامة من قلبك .
- أبتسم .. أجل .. ولكن من قلبي .. شيء لا يستطيع أحد أن يطلبه مني
- ابتسمي وكفى .
- ثم ؟!
- هرولي إليه .
- كيف أهروول ؟!
- أعني لا تجرى كالجنونة .. ولا تتباطئي في بلادة .. أعني تقدمي ، وفي وجهك لهفة .. وفي ملامحك فرحة .
- مفهوم .. مفهوم ... شيء طبيعي .
- مدى يدك للسلام عليه .
- هل أحتضنه ؟!
- أجنونة أنت ؟ مدى يدك فقط ولا بأس من أن تضغطي عليها .
- وأبقها في كفه ؟!
- قليلا .
- وإذا حاول هو أن يبقها أكثر ؟
- دعها .
- وماذا بعد !. أين نذهب به ؟!
- نذهب به إلى فندق الميدان .. بعد أن يرفض دعوتنا إلى النزول في المنزل .
- هبى أنه قبل !
- لا .. لا .. لن يرضى .

— افرضى !؟

— تبقى مصيبة .

— ولا مصيبة ولا حاجة ، نخبر « ماما » بالحقيقة .. وننزله فى إحدى الحجرات الخالية ، ونخبر أهل المنزل جميعاً بأن ينادوك باسم « منى » وينادونى باسم « نادية » .

— أعتقد أنه لن يقبل النزول فى المنزل .

— وبعد أن ينزل فى الفندق !؟

— تطوف به فى البلد .. نريه كل الأماكن التى دعوته إليها .. ثم ندعوه إلى الغذاء فى النادى ثم نصعد به للجبل .. و ... ونفعل أشياء كثيرة .

— وماذا تفعلين أنت !؟

— سأتصرف كأنتى « منى » .

— هل تعرفين !؟

— أتظنيتها مسألة عسيرة ؟

— بالنسبة إليك .. أعتقد ذلك .

— أبدأ .. سأقفز وأتوالب ، وأضحك وأمرح ، وأقول كلاماً كثيراً فارغاً .
— أما مجرمة .. أهذا كل ما ترينه فى ؟

وضحكت نادية :

— وأبدو طيبة القلب ، صافية النفس .. أحب الناس والحياة .. ولا أضمر ضغينة لأحد .. ولا أعادى أحداً .. بشوشة ، رقيقة . أتريدين أكثر من ذلك !؟

وضحكت « منى » وضمت إليها « نادية » وهى تتساءل :

— أحقاً هذا رأيك فى ؟

— رأى أنا فقط ؟. إنه رأى كل الناس .

وسمعتا صوت الأم يناديهما من أسفل :

— نادية .. منى .. ألا تنويان النزول للغداء !؟

وأجابت « منى » :

— حالاً يا ماما ..

وبدت نادية وقد غيمت على وجهها سحابة همّ فسألته « منى » :

— ما بك يا نادية !؟

— أبداً .. أفكر فقط في الزيارة المتوقعة :

— ماذا تخشين منها .. ألم نحل مشكلة لقائه !؟

— أجل .

— وسيمكث معنا بضع ساعات ثم يرحل .. وتعاودين الكتابة إليه كما

تعودت !؟

— أحقاً سيرحل ببساطة وبلا عواقب !؟ وهل يمكن أن أعاود الكتابة إليه كما

كنت أفعل !؟

— ولم لا !! ما دمت أنت تريدين الكتابة إليه .. فإذا لم تريدى . فليس

أسهل من أن تقولى له إنك ستسافرين . وإن عنوانك سيتغير وإنك سترسلين إليه

بعنوانك الجديد .. ثم تتوقفين عن الكتابة إليه . وسيرسل لك بضع رسائل ،

وعندما لا يجد رداً .. سيئس ويتوقف الأمر . معقول ؟

وهزت « نادية » رأسها وأجابت في لهجة بائسة :

— معقول .

وقبل أن تغادر « منى » الحجرة قالت « نادية » وهى تفتح درجاً صغيراً فى

دولابها :

— اسمعى يا « منى » .. إن رسائله كلها فى هذا الدرج .. وأعتقد أن من

الأفضل أن تقرئها كلها مرة ثانية حتى لا تخطئى فى المناقشة معه .

ونظرت « منى » إلى كومة الرسائل وبدا عليها الفرع وأجابت قائلة :

— يا نهار أسود .. أنا أقرأ كل هذه .. لا يا ست نادية .. يفتح الله .

— إنهن لن تستغرق منك وقتاً طويلاً .. إن خطه كبير .

— ولماذا أقرؤها؟! —

— لأنه قد يغيد لك بعض ما قاله فيها .

— ليعيد أو ينفلق .. أتظنننى سأسمعها له كالمحفوظات !

— أبداً .. تكون لديك فكرة عنها .

— إن لددى فكرة جيدة .. عن كل ما بها من سخافات ، أعرف « عصير

القصب » الذى اشتراه لك .. و « البطاطا » ، التى بجل عليك بها .. وأعرف

« الستين قرشاً » التى لهف بها القشدة هو وصاحبه الحلوف « جاد الله » .. هل

تظنين معدته تعبت من قليل .. من « البطاطا .. والعصير .. والكمميك

قطايف » .. ماذا تريدان أن أعرف عنه أكثر من ذلك؟! —

— هل تعرفين أنه ترك ميرفت؟! —

— وأنا مالى .

— تركها من أجلك .

— أجلى أنا؟! —

— أعنى من أجلى أنا .

— حلال عليك .

وتريثت « منى » برهة ثم رفعت حاجبيها واتسعت حدقتها وهتفت فى شبه

ارتياح :

— اسمعى . هل تعنين أنه .. يجوز .. أن .. أقصد أنه يمكن .. أن يخطبنى ؟

وهزت « نادية » رأسها فى نفى بات وقالت :

— لا . لا . غير معقول . إن ما بيننا لا يمكن أن يدعوهُ إلى ذلك . إنه لم يشر

مرة واحدة إلى شيء من هذا . غير معقول مطلقاً .

وهزت « منى » رأسها وتمتمت :

— والله يعملها .. مجنون .. مجنون .. لا يستبعد عليه أن يكون قد عمل كل

هذه الرحلة لكى يخطب .. المجهولة التى ترأسله من قمم الألب

- وعادت « نادية » تهز رأسها نافية :
— غير معقول يا منى .. لا تكونى سخيفة .
— أنا السخيفة ؟ أنا التى أقوم بكل هذه الرحلة لجرد أن فتاة كتبت إلى ؟ .
وعاد صوت الأم ينادى الفتاتين :
— منى .. نادية .. الطعام برد .
وصاحت نادية :
— حالاً يا ماما .
والتفت « منى » متسائلة :
— اسمعى .. هيبه قد فعلها ، وخطبنى .
وأحست « نادية » بنشوة من وقع الكلمة .. ولكنها ما لبثت أن طردتها من نفسها وأجابت بطريقتها النافية المؤكدة :
— يا منى يا حبيبتى غير معقول أن يفعلها .
— لنفرض أنه فعل .. ماذا أفعل أنا ؟!
وصمت « نادية » برهة .. وبدأ عليها شرود ، وعادت « منى » تستحثها
متسائلة :
— ماذا أفعل .. لو فعلها ؟ .
وأجابت « نادية » فى صوت خافت يائس :
— اعتذرى . قولى أى شىء .. قولى إنك لا تستطيعين . تصرفى .
ومرة أخرى عاد صوت الأم ينادى فى غضب :
— هل ستنزلان .. أم أرفع الطعام ؟
وأجابت الفتاتان وهما تهبطان الدرج : « ستنزل »

(٣٨)

محاولة هروب ...

جلست « نادية ومنى » على مائدة الطعام ومعهما الأم وجانيت ، وكانت الجدة قد زحفت بمقعدها حتى استقرت بجوار المنضدة ، وبدأ الشرود على وجه « نادية » ، وهى تزرد طعامها .. ولم تكن « منى » أقل منها شروداً .. فقد استبد يدهنهما هذا الحديث الذى دار بينهما فى حجرة « نادية » حول زيارة مدحت المتوقعة .. وكيفية مواجهتها .

ورأت الأم الصمت الذى ساد ابتيها والوجوم الذى علا وجهيهما وقلبت البصر بينهما قائلة فى تساؤل :

— ماذا بكما ؟

وهزت « منى » رأسها وهى تمضغ قائلة :

— لا شئ .

وعادت الأم تتساءل غير مصدقة :

— أتعاركتما ؟ ..

وتضاحكت « نادية » قائلة :

— ليس بعد .

— إذن مالكما صامتتين !؟

ورفعت « منى » كتفها وأجابت :

— أنا شخصياً أفكر .

وتساءلت جانيت ضاحكة بالتعبير الإنجليزى :

— بنس لأفكارك .

- وأجابت « منى » بالرد المألوف :
— لا تستحق .
— إذن قولها مجاناً .
ونظرت « منى » لنادية وتساءلت :
— أقول يا نادية ؟
ورفعت نادية حاجبيها متسائلة في دهشة :
— تقولين ماذا ؟ .
— ما أفكر فيه !
ونظرت إليها « نادية » محذرة .. ثم قالت وهي ترفع كتفيها في غير اكتراث :
— أنت حرة .. قولي ما تشائين .
ومدت « منى » يدها إلى طبق الفاكهة فأمسكت بتفاحة غرست فيها أسنانها
ونهرتها أمها قائلة :
— قشريها .
وأجابت « منى » :
— لا ضرورة .. إن القشر مليء بالفيتامينات .
وأحست « نادية » بشيء من الارتياح وهي ترى الحديث يتجه اتجاهها
آخر .. غير أفكار منى .
ولكن « منى » ما لبثت حتى عادت تقول وهي مستمرة في قضم التفاحة
بقشرها :
— كنت أفكر أنا ونادية في ..
وعادت تقضم التفاحة ، وتوترت أعصاب « نادية » وحملت في وجه
« منى » واستمرت « منى » تقول :
— كنا نفكر في أن نقوم برحلة .
وتساءلت الأم :

— إلى أين؟! —

وفكرت « منى » برهة ثم قالت :

— إلى « بريانسون ، مثلا .. أو إلى « جرينوبل » .. أليس لك أقرباء يستضيفوننا؟! لقد مللنا « جاب » .

وهزت جانيت رأسها وقالت متسائلة :

— كيف لا يكون لدينا أقرباء في بريانسون وجرينوبل . إن لدينا أقرباء ومعارف في كل بلدة في فرنسا . إن أسرة ...

وقاطعتها « منى » قائلة :

— لا نريد شرحاً لتاريخ الأسرة .. إننا باختصار نريد أن نغير مناظر .

وأجابت جانيت .

— إن عمى ريمون وزوجته « سارة » يتمنيان أن تزوراهما في أى وقت .

وتساءلت منى :

— عمك ريمون من؟ لم نسمع به من قبل .

— إنه زوج عمتى .

— هل سارة عمتك؟

— لا .. عمتى ماتت .. وقد تزوج بعدها سيدة من شابرى ثم ماتت ..

وتزوج بعدها السيدة « سارت » وهى ..

وهزت « منى » رأسها فى يأس وقالت :

— هل تظنين عمك ريمون .. بعد زيجاته الثلاث ما زال يذكر المرحومة

عمتك .. حتى يتفضل بدعوتنا إلى منزله؟ .

وردت جانيت مستنكرة :

— يذكرها!! إنه لم ينسها قط .. لقد قال فى آخر خطاب كتبه إلتى ..

وضحكت « منى » وتساءلت فى خبث :

— هل عمك ريمون هذا .. هو الذى يرسل إليك الرسائل الزرقاء؟! —

— أجل ..

ونظرت « منى » إلى أمها وتساءلت :

— ماما .. هل يجوز لزواج العممة أن يتزوج ابنة أخ زوجته ؟!

ورمقتها الأم بنظرة ناهرة وقالت :

— كفى عن هذا المزاح السخيف .

وضحكت « منى » وأجابت :

— إني لا أمزح والله .. إني فقط أتصور أن العم رميتم يعمل حساب عمتي

جانيت .. في مشروعاته المستقبلية .. بعد أن يأخذ الله السيدة سارة إلى جواره .

واحمر وجه جانيت وتصاعد الدم إلى أذنيها حتى أضحت « كالجزرة » وقالت

لمنى « ناهرة :

— يا حبيثة .. ألا تكفى عن تفكيرك الخبيث ؟!

وردت « منى » قائلة :

— المهم .. هل عمك هذا .. على استعداد أن يستضيفنا ؟

وأجابت جانيت فى حماس :

— طبعاً .. إنه يعرفكم جيداً .. إني أكتب إليه عنكم فى كل رسائل .. وهو

دائماً يبلغكم السلام وآخر رسالة سألتى متى نوى أن نزوره .

وتساءلت « منى » فى خيبت :

— نزوره ؟! أو تزورينه ؟!

— بل نزوره كلنا .

— هل لديه استعداد لأن يستضيفنا ، وأن يحتفل متابعينا لمدة أسبوع ؟

وكانت « نادية » قد لزمت الصمت طوال المناقشة فقد كانت تعتبرها مجرد

ثرثرة من « منى » .. فلما وجدتها تتساءل فى جد ، رفعت وجهها عن التفاحة

التي إنهمكت فى تقشيرها وتساءلت فى دهشة :

— أسبوع ؟! ..

- وأجابت جانيت :
— طبعاً إنه يحتمل .. لقد سبق أن دعانا عدة مرات ، وقد قلت لأمكما .. ألم أخبرك يا لورا ؟
وهزت « لورا » رأسها في ملل ، وقالت « لمنى » ناهرة :
— منى .. كفى عن هذا السخف .
— لماذا لا نذهب !؟
— إلى أين ؟
— إلى بريانسون .. لنتنزه .. إنهم يقولون إنها مذهشة .
— لن ترى فيها أكثر مما ترين هنا .
— المهم أننا نغير المناظر التي حولنا . إن جابى وتونى ..
وقاطعتها الأم في ضيق :
— ليس لنا بأحد شأن
— لماذا يا ماما ..
— لأننى لا أكاد أتحرك .. من حجرة إلى حجرة . ماذا يدعونى إلى الشحططة
والمرمطة !؟
— إذن ابقى أنت ، وسنسافر مع عمتى جانيت .
وقالت جانيت فى حماس :
— أجل .. إنى على استعداد لمصاحبتكما .. لا بد أن يريا المنطقة كلها .. فغير
معقول أن تظلا مرابطتين فى « جاب » . لا بد أن تتنزا .. إن بيت العم ريمون
يقع على شاطئ البحر ، والمنظر هناك عجيب ، والجبل جميل .
وقفرت « منى » من مقعدها واتجهت إلى الأم تحتضنها وتقبلها مستعملة معها
وسيلتها المعتادة فى الإقناع .. وأخذت ترجوها متوسلة كأنها طفلة صغيرة :
— والنبي يا ماما .
وكانت « نادية » مطرقة ، متشاغلة بالتفاحة فى يدها ، وقد بدا الوجوم على

قسماتها .

ونظرت إليها « منى » ودهشت من إطراقها ووجومها .. فقد كان مفروضاً أن كل هذه المحاولات في سبيل الرحيل عن « جاب » من أجلها هي .

لقد بدأت « منى » المحاولة بمجرد مناقشة يائسة لا طائل تحتها ، ولكن ها هي توشك أن تثمر عن رحلة حقيقية تبعدها عن « جاب » ، وتوفر عليها عملية الخداع والتمثيل التي فكرتا فيها .. إذا ما وقعت الواقعة وأتى مدحت إلى « جاب » .. فلماذا تبدو « نادية » واجمة ؟. ولماذا لا تحاول أن تسهم في عملية إقناع أمها ؟

ونظرت « منى » إلى « نادية » .. وهي منهكة في تقشير التفاحة ، وهتفت بها :

— نادية .. مالك ساكنة .. ألا تريدين الذهاب إلى بريانسون ؟!

ورفعت « نادية » رأسها كأنها أفاقت من شرود بعيد .. وأجابت متسائلة :

— بريانسون ؟!

— أجل .

— ألا تريدين أن نرحل عن « جاب » ؟

وأحست « نادية » أن خافقاً يدق في حناياها ويكاد يهتف لا .. لا أريد أن أرحل عن « جاب » .. إن مدحت .. سيأتي .. سأراه .

إنه قد لا يميزني ، ولكنني سأراه .

قد لا يعرف أنى أنا نادية .. نادية الحقيقية .. التي أحبته والتي كتبت إليه ، والتي تتلهف على رؤيته .

ولكن ماذا بهم إذا كان لا يعرفني .. ما دمت سأعرفه ، وسأجلس إليه وأصعبه إلى الجبل .. وسأسير معه على الشاطئ البحيرة .. وأطل وإياه على

الوادي الأخضر .. وأتطلع وإياه إلى القمم البيض !!

كيف أتركه وأفر ؟!

لأنه لن يعرفنى !

ومنذ متى قد عرفنى ؟!

لا .. لا .. إني لا أريد الرحيل عن « جاب » سأبقى .. سأبقى حتى أراه

ولو من بعيد .. يهبط من القطار وحده .. ويسير في البلدة وحده .

وسأرقبه أيضاً ، وهو يرحل وحده .

سأجلس بعيداً لأودعه في صمت .. كما ودعته في النادي عندما رحلت عن

مصر .. من بعيد ، ودون أن يحس بي .

لن يكون لوداعى .. معالم .. تماماً كما لم يكن لوداعى الأول معالم .

سأبقى .. سأبقى .

وعادت « منى » تكرر سؤالها في لهجة مغيظة :

— نادية !! لماذا لا تجيبين ؟! أيعجبك البقاء في « جاب » ؟!

ألا تودين الرحيل إلى بريانسون ؟!

وأجابت نادية في صوت خافت ، وهي ترفع رأسها يبطاء :

— ولم لا !

ولم يعجب « منى » لهجتها الباردة فعادت تردد في غيظ :

— ولم لا ؟! أنت لا يهملك الأمر كثيراً ؟!

وهزت كتفها في استخفاف وأردفت قائلة :

— طبعاً ما دام العيب سيقع على . ما دمت أنا التي سأ ..

وانتفضت « نادية » ونظرت إلى « منى » نظرة زاجرة وقاطعتها قائلة :

— قلت لك إني أحب الرحيل إلى بريانسون .. أقول لك أكثر من هذا ؟!

وهزت الأم رأسها وقالت ، وهي تحيط « منى » بذراعها :

— يا منى يا حبيبتى .. ألا تهديين ؟! ألا تهديين في مكان واحد ؟! كل هذه

النزهات تقومين بها في « جاب » .. ولا تكتفين !

— أى نزهات ! لقد مللت الصعود إلى الجبل والذهاب إلى النادي .

— إني أخاف عليك يا منى .

— ممن ..

— من كل هذا الجهد الذى تقومين به .

— « تانى » .. ألم تنفق على ألا نعود إلى هذا الخوف . لقد أثبت لك أنى أشد

مائة مرة من ابتك هذه التى لا تخشين عليها .. بالأمس تفوقت عليها فى « التنس » ، ومنذ يومين سبقتها فى الصعود فى الجبل .. وأنا على استعداد الآن لأن أدخل معها فى مصارعة أو ملاكمة .

ثم اتخذت موقف الملاكم وأردفت قائلة :

— ها .. إني مستعدة .

ثم أقبلت على أمها تضمها إليها مرة أخرى قائلة فى توسل الأطفال :

— انتبيننا يا ماما .. سنذهب إلى بريانسون !؟

— بشرط .

— إني أقبل كل شروطك .

— أن تأخذى بالك من نفسك .

— وألا أعرق وأجلس فى الهواء .. وألا أتبهج .. وألا أعدو .. وألا أركب

دراجة ، وألا .. وألا .. هل لديك شروط أخرى ؟!

ومالت على أمها تقبلها فى حنان وقالت متسائلة :

— أتدريين يا ماما لو نفذت شروطك لانتهى بى الأمر إلى أى شىء .

وهزت الأم رأسها متسائلة .. فأجابت منى :

— إلى أن يحملونى على نقالة فى كل حركة .

وأجابت الأم وهى تضمها فى حنان :

— بعد الشر .. إني فقط أريدك ألا تجهدى نفسك .

— مفهوم ..

وقالت جانبيت :

- لا تخشى عليها .. سأكون أنا المسئولة عنها .. لن أتركها لحظة ..
ونظرت « منى » إلى جانيت وتساءلت في خبث :
— والعم ريمون ؟!
وضربت جانيت على ظهرها بخنفة وقالت زاجرة :
— يا خبيثة .
واتجهت « منى » إلى « نادية » التي كانت لا تزال في جلستها المطرقة الواجمة
وقالت كأنما تحاول أن توقظها من شرودها :
— هاى .. إلى أين وصلت ؟!
ولم تجب « نادية » .. فعادت « منى » تتساءل :
— إلى منشية البكرى ؟!
ثم جذبتها من ذراعها واتجهت بها إلى الباب الخارجى وقالت متسائلة :
— مالك يا نادية ؟!
— أبداً .. لا شىء .
— ألم تعجبك هذه المحاولة للزوجان ؟! أليس هذا ما كنت تتوقين إليه ؟
وأجابت « نادية » في غير حماس :
— أجل .
وعادت « منى » تقول وهى تهز رأسها في دهشة :
— أنت عجيبة يا نادية !! إني لا أستطيع فهمك .
وانحنت « نادية » بطريقة غير إرادية لتقطف إحدى زهرات القرنفل التى تملأ
الحوض القائم على مدخل الباب .
ونظرت إليها « منى » متسائلة :
— ألم تكوني أنت الراغبة فى الهروب ؟
— أجل .
— إذن ما بالك لا تتحمسين له عندما نجحت فيه ؟

- لست أدري ماذا سنعمل في بريانسون ؟
- هبى أننا لن نفعل شيئاً .. ألا يعجبك أنه مجرد فرار من صاحبك المصر على الجحى ؟
- وأجابت « نادية » وهى مستمرة فى شرودها :
- أجل .
- وضغطت « منى » على ضروسها فى غيظ :
- اسمعى يا نادية .. أنا أريد أن أعرف بالضبط .. هل ترغبين فى لقاء مدحت ؟.
- ونظرت إليها « نادية » نظرة شاردة ، وأجابت وهى تطلق تنهيدة طويلة :
- كيف أرغب فى لقاءه ؟ كيف أجسر ؟
- وأنا أيضاً .. لا يهمنى لقاءه .. فماذا يضايقك من الرحيل ؟
- أنا لم تضايق .
- بل تضايقت .. أو على الأقل لم تتحمسى له .. هل أنت راغبة أن تدفعى لى إلى المأزق ؟
- أى مأزق ؟!
- أن أقوم . بدورك وأقابله ، وأطوف به .. وأحدثه حديث الهائمة .
- وأجابت « نادية » فى غضب وقد احمر وجهها :
- إذا كنت لا تريدین هذا فأنا لم أكرهك عليه .
- يا نادية يا حبيبتى .. أنا لا أكره أن أقوم بأى شىء من أجلك .. حتى الموت من أجلك لا أكرهه ، ولكن .. نستطيع أن نجنب أنفسنا هذه الخديعة التى نوشك أن نقوم بها ، وما دمت أنت كنت تتمنين فرصة للرحلة ، فلماذا لا تتحمسين لها بعد أن أتحتها لك ؟
- ومدت « نادية » يدها فأمسكت بيد « منى » وضغطت عليه قائلة فى حنان :

— لا تتضايقي منى يا « منى » .. إلى لا أفهم نفسى .. إلى حقاً حائرة .
— لا داعى أبداً للحيرة .. سنقوم بالرحلة إلى « بريانسون » مع عمى جانيت .. فإذا أتى ونحن فى السفر .. فيها ونعمت ، وإذا لم يأت فسنستقبله كما اتفقنا ، وسأفعل لك كل ما تودين .

وضمتها إليها وقبلتها فى عطف ثم تساءلت :
— اتفقنا !؟

وأشارت « نادية » برأسها بموافقة ، وعادت « منى » تقول :
— اضحكى إذن .

وقبل أن تضحك « نادية » سمعت صوتاً يتساءل من ورائهما :
— علام تضحكين ؟

ونظرت « منى » فإذا بجابى وتونى يقفان وراءها فأجابت « منى » :
— لأننا سنذهب إلى بريانسون .
وصاحت جابى فى فرحة ودهشة :
— حقيقة ؟!

— أجل لقد دعانا أحد أقرباء عمى جانيت .. وسنذهب لقضاء بضعة أيام .
وصاح تونى :
— هائلة .

ونظرت « منى » متسائلة :
— ما هى !؟

— سنسافر سوياً .. لقد اقترح أبى علينا أن نذهب معه . فلم نتحمس كثيراً لاقتراحه .. فإذا كنتا مسافرتين حقاً .. فسنصر على الذهاب معه .
وقالت « جابى » فى فرح :

— ستكون رحلة مدهشة .. هل سبق لك الذهاب إلى هناك يا نادية !؟
وهزت « نادية » رأسها بالنفى ، وعادت « جابى » تقول فى حماس :

— إنها مكان مدهش .. إنها أعلى قمة في هذه المنطقة كلها والطريق إليها في منتهى الجمال .

وتساءل تونى :

— هل تسافران معنا !؟

وأجابت « منى » :

— إذا كان لديكم مكان لعمتى جانيت .. فسنسافر طبعاً .

وسألت جابى :

— وماما ؟ ..

— ستبقى مع جدتى .

وهز تونى رأسه .. وقال :

— سنسافر كلنا معاً .. سنأخذ عربة « رالى » .. إنها لا شك سترحب

بالجىء معنا .

وفي صبيحة اليوم التالى ، وقبل أن ترسل الشمس أشعتها من وراء الأفق .. كانت العربتان تتحركان من « جاب » فى الطريق الصاعد إلى « بريانسون » ، وكان الكبار. قد تجمعوا فى عربة ، وضمت العربة الأخرى نادية ، ومنى ، وتونى ، وجابى ، وبقية الشلة وقد تعالى ضجيجهم وغناؤهم .

وكانت الفرحة تبدو فى وجوه الجميع .. والمرح يتوالت فى قسامتهم .. وكانت المناظر الرائعة تتراعى على جانبي الطريق .. وندى الصباح يتلألأ على صفحات الأوراق الخضرة الناضرة المتهدلة على جوانبه .. وكانت مساقط المياه تتدفق منحدره فى صخب عنيف أحياناً .. وفى خريف ناعم أحياناً أخرى .

وفى الوديان البعيدة تبدو الغدران وقد تجمعت فيها مياه المساقط .. وأخذت تتدفق بين الصخور والأعشاب .. تلتقى حيناً فى أنهر عريضة وتفرق حيناً فى جداول ضحلة كالشرايين الرفيعة .. والكبارى تبدو معلقة بين أطراف الجبال كأنها الأرجوحات تهتز فى مهب النسيم .

وأشعة الشمس تتسلل حمراء قانية لتصبغ كل هذا .. بلون الأرجوان ،
وتبدى الكون في روعة مذهلة .

و « نادية » .. تشارك في الضحك ، وأسنانها البيض المنظمة تلمع بين آونة
وأخرى في انفراجة شفيتها .

وهي تحس بالجمال الرائع من حولها .

وتحس بالنشوة والفرحة التي تغمر الرفاق الضاحكين من حولها .

ولكنها مع كل هذا الضوء المحيط بها تحس بشيء قائم في باطنها .

ولم يكن هذا الشيء القائم الكامن في باطنها .. بالشيء الجديد عليها .. فقد

كان يرسب دائماً في أعماقها .. ولكن إحساسها به قد زاد وهي تحس بالعربة

تحملها بعيداً عن « جاب » . عن البلدة التي طافت بكل قمة من قممها وذراعها

في ذراعها .. والتي جلست وإياه على شاطئ بحيرتها .. واصطلت وإياه بنار

مدفقتها .. والتي تحس بعد كل هذا .. أنه سيحل بها ، ويطوف بربوعها .

وكانت بنفسها حيرة وقلق .

لماذا تطمع في لقائه .. وهي قد وطنت نفسها على عدم اللقاء !! على البعد ..

والأوهام والأحلام !

أليس من الخير أن تجنب نفسها هذه التجربة التي قد تطيح بكل أحلامها

وأوهامها ؟

وهمت بأن تستمر في دورة تفكيرها وحيرتها وتساؤلها عندما أحست بأصبعي

« منى » تجذبانها من أرنية أنفها وتصيح بها ضاحكة :

— هاى .. نحن هنا .. في الطريق إلى بريانسون .. في الطريق إلى أعلى قمم

الألب .. في الطريق .. إلى الله .

ورفعت « منى » ذراعها إلى أعلى في طريقة تمثيلية وهتفت :

— إني صاعدة إلى الله .

وأحست « نادية » بانقباض من قول منى وهتفت بها :

— لماذا تقولين هذا الكلام السخيف؟! تفى من بقلك .

وتساءلت « منى » ضاحكة :

— سبع تفات ؟

— أجل .

— على وجهك ؟

— على وجهى .. على وجهى .. تفى قلت لك .

وأصدرت « منى » من شفيتها أصوات تف سبع مرات .

ثم هزت رأسها ضاحكة :

— لن تتقدمى أبداً .. ستظلين هكذا كالولايا .. أفى قمم الألب تقولين لى

تفى من بقلك؟!!

— لا تعودى إلى السخافات التى تقولينها .

— أتظنين السبع تفات ستقنينى من الموت ، وتمنعنى من الصعود إلى الله؟!!

— قلت لك لا تكرررى هذه السخافات إنى أتشاءم منها .

— انتهيئا .. اضحكى .. إياك أن تسرحى .. وإلا عاودت الصعود إلى الله .

وصاح تونى بالأختين وقد ملّ حديثهما بالعربية :

— أيتها البربريتان .. كفا عن الرطانة بهذه اللغة .. وخيرانى ماذا تقولان ..

أتأمران علينا؟! .. ماذا تريدان بعد أن أخذتما قناة السويس .. وصفعتنى إحداكما

قلماً .. كأنما نحن الذين لطمشنا القناة .

وصاحت به « منى » :

— يبدو أنك تريد قلماً منى هذه المرة .. أحذرك من أن تعودى إلى تسمية التأميم

باللطف .

— تأميم-.. لطف .. لن أعود إلى ذكر القناة بعد هذا . على ألا تتكلما

بالعربية .

واندمجت الأختان فى الحديث والغناء مع « الشلة » .. حتى وصلت العربتان

أخيراً إلى مدنخل بريانسون .

وأخذت جانيت تقودهم في طريقها حتى وصلوا إلى بيت العم ريمون .. وبدا المسكن أقرب إلى الكوخ منه إلى المنزل .. بجدرانه الخشبية القديمة .. وسقفه المائل .. وشرفته العريضة المطلّة على البحيرة .

ولم يكده العجوز صاحب البيت يتحقق من زوّاره حتى هتف في حماس :

— أخيراً جئت بقريباتك المصريات ؟

واندفع إلى الجمع مرحباً .. وهبطت نادية ومنى وجانيت من العربة .. ولحقت عربة توني بالعربة الأخرى متجهين إلى فندق قريب من البيت بعد أن اتفقوا على موعد اللقاء .

ووقفت « منى » ترقب المنظر من حولها مأخوذة بروعته ، ولحمت قارباً على شاطئ البحيرة فهتفت في سعادة :

— مدهش .. كل شيء كما أحب .. سأجذف .. وأعموم ، وأتسلق الجبل ... وهذه دراجة .. بجوار البيت .. سأركبها أياً كان صاحبها .. ماذا بقى بعد ذلك !؟

ونظرت إليها « نادية » وهزت رأسها وأجابت في سخرية :

— بقى أن ترقدى صريعة ، بعد أن تفعل كل هذا الجنون .

وقلبت « منى » شفها السفلى وقالت مقلدة نادية :

— ما هذا الكلام السخيف .. تفى من بقك سنع تفات .

وأسرعت « نادية » تنفذ الأوامر وقد بدا عليها الندم على ما قالته ..

وأمسكت بذراع « منى » وقالت محذرة :

— اسمعى .. إياك أن تفقدى عقلك وتدورى كالمطيورة . لتفعل كل هذه

السخافات التي قلتها !؟

— ماذا أفعل إذن !؟

— افعلى كما سأفعل .

- أجلس لأسرح في جزّار الدمرداش!؟
— أنا لا أسرح في أحد .
- لا تغضبى .. أنا التى أسرح .. هل تريدنى أن أجلس أمام البيانو لأعزف .. القطعة الجنائزية التى لا تكفين عن عزفها!؟
— اسمعى يا منى يا حبيبتى .. أنا لا أطلب منك سوى أن تكونى عاقلة .. لا تنطلقى كالمطيورة .. حتى تخزى من فرط التعب .
— لك علىّ هذا .
- وكان العجوز ريمون قد انهمك فى الحديث مع جانيت ونظرت إليهما « منى » وقالت فى صوت خافت :
— أقسم لك .. أن جانيت ستكون الزوجة الرابعة للعم ريمون بعد وفاة العمّة سارة .
- وقبل أن تدخل الأختان الكوخ .. وثبت « منى » على الدراجة واندفعت تعدو بها على شاطئ البحريرة .

(٣٩)

لو ينسانا ...

عادت «منى» إلى الكوخ بعد جولتها بالدراجة .. وأخذ تقفز درجاته الخشبية .. في خفة ومرح ، وانطلقت تتجول في حجراته ، وهي تصفر بفمها ، وهتف العجوز ريمون ضاحكا :

— لعل كوئنا المتواضع قد أعجبك أيتها المصرية الجميلة ؟
— أعجبنى فقط ؟ إنه رائع .

وكان الكوخ رائعا حقا .. بقاعته الرحبة ذات المدفأة الضخمة التي علق في صدرها رأس حيوان بقرونه الملتفة ، وعلق على جدرانها صور زيتية لرجال بأزياء رسمية .. وشوارب مبرومة ، ونساء كشيفات الحواجب واسعات الأفواه قد فرقن شعورهن من منتصف الرأس وتدلّت ضفائرهن على الأكتاف ، وصور أخرى لمناظر صيد ومناظر طبيعية للجبال والبحيرات .. ومجموعة من السيوف والبنادق احتلت بقية الأماكن الخالية من الجدران .

كانت حجرات الكوخ تحيط بالقاعة ، وكانت «نادية» قد استقرت في إحداها تمارس عمليتها المعتادة في نقل الملابس من الحقائب إلى الدولاب . ونظرت إليها «منى» وهتفت :

— إن المكان مدهش .. لقد قمت بجولة سريعة بالدراجة ، على شاطئ البحر ، وفي الشوارع المحيطة بنا .. ألا تنوين الخروج ؟!
ونظرت إليها «نادية» في غيظ وتساءلت :

— وهذه الملابس المقدسة في الحقائب .. من الذى سيعلقها ؟ .. خدامين

أبونا !

— يا ستي .. عندما نعود يجلها ربنا .
وانحنت فوق حقيبتها وأخذت تبحث بين الملابس المطبقة حتى أخرجت
شورتاً كحلياً سرعان ما دست فيه ساقها ووقفت تتلفت حولها متسائلة :
— ألا توجد هنا مرآة ؟!

ثم وقع بصرها من فتحة الباب على العجوز ريمون وقد بدا وجهه كواد مليء
بالأخاديد ، وقد جلس على مقعد أمام المدفأة يملأ غليونه بالتبغ ، وأردفت
« منى » تقول :

— من مصلحة سكان البيت ألا يكون به مرايا .. حتى لا يروا أنفسهم .
ومدت « نادية » يدها وفتحت ضلفة الدولاب فبدت مرآة في داخله ،
وقالت لمنى :

— إنهم يرون أنفسهم سراً ..
ووقفت « منى » تصلح « الشورت » والقميص أمام المرآة ..
ومدت إحدى ساقيها متخذة وضعا استعراضياً وأطلقت بغمها صفير
إعجاب ، وقالت مازحة :

— يا سلام عليك يا منى .. زى اللوز .
وهمت بالخروج ، وهي تتحرك على أطراف أصابعها كما تتحرك راقصات
الباليه ، وتساءلت « نادية » ، وهي تعلق أحد الفساتين على الشماعة :

— إلى أين ؟!
وفتحت « منى » ذراعها ، وأخذت زفيراً طويلاً ، وقالت في لهجة ملؤها
الجدل والابتهاج :

— إلى الدنيا .. إلى الحياة الحلوة .
وأجابت « نادية » ، وهي تهز رأسها في استخفاف :
— ألا تعقلين ؟ ..

— ألا تعقلين أنت ! .. إنك تضيعين نصف عمرك في تطبيق الملابس

- وتعليقها ، والنصف الآخر .. فى نزهاى على الورق .. وجولات فى الرسائل .
ولم تجب « نادىة » بل استمرت فى تنظيف الدولاب وتعليق الملابس به ..
وعادت « منى » تتساءل قبل أن تغادر الحجره :
— ألا تأتىن معى للتجديف فى البحيرة ؟!
والتفت إليها « نادىة » وقالت مستنكرة :
— أتنبوين التجديف ؟!
وهزت « منى » رأسها قائلة :
— أجل . مالك تقولينها باستنكار كأنى سأرتكب منكراً !
— ألم تقل لك ماما ألا تجهدى نفسك ؟!
— ومن قال لى سأجهد نفسى .. لى سأجدف .. بلا أى إجهاد .
— هكذا ؟!
'— أجل هكذا .. سأضرب بالمجدافين بمنتهى الخفة .: وبلا أى جهد .
وأطلقت « نادىة » زفرة غيظ ، وقالت راجية :
— يا منى يا حبيبتى .. اعقلى ودعى الرحلة تمر على خير .
وهتفت « منى » محذرة :
— اسمعى يا نادىة .. أرجوك أن تكفى عن اتخاذ موضع الأم منى .. إنك
لست أكبر منى ، وأنا أعرف كيف ...
وقاطعتها « نادىة » فى ضيق :
— انقلقى .. افعلى ما تشائين .. أنت لست صغيرة .
وانطلقت « منى » من الحجره .. وعند عبورها القاعة .. سألتها جانبىة :
— لى أين ؟!
— لى البحيرة .
— ألا تنتظرين حتى تأتى مدام ريمون ؟!
— وأين هى ؟!

وأجاب العجوز ريمون :

— ذهبت إلى السوق .. إنها ستسر جداً بقدمك .. لقد ضقنا بالوحدة ذرعاً .

— سأعود بسرعة . إني سأخرج بالقارب في جولة قصيرة .

وتساءل العجوز :

— هل تستطيعين استعماله ؟

— وهل استعماله مشكلة ؟

— أبداً .. إنه خفيف جداً . وليس عليك إلا أن تفكي الوثاق الذي يشده إلى الشاطئ .. وتضربي بالمجدافين .

ولوّحت « منى » بيدها .. ثم انطلقت تعدو إلى الخارج .

وكان القارب قد ربط في جذع إحدى الشجيرات المتكاثفة على الشاطئ ، ولم يصعب على « منى » فك الوثاق .. وقفزت إلى القارب في خفة .. واتخذت مكانها على العارضة وأمسكت بالمجدافين ، ولم تكد تضرب بهما أول ضربة على سطح البحيرة حتى سمعت هتافاً يصيح بها :

— منى .

وانفتحت لتجد جاني وتوني ينحدران من ربوة تشرف على البحيرة بجوار الكوخ .. وقد أخذوا يلوّحان لها .

وانتظرت « منى » حتى وصلا إلى شاطئ البحيرة .. وهتفت بها جاني

متسائلة :

— إلى أين ؟!

— جولة بالبحيرة .

— وحدك .. يا خائنة !

— وحدي لأنني لم أجد من يأتي معي .. إن « نادية » منهمكة في ترتيب

الملابس وتنظيف الدواليب .

— لماذا لم تنتظرينا؟! —

— ظننتكما ستأخران .

واقتربت « منى » بالقارب من الشاطئء وأردفت قائلة :

— هيا بنا .. اهبطا .

وقفز الاثنان إلى القارب .. وكادتوا زنه يختل ، ومضت برهة ، وهو يتأرجح ويهتز حتى عاد إلى ثباته .. وقبل أن ترفع « منى » المجدافين لتضرب بهما الماء سمع صوت آخر يهتف ، وظهرت « سالى » تهبط من نفس الربوة وتشير إليهم بالانتظار . وقالت منى :

— إن القارب لن يسع أكثر من هذا .. قل لها يا تونى أن تنتظر حتى تعود .. ونستطيع أن نخرج بها فى جولة أخرى .

ووضع تونى كفيه حول شفثيه كاللبوق وصاح بسالى :

— سنعود حالا .. القارب لا يتسع لأكثر من هذا .. سأأخذك أنت ونادية فى جولة أخرى .

وضربت « منى » سطح الماء بالمجدافين فتطاير الرذاذ .. وأصاب بعضه تونى فصاح بمنى ، وهو يقف نصف وقفة :

— ناولينى المجدافين سأجذف أنا :

وصاحت به « منى » أمرة :

— اجلس مكانك .. أنا التى سأجذف .. ماذا تظننى ؟ غشيمة !.

وعادت « منى » تضرب سطح الماء بالمجدافين ، وفى كل مرة يتعالى الرذاذ فيصيب الراكبين ، ويحاول تونى أن يأخذ المجدافين فتهدهه قائلة :

— اجلس مكانك والاقبى بك القارب .

واستمر القارب .. يجرى على سطح البحيرة ، واستمرت ذراعا « منى » فى حركتهما الدائرية بالمجدافين .. وأخذ صدرها يعلو ويهبط وبدأت أنفاسها

تتلاحق .

وقالت لها جابى متسائلة :

— هل تعبت يا منى ؟!

وأجابت « منى » بين أنفاسها المتلاحقة فى إصرار وعناد :

— ليس بعد .

وبعد فترة نظرت جابى إلى الساعة ، وقالت لمنى :

— أظن الوقت قد حان لنعود .

وكانت « منى » قد أحست بالتعب فعلا .. فقد أخذت عضلات ذراعيها فى

التصلب وازداد تلاحق أنفاسها

واقترب القارب مرة أخرى من الشاطئ حتى توقف عند مرسى بجوار

الشجرة ، وتركت « منى » المجدافين وأخذت شهيقاً طويلاً ثم أطلقت زفرة

أطول .. ومدت ذراعيها تحركهما حتى تزيل عنهما تصلب عضلاتهما ثم قفزت

من القارب فى خفة وتبعثها جابى ، ووقف تونى فى القارب ينفذ عن ثيابه الرذاذ

الذى علاها من ضربات المجداف .

وقالت « منى » فى تفاخر :

— ما رأيك فى تجديفى ؟!

وأجاب تونى ساخراً :

— ممتاز .. ممتاز .. جعلنى أستحم وأنا فى القارب . ونظرت إليه « منى »

وتساءلت :

— هكذا !

وبسرعة مدت قدميها ثم ضغطت بها على حرف القارب .. واهتز القارب ،

وأحس تونى بأن توازنه قد اختل فجأة .. وحاول أن يميل ليحفظ توازنه ..

ولكن الدفعة كانت مفاجئة .. ولم يجد هناك ما يتعلق به .. ووجد نفسه مضطراً

إلى أن يقفز فى الماء .

وصاحت « منى » ضاحكة وهي تفر هاربة :
— تستطيع الآن أن تستحم في البحيرة .. ما دام الاستحمام في القارب لا
يعجبك

وخرج تونى من البحيرة وقد أغرق بنظونه بالماء .. وانطلق يعدو في أثر
« منى » .. وجرت جابى تتبعهما ضاحكة .
واندفعت « منى » تسلق الربوة .. وانطلقت تعدو بين الدروب المتلوية التي
تتخلل الشجيرات والأحراش .

وطال بها العدو حتى أحست بأنفاسها تتلاحق في شدة وقلها يدق في
عنف .. وفجأة أحست بأن شيئاً يخز صدرها وأصابها دوار جعل الأرض تميد
بها .. والمرئيات تحتلط في ناظرها .

وتوقفت « منى » مكانها .. ومدت يدها تلمس شيئاً تستند إليه وقد
أحست أن ساقها لم تعودا تقويان على حملها .

ومرة أخرى عاد الشيء يخزها في صدرها وأحست بصدرها يتمزق .. و
« بأكلان » يدفعها إلى السعال .. وسعلت بضع سعلات قصيرة جافة .

ووصل إليها تونى ومد يده فأمسك ذراعها وبدأ يلويها ولكنه لم يكد يشد
عليها حتى وجدها تهاوى بين يديه .. ونظر إلى وجهها فإذا به قد علتة صفرة
شديدة .. فخر بجوارها وهتف في جزع :

— منى !! مالك !؟

وكانت « جابى » قد وصلت إلى مكانهما وخيل إليها أن تونى قد أوقع
« منى » على الأرض فصاحت به ناهرة :

— اتركها ياتونى . إياك أن تفعل بها شيئاً .

ونظر تونى إلى أخوته وقد فغرفاه وملأ الجزع ملامحه .. وهتف في ذعر :

— أنا لم أقرها .. أنا لم أفعل بها أى شيء ، إنها هى التى وقفت مكانها ..
واستندت إلى الشجرة .. ولم أكد أمسك يدها حتى تهاوت على الأرض .

ونظرت « جاني » إلى « منى » فوجدتها قد أسندت كتفها اليمنى إلى جذع الشجرة ومالت برأسها عليه وقد أغمضت عينيها وبدا على ملامحها إعياء شديد .. ووضعت يدها اليسرى بالمنديل على فمها .. وقد أخذ جسدها يهتر من السعال القصار التي يكتبها المنديل الملصق بكفها على شفتيها .
وركعت « جاني » بجوارها ومدت كفيها لتحسس جبينها وهمست بها في رفق :

— مالك يا منى !؟

وهزت « منى » رأسها هزات خفيفة .. كأنما تحاول أن تنفي أن بها ألماً .
وعاد الشيء الذي يمزق صدرها .
وازدادت السعال شدة .

ولم تقو يدها بالمنديل على كبت السعال .. فانطلقت إحداها .. لتفرق المنديل دما .

وبدا الروع على وجه « جاني » .. وهتفت بمنى :

— منى .. لا بد أن نعود إلى البيت .. لقد جرح زورك .
وفتحت « منى » عينيها في إعياء ونظرت إلى المنديل وأحست كأن قواها تتسرب منها كما يتسرب الماء من بين الأصابع وقالت في لهجة ملؤها الاستسلام :
— إنه ليس زورى .. إنه صدرى . إنى أحس به يتمزق .

وهزت « جاني » رأسها وهي تنفي في جزع :

— لا .. لا .. لا تقولى هذا .. لقد أجهدك العدو .. وجرح الصياح زورك .

والتفتت إلى « تونى » الذى بدا عليه الذهول وقالت :

— هيا يا تونى .. لا بد أن نعود بها إلى البيت .. إنها تحتاج لبضع ساعات راحة .

وأمن « تونى » على قولها :

— أجل .. إنها لم تسترح منذ أن غادرنا « جاب » .
ومد « توفى » يديه محاولاً رفع « منى » ولكنها هزت رأسها قائلة :
— إني سأسير بينكما ، وأتكىء على كتفيكما .. إني أحس بأني قد تماكنت
قواى .

ومد « توفى وجابى » ذراعيهما وساعداها على النهوض .. واتكأت بذراعيها على
كتفيهما وهى تحاول التماسك .. وسارابها برهة حتى اقتربا من الكوخ .
ومرة أخرى .. أحسنت بالدوار يعاودها .. وبقواها تتسرب منها .. وكأن
شيئاً يجذبها إلى أسفل .. وعادت السعلات المتقطعة تمزق صدرها .. وأخذ
جسدها يتراخى ، وكادت تنهاوى إلى الأرض .. فأسرع « توفى » إلى رفعها بين
ذراعيه .. وحث الخطا تجاه الكوخ .

وعدت « جابى » أمامه تفتح له الباب وتفسح له الطريق .
وكانت « نادية » قد وقفت فى القاعة لتلقى ترحيب العجوز البدينة زوجة
ريمون بعد أن عادت من السوق .. وتجيّب على سؤالها عن « منى » بأنها قد
خرجت للتجديف فى البحيرة .. وأنها لا بد أن تكون فى طريقها إلى البيت .
ولم تكذب « نادية » تنتهى من قولها حتى فوجئت باندفاع جابى .. وقد بدا على
وجهها أمارات الجزع .

وقبل أن تستفسر « نادية » عما بها .. فوجئت بتوفى يجتاز الباب حاملاً
« منى » بين يديه وقد تدلى رأسها وبدا وجهها فى اصفراره المروع .
وصرخت « نادية » واندفعت إلى أختها صائحة :

— منى !! حبیبتى منى .. مالك يا منى !؟

وسار توفى فى خطاه المتثاقلة حتى وضع حمله على أقرب فراش .
وأجابته « جابى » محاولة أن تطمئن نادية :

— لا تخافى يا نادية .. لقد أجهدتها العدو .. إنه مجرد إجهاد .. لا تجزعى
هكذا .. إنها ..

وقبل أن تكمل « جالى » كلامها .. لمحت « نادية » .. بقعة دم على صدر « منى » فانطلقت منها صرخة حادة ، واندفعت تضمها إلى صدرها .. وتقبلها فى لطفة وجزع وتبلل وجهها بالدموع المنهمرة من مقلتيها ، وهتفت فى صوت متشنج باك :

— يا حبيتى يا منى .

وفتحت « منى » عينها وحاولت جهدها أن تتماسك .. ورسمت ابتسامة باهتة على شفتيها وأجابت :

— لا تخافى يا نادية .. ليس بى شىء .. إنه مجرد إجهاد . لقد عدوت كثيراً . وخرت « نادية » على ركبتيها بجوار الفراش ، واستمرت تضم « منى » إليها وتقبلها ، ودموعها لا تكف عن الانهمار ، وهى تتساءل فى صوتها الباكى الأليم :

— يا منى لِمَ فعلت هذا ؟! لماذا لم تسمعى كلامى يا حبيتى !

ثم وضعت رأسها فى كفيها وازداد نحيبها .. وقالت وهى تهز رأسها فى يأس :

— أنا السبب فى كل هذا .. كان يجب ألا أتركك تخرجين .. بل كان يجب ألا أوافقك على المجيء إلى هنا .

وكانت « منى » قد بدأت تستعيد قواها فمدت يدها لتحسس رأس « نادية » وتقول لها :

— لِمَ كل هذا يا نادية ؟! قلت لك إنى بخير .. وبعد أن أسترخ برهة .. سأعود كما كنت .

ونظرت « نادية » إلى بقعة الدم على صدرها ثم عضت شفتيها حتى كادت تدميها ، واندفعت فى بكائها .

واقتربت جانيت من نادية ، ومدت يدها ترفعها وتقول لها فى لهجة ناهرة :

— نادية .. ما هذا الذى تفعلين ؟! إن أختك بخير .. كفى عن هذا البكاء الأحمق .. يجب أن تكونى أكثر تجلداً . ما هكذا يفعل العقلاء ؟

وحاولت « نادية » أن تكبت بكاءها .. ورفعت يدها تكفكف دمعها وتمسح عينها ، وقالت وهى تزدرد ريقها :
— أنا متأسفة .. أنا فقط .. أنا .. أنا أعلم أنها بخير أجل إنها بخير .. ولكنى أخشى عليها .. أخاف ...

وأقبل العجوز ريمون .. يربت ظهرها قائلاً :
— لا تخافى يا بنتى .. لقد أرسلت فى استدعاء الطبيب وسيصبح كل شىء على خير ما يرام .. تقى بالله يا بنتى .. إنها لا تحتاج إلى أكثر من الراحة .
وأحست « نادية » بشىء من السكينة ، وهى ترى « منى » تستعيد قواها شيئاً فشيئاً ، واستطاعت « منى » بقدرتها على المرح وبالأمل الزاخر الذى يقبض بنفسها ، أن تمنحها بعض الطمأنينة .

وحضر الطبيب .. ولم يغير حضوره من الأمر الواقع شيئاً .. إذ لم يكن هو نفسه .. بهيكله العجوز المتداعى .. وسمعه الأسم ، ويده المرتجفة .. يمنح فى النفس أى إحساس بالثقة .. وكان كل ما فعله هو أن نصح بأن تنقل إلى المستشفى وتعرض على أخصائى فى أمراض الصدر .

وعاود اليأس « نادية » .. بمجرد أن انصرف الطبيب .. وملاً نفسها حزن قائم مقبض .. ولكنها كرهت أن تستلم للانفعال .. وأن تندفع مرة أخرى فى بكاء متشنج لا يجدى نفعاً .. وأحست أنها يجب أن تقاوم وتتجلد لأن عليها أن تتصرف بطريقة ما .

وتملكها الخوف وهى تجد نفسها وحيدة بعيدة عن أمها وعن بيتها .
وكانت « منى » ترقد فى فراشها .. وقد ذهبت عنها الآلام وانقطع السعال .
وبدا عليها الهدوء والاستسلام .

وكان الجمع قد وقف فى القاعة يتدبر الأمر فى مناقشة تشبه التهامس .
وكان المسيو « كيلي » والدجانبى وتونى ، قد وصل عندما أبلغه تونى النبأ وجلس مطرقاً فى حزن .

وقال العجوز ريمون وهو ينفض غليونه على حرف المدفأة :
— إن أقرب مستشفى نستطيع أن نجد فيه أخصائياً .. يبعد عن هنا مسافة ساعة على الأقل .

وقال « كيلى » وهو ينظر تجاه الحجرة التى رقدت فيها « منى » :
— ساعة أو أكثر .. لا بد أن نقلها .

وتساءلت مدام ريمون :

— ولكن هل نستطيع نقلها الآن ؟

وقالت جانيت :

— لماذا لا نسأل الطبيب ؟!

— وقال « تونى » وهو ينفخ بأنفه ساخراً :

— أى طبيب ؟! إنه يكاد يعيش .

وهز كيلى رأسه .. وقال فى حزم :

— رأى أنا أن نقلها حالاً .

وعقب تونى على قوله :

— والعربة موجودة على الباب .

وهزت العجوز مدام ريمون رأسها قائلة :

— اتركوها تستريح .. وستقوم مرة أخرى كالحصان .. لتلهو وتلعب .

ورفع زوجها حاجبيه وعقب ساخراً :

— وتسقط مرة أخرى ؟

ونفض « كيلى » وهو يقول :

— إذا كانت حالتها تحتل الانتقال فنسئنها .. وإذا لم تكن ، فلننتظر حتى

تتحسن حالها ثم نقلها .

وأطرت جانى وتساءلت :

— وإذا لم تتحسن ؟ أعنى .. إذا لا قدر الله حدثت مضاعفات جديدة ؟

ورفع العجوز ريمون كفيه قائلا :

— يدبر الله أمرها .

وأقبلت « نادية » من حجرة « منى » وكأنها تحمل عبئا أنقض ظهرها ..
وقد بدت علامات اليأس والذهول في وجهها .. وكانت قد سمعت الطرف
الأخير من المناقشة .

وسألتها جانيت :

— ما رأيك يا نادية ؟

وأجابت « نادية » في شرود :

— في أى شيء ؟!

— لقد اتفقنا أن ننقل « منى » إلى المستشفى بمجرد أن تحتمل ذلك .

وعقب توفى قائلا :

— إن المستشفى يبعد عن هنا حوالى ساعة .

ورفعت « نادية » حاجبيها وتساءلت :

— ولماذا لا ننقلها إلى جاب ؟!

وتساءل العجوز ريمون في دهشة :

— جاب ؟

— أجل .. إن الذى يجعلها تحتمل الانتقال ساعة .. يجعلها تحتمله ساعة

ونصف الساعة .

— وماذا يوجد في جاب ولا يوجد هنا ؟

وارتمت « نادية » على أحد المقاعد في إعياء ووضعت رأسها بين كفيها

وأطلقت تنهيدة حملتها كل ما بها من مرارة ويأس وخوف وألم :

— بها يتتنا .. وبها أمتنا .

واختنق صوت « نادية » واهتز جسدها وربت السيدة ريمون ذراعها وهى

تقول في لهجة مشجعة :

— تجلدى يا بنتى .. إن الله لا ينسانا .
وهز العجوز ريمون رأسه وقال كأنما يحدث نفسه :
— تلك هى المشكلة .. لو أنه ينسانا !!
وقال « كيلي » وهو يقترب من نادية ويتحسس رأسها :
— كفى .. كفى يا نادية .
ثم وجه الحديث إلى الجميع قائلاً :
— إن نادية على حق .. عندما تحتمل « منى » الانتقال ، فسنعود بها إلى
جاب .
وقالت جابى فى أمل وحماس :
— إن شاء الله ستبل « منى » .. وستستطيع العودة إلى « جاب » .. ولن
تحتاج أبداً لكى ندخلها المستشفى .. إنها ستستريح وتقوم كالحصان .
وعقب تونى على حديثها قائلاً :
— أجل .. إن ما بها ليس أكثر من التهاب فى الزور .
وقالت العجوز ريمون :
— جائز جداً .. فأنا لا أثق فى هذا الطبيب المخرف . لقد مضى على خمسون عاماً ..
وأنا أشكو له من غثيان يصيبنى .. وهو يؤكد لى أنه غثيان حمل .
وعلت من حجرة « منى » ضحكة عالية .. وأحس الجميع كأن ضحكها
نسمة منعشة .. سرت فى نفوسهم .
ورفعت « نادية » المنديل لتجفف عينيها وهمست وهى تضحك :
— يا حبيبتى يا منى !!

(٤٠)

ليل بلا عويل ...

مرت الليلة الأولى في « بريانسون » دون مزيد من متاعب .. فقد أغفت « منى » في رقدتها المادئة المستسلمة ، وركدت « نادية » على فراش بجوارها ، مسبلة العينين ، مشدودة الأعصاب .. يقظة الذهن .. تتوهم في كل صوت .. صرخة .. وفي كل همسة سعلة أو حشرجة .. لا تكاد « منى » تتقلب أو تتحرك حتى تنهض فزعة بجذعها الأعلى منصتة في توتر .. مرتقبة في خشية وجزع . ولم يكذب يزغ أول شعاع حتى أخذت تفتح الحقائق وتجمع فيها ما رتبته في الأدراج والأرفف .

وفتحت « منى » عينها متسائلة :

— ماذا تفعلين يا نادية ؟

— أحزم الحقائق .

— لِمَه ؟

— لأننا سنعود إلى « جاب » .

— ولكنني قد استرحت ولم يعد لي شيء .

— من أجل هذا سنعود .. سنعود قبل أن يحدث لك شيء .. ونحار فيما

نفعل .

— ولكننا ستلطف رحلتهم جميعاً .. إنني أعدك بألا أجهد نفسي بعد ذلك ،

وأن أظل راقدة في الفراش .. وأن ..

واقتربت « نادية » من فراش « منى » وركعت بجوارها وتمسست وجهها

في رفق وقالت في حزام وإصرار :

— سنعود يا منى .. سنعود هذا الصباح .. أرجوك ألا تعارضيني .. كفى ما حدث لك بالأمس ..

وبعد ساعة كان الراكب يقف أمام الكوخ على أهبة التحرك إلى « جاب » . وكانت « منى » تجلس بجوار « نادية » ، وقد بدا عليها الهزال والاصفرار .. وعلت شفيتها ابتسامة باهتة وهى تلوح للعجوز ريمون وامراته .

ورفع العجوز يده .. وأشار ملوحاً .. وهو يرسم على شفيتها ابتسامة وقال فى مرح مفتعل :

— ستعودين مرة ثانية .

وأجابت « منى » فى ثقة :

— طبعاً سأعود . لقد أحببتكم جداً . أحببت الكوخ والبحيرة .. وكل شىء عندكم .

ورفعت مدام ريمون يدها ملوحة وأخذ الراكب يتحرك وقالت :

— ستعودين قريباً .. لن يحجزوك فى المستشفى طويلاً ، فسيكتشف الأخصائى .. خطأ طبيئنا المخرف .. وسيصرح لك بالعودة حالا .

وهزت العجوز رأسها .. وأردفت ساخرة :

— غثيان حمل .. خمسون سنة وأنا أنتظر !

وضحكت « منى » وأشارت ملوحة للعجوز وهى تقول :

— عندما أعود فى المرة القادمة .. أرجو أن يكون الغثيان قد ذهب .. وأن تكونى قد وضعت طفلاً .

ورفع العجوز ريمون يديه وصاح محتجاً :

— ليس منى .. على أية حال !

وانحدر الراكب فى الطريق المجاور للكوخ .. وبعد بضع دورات .. حول الرابا المجاورة .. اتخذ الطريق الأصيل المتجه إلى « جاب » .

وتحركت العربتان وقد خيم على ركبهما صمت ثقيل .. بعد أن انقشعت

سحابة المرح المفتعل الذى حاول العجوز ان يلفا به مرارة الرحيل .. ووجوم العودة .

وعبثاً حاول الفتية والفتيات .. إزالة سحابة الحزن التى حطت عليهم ..
وعبثاً حاولوا إشاعة المرح .. ومواصلة الحديث .. فقد كانت الكلمات تذوب على شفاههم .. وترتد فى أفواههم .

ولم يملكوا فى النهاية ، إلا الاستسلام للصمت والإغراق فى الشرود .
وكانت « نادية » ترقب وجه « منى » فى قلق وخشية .. وبين آونة وأخرى تسألها فى حنان :

— أتحسين بتعب ؟

وتهمز « منى » رأسها ضاحكة وتقول :

— أنا مستريحة تماماً .. كل ما أرجوه أن تستريحى أنت .

وفى كل منحدر أو حفرة أو منحنى ، تمسك « نادية » بيد « منى » وتهتف بتونى راجية :

— على مهلك يا تونى .. حاسب .

ويهمز تونى رأسه مطيعاً :

— حاضر .. لا تخافى .

وأحست « نادية » بطول الطريق .. كانت تلهف على العودة إلى البيت ..
وكانت تحس أنها ستكون أكثر أمناً على أختها وهى بجوارها .

وأخيراً لاحت « جاب » .. أنبأت عنها ، شجرة السنديانة الضخمة التى تظل محطة سكة الحديد .. والمداخن المرتفعة الصاعدة من الأسقف الحمر المنحدرة .

وتوقفت العربتان فى الطريق الرئيسى « لجاب » .. قرب المعطف المؤدى إلى روميت ، وغادر مسيو كيلى عربته متجهاً إلى منى ونادية وتساءل قائلاً :

— أنتجه إلى المستشفى رأساً .. أم تفضلون العودة إلى المنزل أولاً ؟ .

وهزت « منى » رأسها متسائلة في دهشة :

— المستشفى لماذا؟! لم يعد بى شىء .

ونظر الرجل إلى « نادية » يستطلع رأيها .. وضغطت « نادية » كفيها بين ركبتيها وقد بدا عليها القلق والحيرة .. وأخيراً قالت :

— أظن من الخير أن نعود أولاً إلى المنزل .. حتى لا تصدم أُمى بعودتنا إلى المستشفى مرة واحدة .

وعادت « منى » تهر رأسها وتقول في إصرار :

— لن أذهب إلى المستشفى .. لا على مرة واحدة .. ولا على مرتين .. قلت لكم إنى أحس الآن أنى طيبة .

وربت مسيو كيلى على كفتها قائلاً فى عطف

— طبعاً أنت طيبة .. إنها مسألة طمأنينة فقط .. مجرد كشف أشعة وتحليل .. وسخافات مما يفعلون فى المستشفيات .

ونظر إلى ابنه الجالس على عجلة القيادة يرقبه وقد بدا عليه القلق وقال له :

— هيا ياتونى .

— إلى أين ؟

— إلى المنزل .. لنسلم على مدام لورا .. ثم نذهب إلى المستشفى .

وقالت « منى » فى عناد :

— إلى المنزل فقط ياتونى .. وبعدها يجلها ربنا .. لن أذهب إلى المستشفى إلا

عندما أحس أنى فى حاجة إليها .

ومرة أخرى تحركت العربتان .. صاعدتين المنحدر إلى روميت . واتجهت

إحدهما إلى منزل كيلى .. واتجهت الأخرى بنادية ومنى إلى منزلها .

ووقفت العربة أمام بوابة المنزل .. وانطلق الكلب ينبح ويدور حولها ..

وأطل العجوز بول من كوخه بجوار البوابة وصاح متسائلاً فى دهشة :

— هكذا عدتما بسرعة؟!!

وأحسبت الأم بوقوف العربية .. وسمعت صيحة « بول » المدهوشة ..
فخرجت إلى الشرفة السفلية .. وأبصرت ابنتها تجتازان الباب ، فصاحت
ضاحكة :

— لم يعجبكما الحال بالطبع .. قلت لكما .. إحمداً الله على « جاب » .. لم
تصدقاني .

وأحسبت الأم من طريقة دخول « نادية ومنى » أن في الأمر شيئاً أكثر من مجرد
عدم الإعجاب بريانسون .

لم تكن « منى » تقفز ولا تصيح ، ولا تعدو وراء الكلب ولا تشاكس
العجوز بول .. كانت تسير هادئة .. وقد أمسكت أختها ذراعها .. ولم يبد على
الائنتين .. الملاحم الطلقة .. المرحة .. الهيجة .. كان ثمة شيء عجيب .. يحيط
بهما .

ثم .. ما هذا الاصرار بوجه « منى » ؟
. وأحسبت الأم بشيء يفرى أمعاءها .. واستندت على سور الشرفة وهتفت
متسائلة في خشية :

— ماذا بكما ؟

وكانت الأختان قد وصلتا إلى الشرفة .

وابتسمت « منى » وقالت ضاحكة :

— لا شيء .. لقد مللنا بريانسون .. واشتقنا إليك .

ونظرت الأم إلى « نادية » وعادت تتساءل :

— ماذا حدث يا نادية ؟!

زهزت « نادية » رأسها وقالت في شيء من الاستخفاف :

— أبدأ .. لقد تعبت « منى » .

وقاطعتها الأم متسائلة في حدة :

— تعبت ! كيف ؟

وهزت « نادية » رأسها في ضيق وقالت :

— تعبت كما يتعب الناس .

وأردفت « منى » :

— يا ماما لم يحدث شيء .. ألا ترىني أمامك ، كالجن ، لماذا تنزعجين !؟

لقد ...

ولم تستطع « منى » أن تتم قولها .. فقد شعرت فجأة بالرغبة في السعال ، وحاولت جهودها أن تكبته .. واستحثت الخطأ تحاول الصعود إلى غرفتها .. ولكنها لم تكذب قدمها على أول درجة حتى أصابها الدوار وأحسست كأن يدا تعتصر قواها لتجذبها إلى أسفل .. واتكأت على درابزين الدرج .

واندفعت « نادية » إليها صائحة :

— منى !! ما بك !؟

وقبل أن تصل إليها .. عاودها السعال الممزق .. ولم تجد من قواها المتسربة ما يعاونها على كبته . فانطلق من شفيتها .

سعلة جافة !!

ثم سعلة أخرى .

ثم ثالثة .. تحمل معها .. سيلاً من الدماء !!

وصرخت الأم ، واندفعت إلى « منى » لتضمها إلى صدرها .

وتهاوت « منى » على درجة السلم .. وأسندت رأسها على درجة أخرى ، ونزيف الدم يتسرب من شفيتها .

وتهاوت « نادية » بجوار أختها على الدرج .

ومدت يداً مرتجفة لا تعرف ما تفعل ، وأحسست بشيء من الدهول أمام الدماء المتدفقة التي أغرقت الدرج .

وهمست في أنين متحشرج منادية :

— منى !! منى !.

واندفعت جانيت من الباب على أثر الصيحة واندفع وراءها جاني وتوني ،
وخرجت الجدة العجوز تستند مذعورة إلى ضلفة الباب .

ومضت لحظة ذهول .. لم يسمع فيها سوى نسيج وبكاء .. واندفع توني
يعدو إلى الخارج صائحاً :

— سأذهب وأحضر عربة المستشفى .

واقتربت جانيت من « منى » ورفعتها من الدرج فأسندتها فوق الأريكة ..
وأحست بها تتهاوى في يديها كالخرقة البالية ، لا مقاومة ولا جهد .. وبدأ وجهها
كالبفتة البيضاء ، ونبضها لا يكاد يحس .

وظلت الأم منهارة على الدرج وقد أصابها نوبة من التشنج والأنين ..
والهتاف باسم « منى » .. هتافاً يمزق القلوب .. وتهاوت الجدة على أقرب مقعد
وقد أخفت وجهها المجدد بكفيها وأخذت تتمم بكلمات خافتة .

وبعد دقائق ، وقفت عربة المستشفى أمام المنزل ، وهبطت منها ممرضتان
بلباسهما الأبيض وصلبيهما الأحمر .

وبعد دقائق أخرى .. كان البيت قد سادته صمت القبور وخلا من كل من
يه .. إلا العجوز المتهاوية على مقعدها ، مخفية وجهها بكفيها كأنما تحجب عنه
شراً .. وتحاول دفعه بدعواتها المهمة .

وكان الكل قد انطلقوا في إثر العربة البيضاء .. حتى الكلب النابح .. لم يكف
عن عدوه حتى وقف معها أمام باب المستشفى .

واستقر الجميع في حجرة الاستقبال ، وتشاغلت جانيت في العناية بالأم
المتشنجة الباكية .. وأصرت « نادية » على ألا تترك « منى » .. ودخلت معها
في حجرتها .. واندست بين الأطباء والممرضات .

وكانت « نادية » تحس بأن أعصابها قد شددت ، وأن مشاعرها قد جمدت ..
ولم تعد لديها القدرة على الإحساس بأى شيء .. لا ألم ولا حزن ، ولا قلق ولا
ضيق ، وباتت كأنها تتحرك في ضوء ساطع قد سلط على عينيها .. فهي لا ترى

غير الفراغ .

وكانت « منى » .. قد أخذت تفيق . وفتحت جفניה في تناقل .. ولم نستطع أن تميز شيئاً من الأشباح البيض الملتفة حولها ، وأمسكت « نادية » يدها وضغطت عليها وهفت بها :

— منى .. حبيبتي .. أنا نادية .

وبللت « منى » شفيتها بلسانها وحاولت الكلام ، ثم عادت فأطبقتها .. وهمت « نادية » أن تقول لها شيئاً عندما سمعت الطيب يسألها :

— أأستطيعين أن تقدرى الكمية التي نزفتها ؟

وأحست « نادية » بمرارة في حلقها .

لقد نزفت كثيراً .

نزفت ما أغرق الدرج .

نزفت ما جعلها تحس أن وعاء من الدم قد سكب .

ولكن أئى لها أن تقدر كمية النزيف !!

وعاد الطيب يسأل في رفق :

— بالتقريب .. كم لتراً ؟!

كم لتراً ؟! إنها لا تعرف اللتر .

وهيما عرفت .. هل ستستطيع تقدير النزيف .. هل تتصور أن تضع دم

« منى » العزيز في أناء لتعرف .. كم لتراً !

واندفعت تنشج باكية .. وهي تتمتم في نحيبها :

— لا أعرف .. لا أعرف .

وربت الطيب ظهرها برفق :

— لا تنزعجى .. أنا متأسف .

وصمت برهة وهو يرقب دموعها المنسابة على خدها .

وعاد يسألها راجياً :

— لماذا لا تذهبين ، لكي تستريحى فى غرفة الانتظار ؟!

وهزت « نادية » رأسها .. وأجابت فى إصرار :

— لا .. لا . لن أتركها .. أبداً .. إننا لم نفترق لحظة واحدة .

وأجس الطبيب بأنه يحتاج لشيء من الجهد كى يقاوم الدموع التى تتصاعد إلى مقلتيه ، ومد يده وشد على ذراعها مشجعاً وهو يقول :

— إذا أبقى إلى جوارها ، سنبذل كل ما فى وسعنا .

ثم التفت الطبيب إلى إحدى المرضات متسائلاً :

— أسرعى لإحضار نتيجة التحليل .

وقبل أن تخرج المريضة كان أحد الأطباء قد أقبل ويده ورقة .. بها عينة الدم .. والكمية التى نزفت .

ورفع الطبيب حاجبيه فى دهشة وتمتم فى نفسه قائلاً :

— كل هذا قد نرف ؟ . عجيبة !

ثم وجه القول إلى المريضة :

— أخبرى الدكتور « مانر » أن يحضر لينقل إليها دماً وأعطية نتيجة التحليل وأسرعت المريضة إلى الخارج .

وعادت « منى » تفتح عينها .. وتبلل شفيتها بلسانها .. ثم التفتت حولها ..

وعندما أبصرت « نادية » بجوارها .. همست فى صوت خافت :

— أنت هنا يا نادية ؟

وحاولت « نادية » جهدها أن تكبت النحيب فى صوتها المختنق وقالت :

— أجل يا حبيبتى .

— أما زلت غاضبة منى .. أن لم أسمع إلى كلامك ؟

— أبداً يا حبيبتى .

— لن أجهد نفسى بعد الآن .. سأسمع نصيحتك دائماً .

ثم صمتت لتستجمع قواها .. وعادت تبلل شفيتها وتساءلت :

— أين ماما ؟

— فى حجرة الانتظار .

— لم أكن أريد أن أتسبب لها فى كل هذا الإزعاج .. أخبريها أنى متأسفة جداً .. أخبريها أنى سأعقل ، وأنى لن أجهد نفسى أبداً .

— حاضر يا منى . إنى ..

ونظر الطيب إلى « نادية » وهز رأسه مقاطعاً :

— لا داعى لإجهادها بالحديث .

ومدت « نادية » يدها وتحسست جبين « منى » برفق قائلة :

— استريحى يا منى .. لا داعى للكلام .

وأقبلت المريضة .. بأنبوبة الدم وعلقتها فى الحامل .. وأمسكت ذراع « منى » فكشفته ، وبدا الذراع أصفر متخاذلاً ، ولفت الخرطوم جوله كى تبرز العروق ، ثم دفعا الإبرة فى عرق نافر ، وكشست « منى » ذراعها ، ثم أرختها ، وامتد الخرطوم لينقل الدم من وعائه إلى عروقها .. نقطة .. نقطة .

ووقفت « نادية » ترقب فى شرود ، قطرات الدماء .. تقطر فى ذراع « منى » لتعوض السيل الذى سكب منها على الدرج .

وانتهت عملية نقل الدم .

وبدت لنادية .. عملية طويلة مزعجة وبدت لها « منى » مسبلة العينين .. شاحبة الوجه ، وكأن الدماء التى تسكب فى عروقها .. تتسرب فى ناحية أخرى .

وأخيراً ساد السكون الحجرة .. ونظر الطيب إلى « نادية » قائلاً :

— من الخير ، أن ندعها تستريح .

وبدت « منى » كالنائمة .

وغادرت « نادية » الحجرة متسللة على أطراف أصابعها وذهبت إلى حجرة

الانتظار وأقبلت على أمها تحتضنها باكية .

وتساءلت الأم في صوتها المتشنج :

— أين منى ؟. أريد أن أراها .

— إنها بخير يا ماما .. لقد نقلوا إليها دماً ليعوض الدم الذي نزفته .

وعادت الأم تقول في تشنجها :

— أريد أن أراها .

— إنها نائمة الآن ، وقد أمر الطبيب أن نتركها لتستريح .

— أريد أن أراها يا نادية .. حرام عليكم !! أريد أن أرى ابنتي .

— سترينها يا ماما .. بمجرد أن تصحو ، سأخذك إليها .

وتوقفت « نادية » عن الحديث ، فقد أحست بحركة غير طبيعية في المر المؤدى إلى حجرة « منى » . وأبصرت إحدى المرضعات تهزل ، ثم رأت الطبيب يغادر حجرته .

وأحست « نادية » بشيء يعتصر جوفها ، واندفعت تجاه الحجرة ولحقت بالطبيب وسألته في خوف :

— ما بال « منى » يا دكتور ؟!

وهز الطبيب رأسه قائلاً في ضيق :

— لا شيء .

ثم وجه الحديث إلى المريضة وأردف قائلاً :

— أبدلي الملاءة .. واطلبي من الدكتور « مانر » أن ينقل إليها كمية أخرى .

وأحست « نادية » أن قدمها ستخذلانا ، وأن جدران المستشفى تميد بهما ،

ثم تعلقت بذراع الطبيب ، وقالت باكية :

— هل نزفت ثانية ؟!

وربت الطبيب رأسها متسائلاً :

— لماذا لا تذهبين لتستريحى ؟

وعادت « نادية » تسأل في أنينها المولم :

— أحقاً نزلت ثانية؟! —

وأجاب الطبيب ، وهو يحس بقلبه يتمزق من أنيتها :
— إننا سننقل إليها دفعة أخرى من الدم .. لا تنزعجى من النزيف ، لا بد أن يتوقف بعد هذه المرة .

ولكن النزيف لمن يتوقف .
لقد وضع وعاء الدم على حامله وامتد الخرطوم يستقطر الدم في ذراع « منى » .. وعندما انتهى من عملة الإفراغ .

عاد السعال .. وعاد النزيف .
وبدت العملية كأنها إفراغ دم في وعاء مثقوب .
دم يصب .. ونزيف يفرغ .
حتى من الله عليهم بفترة راحة .
وهذا السعال .. واستقرت « منى » في فراشها بضع ساعات وأقبل الليل .
وساد السكون ، حجرات المستشفى .

وبدت « منى » راقدة على فراشها .. هزيلة صفراء .. كأنها عود ييس أو ورق جف .. وعلى مقعد بجوارها استقرت الأم فاغرة الفم .. شاردة العينين ، وفي ملاحظتها أمارات ذهول .

وعلى مقعد آخر جلست نادية .
وحاولت « نادية » أن تغمض عينيها .. وأن ترخى أعصابها .. وأن تريح ذهنها من يقظته .

ولكنها أحست أن الضوء الساطع ما زال يغمرها ، وبدأت لنفسها كأنها مخلوقة أخرى .. مشدودة .. متوترة .

ونجح كلب خارج المستشفى .
ودقت ساعة الميدان تعلن انتصاف الليل .
وأحست « نادية » بخوف من دقائق الساعة ، ومن نباح الكلب .. بل

خوف من الليل كله .
وتذكرت .. صرخة .. أيقظتها ذات ليله .
وتذكرت العويل .. وتذكرت النواح .
وتذكرت أباهما .. المسترخى على الأريكة فى حجرته .
وبرغمها .. اندفع الشريط المروع يطوف بذهنها .
الكبش المذبوح .
النعش المحمول على الأكتاف .. والموكب السائر .
وشواهد القبور ، والفقهاء يرتلون على حافتها ، والكل ينفض ، ولا يبقى إلا
كلب ينبح وراء العربية الفارغة .
وعضت شفتيها .
لماذا تذكر نفسها بمثل هذا ؟!
ليس هناك أثر لهذه الأشياء .
لا يوجد فقهاء . ولا توجد « كباش » تذبح .
ولكن .. توجد حقيقة الموت .. إنها هنا وهناك .. وفى كل مكان .. والأمر
لا بد أن يجرى ، بطريقة ما .
بلا كباش تذبح ولا صلاة تقام ، ولا فقهاء يقرعون .
أف !! ما لها تذكر كل هذا ؟!
إنه شىء مروع .. شىء خفيف .
وهذا الليل .. لماذا لا ينتهى ؟
لماذا لا تشرق الشمس .. قبل أن تسمع الصرخات .. والنواح ؟!
ومرة أخرى ، عاد الشريط يطوف بذهنها ، الكبش المذبوح ، والعويل ،
والنعش المحمول ، والموكب السائر ، والقبور المقفرة ، العفراء المتربة .
وتذكرت القبور .. المصفوفة أسفل الهاوية ، التى تبدو من منحدر الجبل
وراء القصر الخرب .

وأحست بيد تعصر جوفها وتفري عظامها .. وأسقطت رأسها على
صدرها ، وراحت في إغفاءة .
وعندما استيقظت ، كانت الشمس تسلك من النافذة .. وأصوات العصفير
تزقزق في الأشجار المحيطة بالمستشفى .
ونظرت إلى « منى » فإذا بها راقدة كما هي في شحوب واستسلام ، ونظرت
إلى أمها فإذا عيناها شاردتان في ذهول وقد قرّح جفونها البكاء والسهر .
وأحست « نادية » بنوع من السكينة .
لقد مرّ الليل الخفيف .. بلا صراخ ولا عويل .

(٤١)

صلاة ...

فتحت « منى » عينيها في ضعف ، ودارت بهما في سقف الغرفة .. في شيء من الدهشة والاستفسار .

وشياً فشيئاً بدت عليها سيماء الإدراك .. وكانت « نادية » قد اقتربت منها وأمسكت كفها بيدها وضغطت عليه برفق ، وأقبلت الأم من الجانب الآخر من الفراش ومالت على الجسد الواهن وضمته إلى صدرها في لهفة وحنان وهمست في دعاء يقطر أسى :

— يارب .. لا ترينى في إحداهما مكروهاً .. يارب اجعل يومى قبل يومهما .

وضمت « منى » أمها ضمة واهنة وقالت في استخفاف :

— لا يومك ولا يومنا .. هوّنى عليك .. فالمسألة لا تستحق .

ورفعت عينيها إلى « نادية » وقالت وقد رسمت ابتسامة منحتها كل ما استطاعت من مرح وسعادة :

— كنت أحلم أننا في مصر .

وكانت « نادية » ترقب الوجه الذابل .. والابتسامة الباهتة .. وتحاول أن تطرد من نفسها الأسى واليأس .. وأن تستجمع قواها لتمنح أختها أملاً وثقة .

وأجابته وهي تحاول أن ترد على أختها مرحاً بمرح وابتسامة بابتسامة :

— حقاً !! وكيف حالهم في مصر !؟

ولم تجب « منى » وإنما حولت عينيها إلى أمها وقالت في لهجة جادة راجية :

— اسمعى يا ماما .. عدنى عندما أترك المستشفى أن نعود إلى مصر ؟

وتساءلت أمها في لهجتها الحزينة اليائسة :

— إلى مصر ؟

— أجل . عدينى .. لا تتصورين كم كنت سعيدة فى الحلم . لقد رأيتهم جميعاً .. عمى سليمان يضحك معنا كما تعود أن يضحك ، ورأيت زوجته .. لم تكن تشبه الصورة التى أرسلها لنا .. كانت بديئة وبين يديها طفل جميل .. ورأيت عمتى كذلك .. « مجرمة » كما هى ، ولكنى شتمتها بما فيه الكفاية .

وكان صدرها قد بدأ يعلو ويهبط وأنفاسها تتلاحق .

وقالت « نادية » وهى تتحسس رأسها فى حنان :

— لا تجهدى نفسك بالكلام يا منى .

ولم تأبه « منى » باعتراض « نادية » واستمرت تروى حلمها فى اندفاع

مرح :

— ورأيت الدادة ، تماماً كما تعودت أن أرها تغازل مرسى « بياع

الكازوزة » ، ورأيت من أيضاً ؟ رأيتهم جميعاً حتى عمود صبى المكوجى ، لم

أجد شيئاً قد تغير فى البيت ، وقفت فى الشرفة ، وقد تكاثفت حولها الياشمينة ،

وذهبتنا سوياً إلى النادى .

وصمتت برهة ثم هزت رأسها ومصممت شفيتها فى إعجاب وأردفت

قائلة :

— كان النادى جميلاً ، وكانت الشلة كلها هناك . عصام .. وصبرى ..

و ..

وتوقفت وقد اتسعت ابتسامتها ، ثم نظرت إلى أمها قائلة :

— ماما ! لقد تعبت من الوقوف .. لماذا لا تستريحين !؟

وازدردت الأم ريقها .. وانحنت مرة أخرى تضم ابتها إلى صدرها فى إشفاق

شديد .. وعبراتها تنحدر من مآقيا فى صمت .

وأحست « منى » بالعبرات الساخنة على وجهها .. فمدت كفها ومسحت

- برفق دموع أمها وقالت في لهجتها المازحة :
- ألم نقل إن المسألة لا تستحق يا ماما .. وفرى دموعك وقت الحاجة .
- وردت « نادية » وهي تحس بمرارة في حلقها :
- إن شاء الله لن تكون لها حاجة .
- واستدارت الأم تسير بخطواتها المتثاقلة متجهة إلى خارج الحجر ، وقبل أن تبلغ الباب هتفت بها منى في صوتها الضعيف :
- سنعود إلى مصر يا ماما .. بمجرد خروجي من المستشفى ؟
- وهزت الأم رأسها وهي مستمرة في خطواتها المتثاقلة :
- وعادت « منى » تقول :
- عديني .. قولى نعم .
- والتفتت الأم إليها وسيل العبرات مازال ينهمر وقالت :
- نعم يا حبيبتى .. سنذهب حيث تشائين .
- وخرجت الأم ، ونظرت « منى » إلى « نادية » وقالت بأوسع ابتسامة استطاعت أن ترسمها على شفيتها :
- ورأيت .. هل تدرين من ؟
- وابتسمت نادية وتساءلت وهي تتحسس شعر « منى » :
- من ؟
- رأيت صاحبك .. رأيت مدحت .. تماماً كما هو .. بقامته الطويلة .. ومنكبيه العريضين ، وجبينه المتسع .. ورأسه الذى نحل من الشعر .. رأيت في ملعب « الكروكيت » هل تدرين مع من كان يلعب ؟
- وهزت « نادية » رأسها ، وأحسّت بأن أنفاس « منى » قد ازدادت تلاحقاً فربت يدها قائلة :
- استريحى برهة يا « منى » .. لقد تعبت من الحديث .
- ولم تأبه « منى » لها ، بل استمرت تتساءل :

— تخمى .. مع من كان يلعب ؟

وتساءلت « نادية » لتجاريتها في الحديث :

— مع من ؟

— معك .

— معى أنا ؟

— أجل .. كنت تسيرون بجواره على بساط النجيل الأخضر .. عارية

القدمين .. بلا إيشارب .

ورفعت « نادية » يدها في حركتها اللا إرادية تتحسس الإيشارب الملتف

حول عنقها .. وتساءلت وهى تهر رأسها ساخرة :

— كان .. بلا إيشارب ؟ .. كان يجب أن أعطيك جيداً قبل أن تنامى .

وضغطت « منى » على كف « نادية » بكل ما تملك من قوى خائفة ..

وتساءلت فى دهشة :

— حتى فى الحلم .. ترين هذا مستحيلاً ! لماذا يا نادية .. لماذا لا تقابلينه ..

بلا خوف .. ولا حجاب .. أو كذلك أنه سيحبك كما يحبك من رسائلك .. إنه

يحبك أنت يا نادية .. أنت بشخصيتك .. التى يحس بها فى كل كلمة كتبها ...

إنه ...

وربتت « نادية » كتف « منى » وقالت مقاطعة :

— ليس هذا وقته يا منى .. دعينا من مدحت الآن .

— بل دعيني أتحدث كما أريد .. إنه يحب شخصك أكثر مما يجب صورتى ..

ولن ينقص من حبه أن تكون بعنقك بعض آثار حروق .. أو كذلك ...

— يا منى يا حبيبتى أرجوك أن تستريحى .. ليس هذا وقته .. ستحدث فى

كل هذا عندما تشفين .

— عندما أشفى .. سأكتب إليه أنا .. وأقول له الحقيقة وأرسل له

صورتك .

وهتفت بها « نادية » متسائلة في دهشة :

— منى !؟

— وإذا أتى فسألقاه وأقول له إنك نادية .. وإنك أنت التي تستحقين حبه ..
وسأنزع عنك الإيشارب ، رغم أنفك وأريه وجهك كما سيراه دائماً .

— لماذا تقولين هذا يا منى ؟

— وسيحبك كما كان يحبك .. وسيعجب بك كما أعجب بك « جمال » عندما
أسقطت الريح الإيشارب على ظهر السفينة . هل تذكرين !؟

وهزت « نادية » رأسها وتهدت في يأس .. وقالت في صوت خافت :

— يجننى أو لا يجننى .. المهم أن تشفى أنت .

— على أية حال إني أنذرك من الآن .. إذا قدر الله وشفيت .

وردت « نادية » من قلبها :

— افعلى كل ما تشائين .

ورفعت « منى » عينها إلى سقف الحجر وتمتمت داعية :

— اللهم اشفنى .. لقد حصلت على وعدين خطيرين إذا شفيت .. وعد من

أمى بالعودة إلى مصر .. ووعد من نادية بأن أصلح حالها .. وأردّها إلى
صوابها .. اللهم اشفنى .. فإن شفائى سيحقق أحداثاً خطيرة فى الأسرة

ونظرت إلى « نادية » وابتسمت فى أمل وأردفت قائلة :

— سنعود إلى القاهرة .. وسأتزوج من عصام .. وستزوجين من مدحت

هل هناك أحداث أخطر من هذه ؟

وبدت « منى » فى حديثها كأنها تلهث .. وازدادت شدة كفها على يد

« نادية » .. وبدأ وجهها يزداد شحوباً .. وأخرجت لسانها تبلل شفيتها ،
وازدردت ريقها بصعوبة .

وأحست « نادية » أن شيئاً فى جوفها يعتصر قواها .. وهتفت بمنى :

— مالك يا منى !؟ مالك يا حبيبتى ؟

ولم تجب « منى » فقد منعها سعدة قصيرة حاولت أن تكبتها كعادتها .. وسعدة أخرى .. انطلقت جامدة .. وثالثة .. اندفعت تحمل معها .. نزيفاً جديداً .

واندفعت « نادية » إلى الباب صائحة بالمرضة .. وقد روعها السيل القاني المتدفق فوق الأغصية البيض .

ومرة أخرى تكهرب الجو .. وأحست كأنها تدور في دوامة عميقة . ممرضات يدخلن ، وممرضات يخرجن ، وأطباء يتهايمسون ويتشاورون ، ووعاء الدم يعلق في حمائله ، وخرطوم يمتد بإبرة تغرس في ذراع « منى » لتقطر الدم في عروقها .

وأحست « نادية » بأعصابها تتوتر حتى تكاد تمزق .. وأخذت أصابعها تقبض على ثيابها في عنف كأنما تريد أن تمزق شيئاً .. وخرجت من الحجره .. ثم أطلت مرة أخرى . واندفعت إلى آخر الممر .. ثم عادت دون أن تدري لماذا اندفعت .

وسمعت نجيب أمها في غرفة الانتظار ، كأنه أنين الجروح .
وتذكرت نفس النجيب في منتصف ليلة سوداء .. في القاهرة .
وأحست به يمزق نياط قلبها .. وودت لو تكف أمها عن هذا الأنين .
ولكنها لم تجسر على الذهاب إليها . وعادت مرة أخرى إلى الحجره التي احتشد فيها الأطباء .. وتسلفت من بينهم وألقت نظرة على « منى » ، فإذا هي فاقدة الوعي ، مسبلة العينين ، قد كست وجهها صفرة عجيبة .
وعادت كفا « نادية » تقبضان على ثوبها في عنف كأنما تود أن تمزقه .

لماذا يتركونها هكذا ؟!

شيء ما لا بد أن يفعل .

شيء أكثر من هذه الدماء التي تقطر في عروقها .

أليسوا أطباء ؟

لماذا يقفون هكذا يرقبون في صمت وعجز ؟

لماذا لا يقول أحدهم شيئاً ؟

وفجأة نطق أحدهم .. نطق أحدهم بعد أن أمسك برسغ « منى » ثم ترك يدها تسقط على الفراش .

نطق وقد تقطب جبينه وزمت شفتاه واختلجت زاويتا فمه ، وبدا وجهه مكفهراً مريداً .

نطق ليقول للممرضة في نبرات متبرمة يائسة .. وهو يشير للوعاء القاني الذي يقطر الدم :

— انزعيه .. لا فائدة .. لقد انتهت الصبية .

نطق الرجل .. ليعلن في كلماته القصيرة .. انطفاء الذبالة ، وجفاف العود . وجثت « نادية » على ركبتيها بجوار الفراش .. وأطبقت بأسنانها على حافة الحشية .. ملقبة رأسها على الجسد المسجى ، ومطبقة بقبضتها على الأغطية في استماتة .. كأنما تحاول أن توقف شيئاً .. أو تمنع شيئاً وهتفت في صوت متحسرج :

— منى .. حبيبتى .. لن تذهبي يا حبيبتى .. ستشفين .. وستحقق لك الوجود .. ستشفين ، ونفعل لك ما تشائين .. ستخرجين من هنا يا منى ، لكي نعود إلى مصر .. منى .. حبيبتى .

ونطق الطبيب مرة أخرى ، ووجهه يزداد إرباداً .. وملامحه تزداد تقلصاً وانفعالاً ، ووجه القول إلى الممرضة مشيراً إلى نادية :

— خذيها خارجاً .

ومدت الممرضة يدها تربت كتف « نادية » في رفق .. محاولة إبعادها عن الفراش .. ولكن « نادية » ازدادت تشبثاً به .. وردت في صوتها المختق وهي تدفن وجهها في الأغطية :

— لا أستطيع تركها .. إنى لم أتركها أبداً .. أبداً .

وقال الطيب المربد الوجه في نبراته المقتضية الحزينة :

— دعها .

وتركتها الممرضة .. وتفرق الجمع الحاشد .. رويداً .. رويداً .. تفرقوا في
سكون وصمت .. بلا صراخ يشق أجواز القضاء ، ولا نجيب يدوى في أنحائه .
انفضوا عن الحجرة .. كأن حدثاً لم يقع .. كأن كارثة لم تحدث ، وكأن
الصبية الراقدة قد أغفت إلى حين .

وأحست « نادية » بالخوف الشديد يسرى في أعماقها .

لقد كانت تحشى الضجيج الذى صاحب موت أبيها .. فإذا بها ترتجف من
الصمت الذى حف برحيل أختها .

لماذا لا يصرخون ؟

لماذا لا يولولون ، ويضجون ؟

إن فى ضجة الصراخ .. أنساً من وحشة الموت .. وتمويهاً لصمته الخفيف .
لماذا يتركونها هكذا .. بمثل هذه السكينة القاتلة !

— لعلها .. لم تذهب .

أجل .. الأمر كله خدعة وعبث .

أو لعل الأمر كله .. لا يعدو كابوساً أطبق عليها حين غفوتها .

ورفعت رأسها المدفون فى الأعطية ببطء .. فإذا بالغطاء الأبيض قد غطى
الجسد كله .

ومضت لحظة وهى ترقب الغطاء الأبيض المشدود على وجه أختها فى ذعر
شديد .. وهى تنتفض كريحة فى مهب الريح .

وقبل أن تمد يدها لتزج الغطاء .. سمعت نجياً يقترب من وراء الباب .. سمعت
نجياً يشبه أنين كلب جريح .

نجياً لا تحطئه أذناها .

وفتح الباب ، وبدت أمها تترنخ وترنخ الذبيحة سرقتها السكين .

واندفعت « نادية » .. لترتمى في أحضانها .. متشنجة صارخة ، وتعلقت
بصدرها تعلق الطفل المدعور ، وهى تصيح بصوتها المختنق :

— ماما .. ماما .. لن نترك « منى » .. لم تكن تريد أن تموت .. كانت تريد
العودة إلى مصر .. لقد وعدناها يا ماما .. ألا تذكرين ؟

وضمت الأم ابنتها إلى صدرها .

وتواترت الأحداث بعد ذلك .

وتزاحمت الأشباح في الحجرة .. باهتة ، واهية .

وسمعت « نادية » أصواتاً معزية ، وأحست بربتات رقيقة .. سمعت صوت
جانيت تبكى ، وصوت مسيو كيلى يأمرهم بالخروج ، ورأت وجه تونى محمر
العينين ، وأحست بجأى تضمها باكية .

وأناس كثيرون .. راحوا وجاءوا ، وجاءوا وراحوا ، وأشياء كثيرة
حدثت .

وهى تحس كأن دوامة شديدة تدور بها .. لتتركها بلا وعى ولا إدراك ولا
قدرة على التصرف .

لا شئ سوى الاستسلام العاجز .. اليأس .. الراضخ لكل ما يملى عليه وما
يساق إليه .

وأخيراً .. انتهت بها الدوامة إلى نفس المنظر المخيف .

منظر الركب .. السائر في بطء وتناقل ، وقد حمل العزيز الراقد في صندوق
خشبي ليواريه حفرة بباطن الأرض .. ثم يبيل عليه الثرى ، ويتفرق عنه بعد أن
ينفض منه يديه .

ولم يكن الطريق مقفراً في هذه المرة .. كانت الخضرة تكسو جوانبه وقد
بدت أسقف البلدة الحمراء على يمينه .. وعن يساره بدا سفح الجبل بأشجاره
المتكاثفة .. ومياهه المنحدرة .. ومن أقصى الأفق بدت القمم البيض التى تناطح
السحاب .

وبدت لها المقابر الرخامية المصفوفة في سفح الجبل .. نفس المقابر التي كانت تطل عليها من أعلى الجبل .. عندما تجلس عند حرف الجرف وراء البيت المهجور .

وكانت رائحة الزهور .. تعطر الجو ، ورطوبة الأشجار والحشائش تبلل هبات النسيم .

وتوقف الركب بحمله العزيز .. كما توقف في أرض الغفير .
وأحست بقواها تخور .. وبالأرض تميد بها .. ومدت يدها لتستند إلى شيء قبل أن تتهاوى ، وأحست « بجأى » تقترب منها وتضمها إليها .
وسمعت من القوم لغطاً ، وأحست أن شيئاً ما يعوق العملية الشاقة الخيفة ..
عملية إيداع « منى » باطن الأرض .

ورأت التردد في وجوه الجميع .

وسمعت أحدهم يسأل :

— لماذا لا تسألون الأم ؟

وأجاب آخر :

— حرام عليكم .. لقد فقدت وعيها مرتين خلال الطريق .

وأردف صوت ثالث :

— أتركوها في حالها .. إنها لا تكاد تتنفس .

وسمعت صوت بول العجوز :

— وماذا تعرف هي عن شعائرهم .. افعلوا ما يحلو لكم إن إلنا واحد .

وهز مسيورينو رأسه وتمتم قائلاً :

— أجل-.. الإله واحد ، والمصير واحد .

وأبصرت « نادية » الصندوق الخشبي يحمل ثم يوضع على الأرض .

وأحست كأن شيئاً ينزع من جوفها .. ولم تستطع أن تكتم صرخة حادة

انطلقت من شفتيها ، واندفعت نحر راکعة بجوار الصندوق وتمتضنه بين

ذراعها ، وهى تهتف فى شبه حشرة

— منى .. منى .. يا حبيبتى .. كيف أتركك وحدك .. لماذا لا تجيبين يا منى !؟

ثم نظرت إلى الجميع ، وهم واجمون من حولها .. وهتفت :
— لا تتركوها .. إنها تخشى الظلمة .

وانحنى مدام كلود فوق « نادية » ، ورفعتها فى رفق قائلة :
— تجلدى يا نادية . اذكرى الله .. اذكره .. يشدد من أزرع .

وضمتها مدام كلود إليها ، وهى مازالت تتمتم :

— اذكرى الله يا نادية .. إلهاً جميعاً .. اطلبى الرحمة لأختك .. أليست لكم صلوات .. إن لديكم القرآن .. لماذا لا تقرئين بعضه .. ألا تظنين أختك فى حاجة إليه الآن !؟

ودفت « نادية » رأسها فى صدر السيدة ، واندفعت فى نوبة من البكاء .. أحست بعدها بشيء من السكينة .

وعادت السيدة تربت ظهرها وتضمها فى رفق قائلة :

— اذكرى الله يا نادية .. اذكره يا حبيبتى .. اقرئى بعض صلواتكم .. ستريح نفسك كثيراً ، وستريح أختك .

وازدردت « نادية » ريقها ، وأحست من قول السيدة بمزيد من السكينة ، وأخذت تتمتم بلا وعى .. ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك يوم الدين .. إياك نعبد وإياك نستعين .. اهدهنا الصراط المستقيم .. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ﴾ . آمين .

وعادت السيدة تضمها ، وهى تقول :

— لا تكفى . قولى كل ما تعرفينه من صلواتكم وقرآنكم .

وعادت « نادية » تتلو كل ما تحفظه من آيات القرآن .. أخذت ترددها فى

أول الأمر بلا وعى .. والسكينة تدب في صدرها شيئاً فشيئاً .
وكان الصندوق قد وورى الثرى .. ووقف الجميع ، وقد بدت عليهم
الخيبة .

وهمت « نادية » بالتهامى مرة أخرى .
وعادت السيدة كلود تشد أزرها قائلة :
— لماذا لا تصلين لأختك يا نادية ؟ .. إنى أعرف أن عندكم صلاة للموتى .
والتفتت « نادية » حولها في عجز ، وقالت وهى تهتز باكية :
— إنى .. إنى .. إن الصلاة لا تنفع بلا وضوء .
— الصلاة تنفع دائماً يا نادية .. إن الله لا يحاسبنا على الصغائر .. صلى يا
نادية .. صلى يا حبيبتى .

وعادت « نادية » تنظر حولها مترددة وجلة وتمتمت قائلة :
— إنى لا أعرف أين القبلة
— الله موجود فى كل مكان يا حبيبتى .. صلى له .. إنه لن يحاسبك على
اتجاه .. صلى يا حبيبتى .

وفى وجل وحيرة .. نظرت « نادية » إلى الجمع الواقف حولها .. يرقبها فى
صمت كأن الطير على رأسه .

وكما تعودت « نادية » أن تصلى صلبت جسدها .. ورفعت سباتيها إلى
أذنيها .. ثم هبطت بكفها مطبقتين أسفل صدرها .
وبدأت شفتاها تتمم بالفاتحة وقل هو الله أحد .. ثم ركعت وسجدت ..
وركعت وسجدت ، والجميع يرقبونها فى خشوع شديد ، وقد انحدرت الدموع
فى مآقيهم .

وأخيراً تلفتت نادية .. بمينة وحيث .. ثم تلفتت يسره وحيث مرة أخرى .
وانحنت عليها السيدة الطيبة .. تضمها إلى صدرها فى حنان شديد .
ومرة أخرى .. عاد الركب إلى المدينة .. فى بطئه وتناقله .. وصمته الحزين .

(٤٢)

لم يعد وهماً

كان مدحت قد أعد كل ترتيبات السفر ، وكانت عربة جاد الله تجتاز بهما نفق العباسية .. بعد أن حزم حقائبه .. وودع أمه مكفكفاً دمعها .. مؤكداً لها أن سفره ضروري لنجاته من متاعب معدته .. وأنه سيعود لها سليماً معافى .
ولمح جاد الله عقرب الساعة في ميدان العباسية يشير إلى التاسعة .. فالتفت إلى مدحت متسائلاً :

— متى ستقوم بالباخرة ؟

وبدا مدحت شارد الذهن .. مما جعل جاد الله يعيد سؤاله ساخرأً :

— أنت يا أخي .. متى ستقوم بالباخرة ؟

والتفت إليه مدحت .. وأجاب في اقتضاب الكاره للحديث ، المحب للشroud :

— الرابعة .

— بعد الظهر ؟

ونظر مدحت إلى جاد الله مغيظاً .. ورد في سخرية :

— لا .. بعد منتصف الليل .

— ولماذا إذن أقلقنتني بهذا التبكير ؟ .. دعنا نعود إلى النادي .

وهز مدحت رأسه وقال في استخفاف :

— أنت فايق ورايق .

— أنا ؟ أنا اللي فايق ! .. أنا الذي أرحل للنزهة في جبال الألب في عز المعمة ؟

— أى معمة ؟

- معمعة القنال .. ألا تحس بالأساطيل التي تتحرك والقوات التي تحشد ؟
- ألم تعرض المسألة على مجلس الأمن ؟
- أجل .
- ألم يتفقوا على الاجتماع في جنيف في آخر هذا الشهر ؟
- اتفقوا .. ولكنهم مستمرون في هياجهم .
- مسيرهم يخشعوا .
- وكانت العربية قد اقتربت من مستشفى الدمرداش .. فأردف مدحت وهو ينظر إلى ساعته قائلاً :
- ادخل بنا على المستشفى .
- أستمكث كثيراً ؟
- المفروض أن نكون في الإسكندرية قبلها بساعة .. من أجل إجراءات الجمرک .
- أى نكون هناك في الثالثة .
- ومن هنا إلى الإسكندرية أربع ساعات .. بما فيها نصف ساعة غداء في الرست هاوس .
- يعنى نتحرك من هنا في الحادية عشرة .
- وساعة احتياطى للطوارئ .
- يعنى تستطيع أن تمكث في المستشفى ساعة إذا شئت .. ألا تكفيك ساعة ؟
- تكفى جداً .. سأمر على بعض المرضى .. وأعطى بعض التعليمات للدكتور أنيس .
- وإذا رزقك الله بعملية ؟
- لقد قلت لهم إني سافرت فعلاً .. وقد وزعت كل العمليات على أنيس ، وإبراهيم زكى .

- وتوقفت العربة في فناء المستشفى .. وهبط الاثنان متجهين إلى الدرج .
وقال جاد الله محذراً .. وهما يجتازان المدخل :
— إياك أن تأخذك الجلالة وتضيع السفر .
— غير معقول ، لن يستغرق مروري أكثر من ربع ساعة .. إنى أريد أن
أطمئن على الرجل الذي أجريت له العملية أمس .
— الذى قطعت زوره .. أم الذى نزعت معدته ؟
— الذى قطعت زوره مات في منتصف الليل .
— يا ساتر !
— كان مفروضاً أنه سيموت .
— لماذا لم تتركه يموت وحده ؟
— لأن المفروض أن أبذل كل ما في وسعى .
— للقضاء عليه !؟
— لإيقاظه يا حيوان .. أنا لست جباناً ، حتى أترك المريض يموت وحده لمجرد
خوفى من أن يقول الناس إن عمليتى كانت السبب في موته .. مادام هناك أمل في
أن أنقذه ولو واحداً في الألف ، فلا بد أن أجرى العملية .. إن ثلاثة أرباع الأطباء
يتركون ..
وقاطعه جاد الله وهو يدفعه من ذراعه قائلاً :
— مفهوم .. مفهوم .. أسرع بالمرور وسأنتظرك في المكتب .. بعد أن أمر
على « تيتى » .
— ألم تخرج بعد ؟
— ولماذا تريدها أن تخرج .. دعنا نتسلى معها .
وافترق الاثنان .. وبعد ربع ساعة التقيا مرة أخرى في المكتب .. وأخذ
مدحت يجمع الأوراق المتناثرة على المكتب ويضعها في الأدراج قائلاً لجاد الله :
— لا تدع أحداً يعبث في المكتب .

— هل به شيء يخشى عليه ؟

— به محاضرات .. وبحوث

— إذن لن يقربه أحد .

ونظر جاد الله إلى الساعة في يده وتساءل :

— أبقى لديك شيء تفعله ؟

ونظر مدحت حوله كمن يحاول التذكر .. ثم قال :

— أبدأ .. هيا بنا .

وقبل أن يهما بالخروج . سمعا وقع أقدام خارج الحجر ، ثم بدا بالباب بضع جنود يرتدون ملابس كاكية .. وقد وضعوا على رؤوسهم الكاب وحزموا خصوصورهم بالقوايش الكاكية العريضة .

وبدت الدهشة على وجه مدحت وجاد الله . وهما ينظران إلى الحشد الكاكي الذي وقف بباب الحجر .

وما لبث أن ميز مدحت تحت المظلات الكاكية وجوه طلبته .. ومن بينهم وجه صبرى النحيل بمنظاره السميك .

وهتف جاد الله ضاحكا :

— يجزب بيتكم .. ما الذى عملتموه فى أنفسكم ؟

وأجاب صبرى ضاحكا :

— تطوَّعنا فى جيش التحرير .

وقطب مدحت جبينه .. وتساءل فى دهشة :

— جيش التحرير ! وماذا تفعلون به ؟

ورد أحد الطلبة :

— نتدرَّب على ضرب النار ، وعلى الطواير العسكرية .

وهز مدحت رأسه .. متسائلا فى استخفاف :

— ضرب نار ؟. أتجدون من وقتكم فراغاً لضرب النار !؟ هل انتهيم من

دروسكم كلها ؟

ورد صبرى فى نوع من الاحتجاج :

— الدروس تستطيع الآن أن تنتظر يا دكتور .

— تنتظر !. وضرب النار لا يستطيع الانتظار ؟

— بالطبع لا .

— لأن العدو على الأبواب !!؟

— طبعاً على الأبواب يا دكتور .. لقد جئنا نحتج على سفرك فى مثل هذا

الوقت .

ورفع مدحت حاجبيه فى دهشة .. وأطلق من أنفه نفخة سخريّة وتساءل :

— ما لهذا الوقت ؟

وأجاب صبرى وقد بدت على وجهه سيماء الجذ :

— نحن نحبك يا دكتور مدحت .. نحب رجولتك وشجاعتك .. ونود أن

تكون إلى جانبنا تشد من أزرنا فى كفاحنا .

وتضحك مدحت متسائلاً :

— أى كفاح !! لقد انتهت الأزمة .. لقد اتفقوا فى مجلس الأمن على الاجتماع

فى جنيف لحل المسألة . إنها فورة هدأت وزوبعة مرت بسلام .

وعاد صبرى يقول فى لهجة الواثق :

— لم تمر بعد .. إنهم مستمرين فى تحركاتهم وتجمعاتهم .

— مجرد تهوئش ، فلم يكن من المعقول أن يتلقوا الصفعة على خدهم الأيمن

ليديروا لنا فى استسلام خدهم الأيسر .. هل كان هذا معقولاً ؟

ورد جاد الله قائلاً :

— طبعاً لا .. كان لا بد لهم من الهياج والتلطيش والتشليق .. والتهديد .

بالويل والثبور وعظائم الأمور .

وأجاب مدحت :

- وهذا هو ما فعلوه .. ولا أظنهم سيجربون على أكثر منه .
وتساءل صبرى :
— ولِمَ لا .. هل هناك ما يمنعهم من القيام بأكثر؟!
— مثل ؟
— استعمال القوة .
— من أجل ؟
— احتلال القناة .
— هل تتصور هذا ؟
— ولِمَ لا ؟
— إنهم لن يفعلوها إلا إذا فقدوا عقولهم .
— أظنهم لم يفقدوها بعد ؟
— ليس إلى الحد الذى يدفعهم إلى القضاء على مصالحهم وتعطيل القناة .
— ألم يحاولوا تعطيلها بسحب المرشدين ؟
— كانت مجرد مناورة .. لإظهارنا أمام العالم بمظهر العاجز المتعنت .
— ولو نجحت .. هل تظنهم كانوا سيقفون مكتوفى الأيدي .. أم كانوا سيتدخلون ؟
— ليس بالقوة .. لأنهم يعرفون معنى التدخل بالقوة .
— إنهم لن يكفوا عن خلق فرصة التدخل بأية وسيلة . لقد عقدوا مؤتمر لندن .. وأرسلوا بعثة « البغل الأسترالى » لعرض قرارات يعرفون سلفاً أنها مرفوضة ، لكى يظهرنا بمظهر المتعنت المتجبر ، الذى يحتاج إلى تأديب .. فلما فشلوا أقدموا على مناورة سحب المرشدين .. لكى نبدو بمظهر العاجز المفسد .. فلما فشلت .
— اضطروا إلى التسليم .. والشكوى لمجلس الأمن .. وقبول التفاوض فى جنيف .. أليس كذلك ؟

— لا أظن .. إنهم يعتبرون جلاءهم عن القناة غلطة كبرى يجب إصلاحها .

— بأي شيء ؟

— بالعودة .

— إلى هذا الحد ؟

— أعتقد هذا .. لقد ظنوا جلاءهم رشوة لطاعتهم .. فلما عصيناهم ندموا

على رشوتهم .. وأجسوا أننا لا نستحقها .

وتساءل مدحت ضاحكا :

— وسيسحبونها منا ؟

وأجاب صبرى مؤكداً :

— سيحاولون .

— أنت متشائم جداً .. إن الزمن لا يعود القهقري .. لقد مضى عهد

القرصنة .. ولم تعد حريات الشعوب رشوى تعطى وتسحب ، بل باتت

حقوقاً لا تملك قوة أن تسلبها بعد أن كافح أصحابها في الحصول عليها .

• ورفع مدحت معصمه بالساعة .. فإذا بها قد قاربت العاشرة .. فقال للصبية

المشدودين في ثيابهم الكاكية :

— لقد أزف الوقت .. لا بد أن نرحل الآن ..

ومد يده فربت بها كتف صبرى .. وقال في ثقة :

— لا تتشائم هكذا .. إنها زوبعة في فنجان ، لا تنسوا دروسكم .. فلن

أرحمكم عندما أعود .

وهز صبرى رأسه وقال في أسف :

— خسارة .

وتساءل جاد الله قائلاً :

— ما هي هذه الخسارة ؟

— كنا نود أن يبقى معنا .. إنه مقاتل بطبعه

وضحك مدحت وأجاب :

— إن شاء الله .. لن يكون هناك ما يستحق القتال .

ومد يده يشد على أيديهم مودعاً .. ثم أردف يقول :

— على الأقل حتى أعود .. إن لدينا فرصة أمان حتى آخر الشهر .. فلا أظنهم

سيستعملون معنا القوة قبل أن نجتمع ثم نختلف .

ثم وجه القول إلى جاد الله ضاحكاً :

— وإلا إيه يا جاد الله ؟

وأجاب جاد الله بطريقته المهرجة :

— إيه !

وبعد لحظات كانت العربية تنطلق بهما .. متجهة إلى طريق الإسكندرية

الصحراوى .

وفي الساعة الرابعة .. كان مدحت يقف على سور السفينة .. ملوّحاً لجاد

الله . ووقف جاد الله يبتسّر له ملوّحاً . وقبل أن تبدأ السفينة تباعدها على

الرصيف .. صاح جاد الله :

— اكتب لى عن كل ما يحدث

وهز مدحت رأسه .. وعاد جاد الله يصيح مؤكداً :

— بصراحة .

وضحك مدحت وعاد يلوح بيده .. ومرة أخرى انطلق صياح جاد الله من

الرصيف قائلاً :

— بلغها سلامى .

وهزّ مدحت رأسه ضاحكاً .

وعاد جاد الله يقول :

— وعرفها فضلى عليها .. فلولاى ما كتبت إليها .. ولا كنت الان فى

طريقك إليها .

وعاد مدحت يهز رأسه ضاحكا .
وعاد جاد الله يصبح متسائلا .. والسفينة تتباعد رويداً رويداً .. والصوت
يتضاءل :

— أستخطيها !؟

وفغر مدحت فاه في دهشة .. وبسط كفيه كأنما يقول لجاد الله :

— ما هذا الجنون .. أهذه طريقة للسؤال !؟

ثم لَوَّح بيده .. واختفى داخل السفينة حتى يوقف سبيل أسئلة جاد الله
الحمقاء .. التي اندفعت تتدفق منه في اللحظة الأخيرة .

واستمرت السفينة تتباعد عن الشاطئ .. وعاد مدحت ليرقب مباني
الإسكندرية وهي تتضاءل وتنكمش ، وهبت نسمة من نسيمات البحر الرطبة في
صدره .. وأحس بشيء من الاتعاش ، وأطلقها في استرخاء .. حامله معها ما
تبقى في صدره من متاعب السفر ومشكلاته وتعقيداته .

واستلقى فوق مقعد طويل .. على ظهر السفينة ، وأحس وهو يلقي رأسه
على حافة المقعد .. ويمدد ساقيه ويرخي ذراعيه ، أنه مخلوق سعيد بلا هموم ولا
مشكلات ، بل أكثر من هذا .. إنه ينتظر أشياء جميلة .

لقد ملأه إحساس الطفل يلقي بكراساته وكتبه ، ويستلقى في انتظار عيد ..
أو نزهة .. أو أمنية توشك أن تتحقق .

وبدأ يتذكر .. كيف بدأ الأمر .. بقلم على خريطة .. يرسم طريقه من
مارسيليا تجاه الشمال ، باحثاً عن المدينة الصغيرة .. ذات الحروف الثلاثة ..
القائمة وسط التضاريس البنية اللون التي تناثرت عليها الأحرف الكبيرة « الألب
العليا » .

لقد مارس الرحلة أياماً على الخريطة .. استقرت في ذهنه .. وتأكدت في
نواياه .

وقبل ذلك .. كيف بدأت المسألة كلها .

رسالة من مجهولة في بضع كلمات .. تخبره أن حياتها معلقة .. في رده .
ردّ عليها .. ردّ إحسان .. كما تمنح السائل الذي تمر عليه بعربتك حسنة .. لا
لأنه يستحقها .. بل لأنها لن تضريك
وردت عليه .. ورد عليها .
وهز رأسه في دهشة :

عجيبة !! كيف حدث كل هذا ؟
كيف باتت هذه المخلوقة المجهولة .. جزءاً من حياته ؟
كيف أضحت أعز أمانيه .. وأجمل آماله ؟
كيف أمكن أن يتجسد هذا الوهم .. هذا الطيف .. هذا اللاشئ .. المكوّن
من حبر على ورق .

كيف أمكن أن يتجسد ليملاً قلبه .. ويملك مشاعره ؟
كيف باتت واضحة .. مثل هذا الموضوع ؟
كيف برزت ملامحها .. وتأكدت تفاصيلها .. حتى أضحت على بعدها
أقرب من أقرب الناس إليه ؟
وفجأة .. مر بذهنه خاطر أحق مجنون .. مر بذهنه كما تمر الطليقة الطائشة ..
تصيينا بالدعر .. دون أن نعرف من أين أتت ولا أين تستقر .
ترى ماذا يفعل .. إذا لم يجدها ؟
يعنى إذا لم يلق لها وجوداً !!

إذا ذهب إلى البلدة .. وإلى البيت .. ولم يجد هناك مثل هذه المخلوقة التي
رسبت في حناياه .. وتدقت في أعماقه ؟!
ونفض عن نفسه هذا الخاطر الطائش
نفضه تماماً .. كما ينفض ذرة غبار .
ورفض أن يفكر فيه .
إن « نادية » موجودة .

موجودة .. كما هو موجود .

إن ثقته في وجودها .. كتقته في وجوده .. فإذا جاز له أن يتصور أنه مخلوق وهمي .. وأن كل هذه العمليات التي أجراها .. والمرضى الذين مزق أجوافهم .. شيء لا وجود له .. وإذا جاز له أن يعتبر أن هذا الكائن المسافر على ظهر السفينة .. والذي يسترخى على المقعد في سعادة الطفل .. كائن من ابتكار الفهن .. وخلق الأوهام .

إذا جاز له هذا .. فله أن يتصور أنها مخلوقة غير كائنة .
وسمع دقات الساقى تؤذن بالشاء .. وجذب من الهواء الرطب نفساً طويلاً .. وأطلقه حاملاً معه سخافة شكوكه .. وحمق ريبته .

ثم نهض هو ليتحسس صدره في ثقة .. ويشد عضلات ساقيه في قوة .
واتجه إلى حجراته .. ليبدل ملابسه .. ومررت أيامه الخمسة بالسفينة .. استمتع بها بقدر ما سمحت له لفته على الوصول .. وفي بعض هنيهات القلق .. كان يتمنى لو اتخذ طريقه بالطائرة إلى مارسييا .. أو باريس .. أو جنيف .. أو إلى أقرب مطار يوصل إلى « جاب » .. ولكنه كان يهدى لفته بأن هذا الطريق أسلم .. وأقرب إلى العقل .. فالمفروض أن أساس السفر هو علاج معدته في لندن .. وأنه قد اتخذ طريق البحر ليسترخ ويستجم .. وأنه في طريقه — عفواً وبلا قصد — وجد نفسه قريباً من « جاب » .. فوجد من باب النوق واللياقة أن يفرور صديقتة التي ترأسله .

أجل .. إن هذا أمر معقول .. ولا يمكن أن يلومه عليه أحد ..
وهبط في مرسييا .

وحدث له فيها ما يحدث لكل مسافر « جديد » .. تكأ كما عليه الحمالون .. وسائقو التاكسي .. وحصلوا منه خمسة أمثال ما يجب أن يدفع .
وبعد بضع ساعات .. كان القطار الصاعد إلى الشمال ينهب به الأرض ، وتملكه إحساس بالخشية .. والقلق .. وهو يجد نفسه وحيداً .. وسط الركاب

المتفرقين في القطار .. الذين بدا عليهم الوجوم وخيم عليهم الصمت ، وتمنى لو استطاع أن يحدث أحداً .. أن يقول له كلاماً أو يسأله عن أمر .. ولكنه لم يحس في لغته الفرنسية من الثقة ما يدفعه إلى المغامرة بجذب أطراف الحديث . ولم يجد خيراً من النافذة يدفع فيها بوجهه .. ويركز كل اهتمامه .. ولم يجد في أول الأمر من المناظر ما يثير اهتمامه .. اللهم إلا الأرض الحمراء .

ولكن القطار ما لبث أن بدأ صعوده وسط الجبال .. وما لبثت مناظر السفوح الخضراء .. ومساقط المياه .. أن أخذت بلبه .. وأضاعت وحشته حتى بدأت الشمس تنحدر . للغميب .. ومضت برهة والكون يرفل في كساء مغربها الأرجواني .. ثم بدأت الرمادية الشاحبة تتسلل فوق المرثيات جارة وراءها كساء الليل الأسود تحجب به الكون . فلا تبقى من ملامحه إلا عيون المصابيح المتناثرة تنفذ من ورائه .

وأخيراً .. وبعد أن بدأ النعاس يلعب بأجفان بضعة الركاب الذين ضمتهم العربة .. وقف القطار

وبدت لافتة « فين » بجوار كشك المحطة .. فنهض مدحت واقفاً .. ومد يده فقذف إلى أحد الحمالين بحمائه .. ثم هبط في عجلة إلى الرصيف . وبنفس الطريق الذي حمل به قطار « جاب » .. نادية وأهلها منذ عام مضى .. حمل القطار مدحت .. بعد أن أمضى بضع الساعة في انتظاره وسط « الشابورة » الثقيلة .. وأشباح المحطة المتحركة في صمت . وأخيراً .. تحقق الحلم .

وهذا القطار قليلاً .. ليقرأ مدحت اللافتة ذات الحروف الثلاثة التي تكوّن أعز أسماء المدن إلى نفسه .. وأقربها إلى قلبه .. « جاب » . وهبط مدحت إلى الرصيف .. وأحس بالبرودة تلسع أطرافه .. وهو يقف متلفتاً حوله في حيرة .

وأشار إلى جمال عجوز .. نفس الحمال الذي تعودت « نادية » أن تصفه له

من نافذة حجرتها في المدرسة .
أجل .. إنه هو بظهره المحنى .. ومعطفه الكاكي .. وقبعته على أذنيه ..
ويديه في جيبه .

وأقبل الحمال .. يهز رأسه مستفسراً .
وكاد مدحت يمد يده إليه مصافحاً .. إنه يعرفه جيداً .. ويعرف كل ما
حواله .. يعرف كشك المحطة .. والسنديانة التي تحيطه بذراع .. وترفع ذراعها
الأخرى إلى السماء .

أجل .. إنها هي بلا شك .
لشد ما أجادت « نادية » وصفها .
وناظر المحطة البدين .. وكلبه الأعجم .
وعاد الحمال يرفع إليه عينيه مستفسراً .
وبدأ مدحت يحدثه بالفرنسية .. سائلاً عن فندق .
وأجاب الحمال العجوز :
— يوجد فندق في الميدان .. وفندق آخر بجوار المحطة .
وكاد مدحت يقول له :
— أعرف .
ولكنه هز رأسه قائلاً :
— أى فندق .. يقضى

وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، والضباب قد
تكاثف حتى كاد يخفى أشباح الشجر والدور .
وقال الحمال :

— لا ضرورة للتاكسي .. فالمسافة قريبة .
وهنا لم يملك مدحت إلا أن يجيب :
— أجل .. أجل .. أعرف !.

ورفع إليه الحمل عينية من الدهشة .. ثم انحنى ليحمل الحقيتين .. ولكن
مدحت تناول إحداهما قائلاً :

— لتتقاسم الحمل .

وضحك العجوز ، وقال متسائلاً :

— وتتقاسم الأجر ؟

وربت مدحت ظهره ضاحكا .. ثم سارا سوياً يطرقان أرض الطريق
الصامت بكعوب حذاءيهما .

وسار الحمل إلى الميدان .. وهو يقول لمدحت :

— هذا الفندق أحسن .. وأهدأ ..

ودلف الاثنان من الباب الزجاجي .. ولكن قبل أن يضعوا الحقائق من أيديهما

أطل وجه امرأة من وراء الباب .. وقد غلبها النعاس .. وهي تقول :

— لا حجرات خالية .

ورفع الحمل العجوز الحقيبة في صمت .. وقال لمدحت :

— لم يبق أمامنا إلا فندق المحطة .. إنه قديم .. ولكنه محتمل .

وعاد الاثنان إلى الفندق المطل على المحطة .. والملاصق للمدرسة .

وتساءل مدحت على سبيل التأكيد :

— أهنا مدرسة بجوار الفندق ؟

وأجاب الحمل العجوز :

— أجل .. مدرسة الأب رينو .

وأخيراً استقرت مدحت في حجرته بالفندق .. حجرة عتيقة سميكة الجدران ..

ذات فراش نحاسي .. وحوض قديم في أحد أركانها .

وأحس مدحت بأنه مجهد .. وأنه لم يعد له من سبيل .. سوى النوم ، وأبدل

ملابسه والنوم يغالبه .

ولم يكد جسده يستقر على حشية الفراش .. ويتدثر بأغطيته .. حتى راح في

سيات عميق .

واستغرق في نوم طويل .. لم يفق منه إلا وشعاع من الضوء الأصفر يتسلل من النافذة .

. وتمطى في فراشه .. ورفع رأسه ليرقب النافذة المواجهة التي تسلل منها الضوء .. فإذا بمنظر يبهره .

منظر طالما حملته إليه « نادية » في رسائلها .

منظر السفوح الخضراء .. ذوات القمم البيض التي تبدو في أقصى الأفق .. وقفز من الفراش .. وفتح زجاج النافذة .. وأحس نسمة الصبح البليلة الباردة .. وأطل منها على السنديانة وسقف المحطة .. وبدت أمامه بقية الأسقف الحمر المنحدرات .. ومداخنها التي لم تلفظ بعد أنفاسها .

وبدا كل شيء لعينيه كما تعود أن يعرفه .. وأن يراه .

وبدا الطريق نظيفاً .. وأوراق الشجر يتساقط منها الندى .

وأشعة الشمس المشرقة تداعب قمم الدور وأطراف الشجر .

وكل عصفور يزقزق .. أو نسمة تهب .. تشعره بأن « نادية » هنا .. وأنها

باتت منه على مد ذراع أو خطوة قدم .

إنه معها في نفس المدينة .. لم يعد لقاؤهما وهماً ولا حلماً .

(٤٣)

ضمة على قبر ..

مرت الأيام القلائل الأولى بعد وفاة « منى » .. والبيت يسوده صمت القبور ، ووحشة الليل ، وسكينة الأطلال .

لا صراخ ، ولا عويل ، ولا أنين .. والحديث — إذا تحتم — يسرى همساً .. والحركة — إن وجبت — تجرى تسللاً .

وسكان البيت .. يبدون كالأشباح المذعورة النافرة .

« الأم » منطوية في حجرتها .. جسداً بلا حس ولا حراك ، ولا أثر فيها للحياة إلا زفرات حارة تنطلق من صدرها بين آونة وأخرى .. كأنها تنفس عنه ما تراكم به من حمم الوجيعة وسعير اللوعة .

و « الجدة » قابعة في مقعدها .. شاردة الذهن ، جاحظة العينين ، فاعرة الفم .. تتمتم شفتاها بكلمات يفهم منها بين حين وآخر « يرحمنا الله » .

وبقية أهل البيت .. يتحركون في وجوم وشرود ، وفي عيونهم ذهول من الضربة المفاجئة التي اختطفت الصبية اليانعة .. التي كانت تملأ البيت مرحاً وتغريداً

و « نادية » .. حبيسة في غرفتها .. مستلقية في انهار ، أو متشنجة في نحيب .. أو شاردة في ظلمات من الكآبة والوحشة .

و لم تفلح محاولات « جاني » وبقية الشلة في انتزاعها من سجن أحزانها ، والتخفيف من لوعتها .

كانت أحياناً لا تصدق أن « منى » قد فارقتها إلى غير عودة .

كانت تتوهم أن كل ما حولها كابوس مزعج لا تفتأ أن تفيق منه .. وكانت

تتوقع من آونة وأخرى أن تسمع نداءها ، وتبصر بسمتها وهي تدخل عليها ضاحكة .. لتدعوها للخروج ، وتؤنّبها على انطوائها في غرفتها ، وتخبرها أن الحياة جميلة .

كانت تملأ تفكيرها في اليقظة ، وأحلامها في النوم .. تارة تدعوها للحياة .. وتارة تستغيث بها من الموت .. تارة ناضرة يانعة ، وأخرى زاوية ذابلة .
ورأتها ذات ليلة تقبل عليها لاهثة وقد افترثرها عن ابتسامتها المرحّة .. لتنبئها أنها قد رأت مدحت مقبلا من المحطة .. وأنها قد أخبرته أنها « منى » .. وأن « نادية » تنتظره في البيت ، وأنه قد أقبل لرؤيتها ، وأخذت تجربها من ذراعها لهبط بها إليه ، وأخذت « نادية » في المقاومة وهي تصيح بها حانقة ، وقد صممت ألا تراه .

وأفاقت « نادية » من نومها ، وهي تصيح « بمنى » أن تتركها وشأنها .. وفتحت عينيها على ضوء القمر يتسلل من النافذة ، وأحست أن ما مر بها أضغاث أحلام .. فدفنت رأسها في الوسادة .. واندفعت في نحيب أليم .. حتى أغرقت عبراتها الوسادة .

وعندما هدأت نوبة البكاء .. جلست في فراشها ترقب الضوء المتسلل من وراء الأفق ، وعادت تفكر في الحلم .

ترى ماذا يمكن أن تفعل .. إذا أتى مدحت !!

يأتى .. في مثل هذه الظروف المليئة بالحزن واليأس والوجيعه !

هل يمكن أن يحدث هذا ؟!

هل يمكن أن تبلغ سخرية القدر بها .. إلى هذا الحد ؟!

أن ترسل إليها مدحت .. في هذه الظروف البغيضة المشثومة ؟!
وأطلقت من صدرها زفرة حادة .

لقد كانت « منى » .. الوحيدة التي تستطيع أن تنقذها من ورطة اللقاء .

وتذكرت دعابة « منى » . وكيف عرضت عليها أنها ستلقاه .. وماذا تنوى ،

أن تقول له .

وعاد الدمع ينهمر من عينيها في صمت .. ومدت طرف لسانها ليلعق السائل الملح المنحدر على ملتقى شفيتها .

ثم مسحت عينيها وأنفها بطرف كمها .. وعادت تفكر مرة أخرى .
أحقاً ينوى مدحت الحضور !؟

لقد أرسلت له رسالة تلمح له فيها بأن سفرهم محتمل في وقت حضوره ، ولكنه أرسل إليها مازحاً ليقول إنه سيأتي حتى ولو كانت غير موجودة .. لمجرد أن يرى البلدة ، وكتب إليها لأول مرة في حياته بيتاً من الشعر « أمر على الديار .. ديار ليلي » .

فحضوره إذن غير مستبعد .

ماذا يمكنها أن تفعل .. إذا فعلها هو وحضر ؟

أليس من الأفضل أن تكتب إليه الآن لتنبئه بطريقة قاطعة أنها قد سافرت إلى جنيف .. أو أى مكان .. لأنها مريضة ، وأنها ستكتب إليه من عنوانها الجديد ؟
أجل .. إن هذا خير ما تفعله .

أن تنبهه بأنها سافرت .. وأنها ستكتب إليه مرة أخرى ، وهو لا شك سينتظر حتى يعرف عنوانها الجديد .. فلعله يستطيع زيارتها فيه .

وعليها أن تكف عن الكتابة إليه .. حتى تستطيع أن تدبر أمرها معه .
إن كل ما تريده الآن .. هو الفرار من لقاءه .

على الأقل حتى تلتقط أنفاسها ، وتهدىء من روعها .. أثر الكارثة المؤلمة .
ونهضت من فراشها ، وأحضرت كراستها الزرقاء .. وبدأت في الكتابة .
وأنت الرسالة في بضعة أسطر .. رسالة مقتضبة تنبهه فيها بأنها ستسافر الآن إلى جنيف لأتتها مريضة .. وستكتب إليه بمجرد وصولها .

وأطبقت الظرف على الرسالة .. وكتبت العنوان ، وأحست بشيء من الارتياح والطمأنينة .

ونظرت إلى ساعتها .. فإذا بها السابعة .
بعد نصف ساعة .. ستستدعى « بول » وتأمرة بوضعها في صندوق
البريد ، وينتهي الأمر .
وستكف بعد ذلك عن الكتابة .. شهراً .. شهرين
وسيتوقف هو عن الكتابة ، وعن الحضور .. و .. وفجأة .. دق جرس
الباب .

وعادت تنظر إلى الساعة .. في شيء من الدهشة !!
من يكون الطارق المبكر !؟
إن « بول » لا يدق الباب قبل السابعة والنصف .
وأحسست أن عليها أن تنزل لفتح الباب .. فأما وجدتها لا تفتحان ،
وجانيت لا بد أن تكون مستغرقة في النوم .
وأسرعت تهبط الدرج .. بعد أن دق الطارق ثانية .
ومدت يدها تفتح الباب .. لترى الطارق .
وبدا لها الطارق طويلاً ، عريض المنكبين ، غير مقطب الجبين ، ولا متجهم
الوجه .. بل مبتسماً في رقة ، مطرقاً في حياء .
وفغرت « نادية » فاهها .. ووقفت لحظة ترقب في ذهول ، كأنما قد رأَتْ
شبحاً مخيفاً .. ثم انطلقت من شفتيها صيحة ارتياح واندفعت تعدو هاربة إلى
أعلى .

وبلا وعى ولا إرادة ، وقبل أن تفكر في أى شيء ، أو تفعل أى شيء ،
أمسكت بالإشارب تشده حول رأسها ، ثم أبدلت ثياب نومها في سرعة البرق
بسويتر عالى الياقة .. وأحكمت الياقة جيداً حول عنقها .
ثم عادت تهبط السلم في بطء ووجل .. مذعورة القسمات .. مرتعدة
الأوصال ، لاهثة الأنفاس ، يكاد قلبها من فرط دقاته يقفز من ضلوعها .
وكان ذهنها يعمل ببهرة .

إنه يقف أمامها بالباب .. بلحمه ودمه .
مدحت نفسه .. لا طيفه ولا صورته .
ماذا تقول له ؟
وماذا تفعل به ؟
إن المفروض أنها ليست « نادية » .
فهو يعرف « نادية » من صورها ، ويعرف أنها ليست « نادية » .
وحتى لو لم يعرف ، فهي لا تجسر أن تقول إنها « نادية » .
ولكنه قد أتى ليقابل « نادية » .
فأين « نادية » إذن ؟
أتقول له إنها سافرت ؟
أين ؟ .. إلى جنيف للعلاج ؟ .. كما كتبت له منذ لحظة . أين عنوانها ؟ .. لا
تدرى !
أمعقول هذا ؟
ولكن أين « نادية » فعلا ؟
« نادية » التي يعرفها من صورها .
لماذا لا تقول له الحقيقة ؟
لماذا لا تقول له إن « نادية » التي يتخيلها في ذهنه .
« نادية » التي أتى ليراها ، والتي كان مفروضاً أن يلقاها .
قد ماتت .
لماذا لا تقول له الحقيقة ؟! وتنتهى !
ولكن أحقاً أن « نادية » قد ماتت !
أيمكن أن يقضى على حيا .. على مشاعرها ، على إحساسها بالزوال والفتاء !
إن « نادية » التي في الصورة قد ماتت .
لم يعد لخلق على ظهر الأرض أن يريه إياها .

ولكن « نادية » التى تحبه ، والتى دعته ليطوف معها بقمم الجبال وشاطئ
البحيرة .. لم تمت بعد .
إنها على قيد الحياة .. تحبه كما كانت تحبه دائماً .
ولكنها لا تجسر أن تلقاه ، وأن تخبره بأنها هى التى تحبه ، وهى التى كتبت
إليه .

بل إنها تخشى ألا يعترف بها .. وأن تكون « نادية » قد ارتبطت فى ذهنه
وقلبه .. بصورتها أكثر مما ارتبطت بحبها ومشاعرها .
إنها لا تجسر .. إنها لا تستطيع .
ووصلت إلى الدرجة الأخيرة من السلم .
وبدأ لها مرة أخرى يقف بالباب .. بشبحة الطويل ، وكتفيه العريضتين ..
وملامحه التى تبدو فوقها الابتسامة الرقيقة ، والحيرة الوجلة .. نظرة عتاب
ودهشة .. من هذا الاستقبال العجيب .

وتقدمت « نادية » تجاه الباب ، وهى تحس أن قدميها تلتفتان إحداهما حول
الأخرى ، وأنها توشك أن تتعثر فى كل خطوة .
وقبل أن تفتح فمها لتقول شيئاً .
هز رأسه متسائلاً فى صوت رقيق :
— أين نادية ؟!

وأحست « نادية » أن سؤاله قد اعتصر قلبها .
ولم يعد أمامها مجال للتردد .. فقد قطع سؤاله كل شك ، وأكد لها أنها ليست
« نادية » .

وازدردت « نادية » ريقها .. وبللت شفثيها الجافتين بطرف لسانها ، وقبل
أن تتالك كى تقول شيئاً .. عاد مدحت يتمتم معتذراً :
— آسف على هذا الإقلاق المبكر .. ولكنى فى الواقع لم أستطع الانتظار فى
الفندق .. ولم أعرف إلى أين أذهب ، وخيل لى أن حضورى لن يقلق « نادية » .

وساد الصمت مرة أخرى .. وبدأت « نادية » عاجزة عن النطق ، وهي تنظر إليه في ذهول .

وعاد هو يسأل في شيء من القلق :

— أستطيع أن أرى نادية ؟!

وفجأة رفعت « نادية » كفيها إلى وجهها ، وأجهشت بالبكاء .

وذهل مدحت ، وتملكه إحساس بالخوف .. وعاد يسأل الصبية المجهشة

بالبكاء في نبرة قلقة وجلة :

— هل .. هل حدث شيء ؟!

ورفعت « نادية » كفيها عن وجهها .. وبدأ لها مدحت من خلال عبراتها ،

وهو يتساءل في إلحاح :

— هل حدث شيء لنادية ؟!

وأجابت « نادية » في صوت مختنق :

— إنها ماتت .

وففر مدحت فاه .. وهو يحس كأن شيئاً في باطنه يلوى أمعائه .. وتساءل في

همس مبجوح :

— ماذا تقولين ؟!

وأجابت « نادية » في لهجة يائسة مريرة .. وهي ترقب هيكله المترنخ .. وقد

استند بذراعه إلى الباب :

— نادية .. ماتت .

وأحسن مدحت بأنه لا يريد أن يصدق أذنيه .

إن المسألة لا يمكن أن تنتهي بهذه الكيفية .

غير معقول أبداً .. أن تصل سخرية القدر إلى هذا الحد .

كل شيء كان محتملاً .. إلا هذا .

لقد خطر بباله لحظة ، وهو في السفينة .. أنها قد تكون خدعة ، وأنها بعد كل

ما تركته من أثر في نفسه قد تكون غير ذات وجود .
ولكنه لم يطف بذهنه أبداً .. أن يجدها ، وفي اللحظة التي يجدها .. يعرف
أنها قد أصبحت شيئاً غير موجود .. أنها ماتت .
وعاد يردد في ذهول ، وهو يحس بالأرض تميدت تحت قدميه :
— ماتت؟! ماتت؟

وأحست « نادية » بحركة في الداخل ، وتملكتها حيرة شديدة ، ولم تعرف
ماذا يمكن أن تفعل بعد أن قالت ما قالت . بعد أن أصابت أعز ما عندها .. في أعز
ما عنده .

وتمنت لو استطاعت أن تضمه إليها .
أن تتعلق به ، وتمسح دموعها في وجهه .. وتخبره أنها « نادية » .. وأنها لم
تمت .

ولكنها أحست أن هذا آخر ما يمكن أن تفعله .
وبدا لها أنها يجب أن تتصرف بطريقة ما .
أن تدعوه إلى الدخول مثلاً .. بدل أن تظل واقفة أمامه وهو يترنخ مشدوهاً
أمام الباب .

ولكن ماذا يفعلان في الداخل ؟
يجلسان في صمت .. لتقدم إليه فنجاناً من القهوة !
وقد يخطفىء أحد من البيت ويناديا « نادية » .
ثم ما الفائدة من إدخاله ؟ .. أمها لا تلقى أحداً ، وجدتها لا تحدث أحداً
ولكن الواجب أن تدعوه إلى الدخول .. غير معقول أن تتركه يرحل في نفس
الدقيقة التي رأته فيها .

ولكن أمعقول أنه سيرحل !؟
وأحست أنها لا بد أن تقول شيئاً .
فتراجعت خطوة مفسحة له الطريق ، وقالت في صوت يملؤه الأسى :

— تفضل .

وأجاب مدحت وهو يرفع كفه ويضغط به على جبينه في شيء من العنف ..
كأنما يحاول أن يفيق من صدمته :

— متشكر .. أظن من الخير أن أعود إلى الفندق .. لآخذ أول قطار .

وردت « نادية » في مرارة :

— ولكن .. ألا تمكث برهة .. ألا .. أعنى .. ألا تريد أن تعرف .

— أعرف ماذا؟!!

وهز رأسه كأنه غريق في دوامة ، وأردف يقول :

— لا أستطيع أن أصدق أبداً .. غير معقول .

ثم رفع رأسه وقال في حدة ، وهو يضغط على نواجذه كأنما يبذل جهداً لكي

يمنع نفسه من الانهيار :

— كيف حدث هذا؟! كيف؟! .. لقد أتيت لألقاها ، وأحدثها .. كنت

أنوى أن أقول لها أشياء كثيرة .

وصمت مرة أخرى وهو يحاول أن يكبت دمه .. ويوقف اختلاجة وجهه

الباكية .. ثم أردف يقول :

— وكنت أحس أنها تود أن تراني .

وعاد مرة أخرى يردد كالمأخوذ :

— كيف!! كيف!!

واستدار في بطاء . وسار في تناقل متجهاً إلى باب الحديقة ، وقد بدا وجهه

مكفهراً مشدوهاً .

وسارت « نادية » وراءه .. وهي تحس أنها لا تستطيع تركه ، وهتفت

متوسلة :

— تفضل .. استرح برهة .. غير معقول أن تتركنا هكذا .. ابق قليلاً من

أجل « نادية » .

واستمر مدحت في خطواته المتثاقلة ، وقد تهدلت كتفاه ، وانحنى ظهره كأنما حط عليه فجأة عبء أثقل كاهله .. وهدقواه .

وعادت « نادية » تقول له في لهجة بين الدموع والرجاء :

— إذن أسير معك حتى أوصلك .

والتفت مدحت إليها ، وزفر زفرة حارة .. ثم سأها في صوت مختنق :

— أأنت منى ؟

— أجل .

— كانت تتحدث عنك كثيراً .. كانت تحبك .

وبلغ مدحت باب الحديقة الخارجى .. وقبل أن يجتازه التفت ورائه ، وألقى على البيت نظرة شاملة استقرت على أحواض القرنفل المستقبرة على جانبيه المدخل .. ثم تتم كأنما يحدث نفسه :

— كل شيء كما وصفته .

وهز رأسه في أسى ، وهو يرفع بصره إلى الأفق .. حيث بدت سفوح الجبال تعلوها القمم .. ثم أردف في مرارة :

— كان مفروضاً .. أن نصعد الجبل سوياً .

وأطلق زفرة ، ثم تتم في يأس :

— كان مفروضاً أن نفعل أشياء كثيرة .

وهمّ مدحت بالسير . ولكنه توقف فجأة .. وتساءل في لهجة مترددة :

— هل .. هل .. أستطيع ...

ثم توقف ، وبدا كأنه يغالب نوبة بكاء .

وعندما سيطر على خلجات وجهه وكبح دمهعه .. عاد يقول :

— منى .. هل أستطيع أن .. أن أزورها !؟

ولم تستطع « نادية » أن تكبح نحيبها .. كان منظره ، وهو يكتب دمهعه .. مثيراً مروعاً .

وأجابته في صوت يقطعه النشيج :
— سأذهب معك إلى هناك .
ورفع مدحت عينيه وأخذ يرقبها في أسى وقال :
— لست أريد أن أزعجك .. صفى لى الطريق .
وردت « نادية » في إصرار :
— بل سأذهب معك .
وسارا برهة وسط الحقول ، ومدحت مطرق .. شارداً الذهن .. حتى بلغا
الطريق .. وتوقفت « نادية » برهة ثم قالت ، وهي تنحدر إلى طريق المقابر :
— إن الطريق طويل بعض الشيء .
ولم يجب مدحت ، ولكنه أطلق تهيدة مريرة ، وهز رأسه هزة المشدوه ،
وتمتم لنفسه قائلاً :
— عجيبة هذه الدنيا .. كان مفروضاً أن نظل سوياً على هذا الوادى من فوق
الجرف .
والتفت إلى « نادية » ، وتساءل قائلاً :
— ألا تقع هذه المقابر في أسفل الجرف ؟
وهزت « نادية » رأسها بالإيجاب .
وعاد مدحت يتمتم قائلاً :
— كانت دائماً تطيل تأملها من حافة الجرف ، وراء البيت المهجور ، وكانت
تقول لى إن شيئاً ما يجذبها إلى هناك .
وصمت برهة .. ثم أردف في صوت خافت ، وهو يرفع قدميه في تناقل :
— ولم أتصور أبداً .. أن هذا الشيء سيجذبها قبل أن أصل .
ولاحت المقابر أسفل المنحدر .. وأحست « نادية » عند رؤيتها بما يشبه
الغثيان .. وخيل إليها أنها توشك أن تسقط .. ولكنها حاولت التجلد .. لأنها
كانت تود أن تطيل السير معه .

كانت تحس بشيء من العزاء ، وهى تسير بجواره .. ولم ترد أن تفقد هذا العزاء .

وتمت لو طال الطريق .. إلى المقابر .. إلى ما لانهاية .. فبنهايته ينتهى سيرها إلى جواره .. وهو أقصى ما استطاعت أن تصل إليه .

سخرية عجيبة !!

أن يمنحها القدر أعز ما ترجو .. وأقصى ما تمنى .. بهذه الطريقة المذهلة . أن يجعل أول نزهة لها بجواره .. زيارة لقبرها .

أن تكون المرة الأولى والأخيرة التى تصحبه فيها .. لا يكون لها وجود إلا كمخلوقة ميتة .. لم يبق منها سوى قبر يزار .. ولم يعد لها من أمل سوى دمعة تسكب .. أو آهة تصعد .

وانتهى الطريق .

وانتهت آخر رحلتها معه .

وانتهى معه آخر أمل لها فيه .

حتى الأمل الموهوم .. الذى كانت تعدو ورائه .. لم يعد لها فيه مطمح ولا مرتجى .

حتى الكتابة .. حتى الأمنية السرايبية التى كانت تتعلل بها .. قد باتت عليها مستعصية .

كيف تكتب إليه .. يعد أن مات ؟

وبدا لها قبر « منى » .. أو قبرها .

وانحنت عليه تيكى الاثنتين .. أختها ونفسها .

ووقف مدحت فترة يحاول التجلد .. والتماسك .. وبدا المكان من حوله ،

وقد تكاثفت به الأشجار .. وكستته الخضرة .. وهبت نسائم الصباح رطبة تهز

فروع الزنبق الأبيض التى أغرقها ندى الفجر .. وتحمل عبيره فى كل هبة من

هباتها الرقيقة العليلة .

ولم يحس مدحت بوحشة المقابر .. وبدت الطبيعة من حوله وكأنها تؤنس
وحشة الموتى ، وتملكه حنين إلى الجلوس بجوار الراحلة الموهومة .. التي أحبها
وهماً .. وفقدتها وهماً ، ولم يعرف منها إلا وهماً في وهم ؟
ماذا يرضيه الآن أن يجلس إليها .. ويؤنس وحشتها ؟

إنها على الأقل أقرب إليه منه في أى وقت مضى .. إنها منه على بعد
خطوات .. ولو صدق حديث الناس عن الروح الباقية .. لكانت الآن تراه ..
وتحس به ... وتسمعه .

فلماذا لا يناجها .. ويدلها .. ويقول لها ما لم يجروء من قبل على قوله .. يقول
لها إنه يحبها .. وإنه جاء لخطبتها .. وأنه سياتخذها معه إلى مصر .
وازدرد مدحت ريقه .. وبلبل شفثيه .

وأحس بنفسه ضعيفاً .. متخاذلاً .. لا يقل ضعفاً وتخاذلاً .. عن هذه
الصبية الجاثية فوق القبر .

وهز مدحت رأسه .. كأنما يحاول أن ينفذ عنه خذله وضعفه .
وانتفض في وقفته .. كعصفور بلله القطر .
جنون .. في جنون .. وحمق .. في حمق .

ألم يكفه كل ما فعل .. من سخافات وتفاهات ؟

يفرق في حب موهوم .. ويقطع كل هذه المسافات من أجل مخلوقة .. لا
يعرف عنها إلا تصورات وخيالات .

من أجل طيف .. أو خيال .

وبعد هذا يقف منهاراً متخاذلاً .. في هذا المكان الموحش القصي .. ليهرق

كالخجولين .. ويهذى كالمجازيب !

عد من حيث أتيت ، وانس كل ما كان من أمرها وأمرك .

إنها تجربة في وهم .. فكأن أشد من التجربة ، وكن أقوى من الوهم .

رفع رأسه .. وأطلق زفرة حارة ، وهمّ بالتراجع .
وأحسّت « نادية » بحركة قدميه على الحشائش .. فرفعت إليه رأسها .
والتقت عيناه بعينيها .
وأبصر مدحت الدمع المنساب على وجنتيها .. المنزلق على زاويتي شفتيها .
وأحس بوجهها شيئاً حبيباً .. إلى نفسه .
شيئاً أذاب تجلده .. وفكك تماسكه .
وتملكته رغبة جارفة في البكاء ، واختنق صوته .. وامتنع وجهه .! . وتصاعد
الدمع إلى عينيه .
وعاد يجد نفسه ضعيفاً .. عاجزاً .
أضعف وأعجز .. من الفتاة الرقيقة الراكعة أمامه .. وانساب الدمع في
سكون على خدييه .
وتصلب في وقفته ، وعيناه تحديقان في عينيها .. والدمع ينهمر من مقلتيه في
صمت .
وفجأة ، أحس بها تندفع إليه لتدفن وجهها في صدره ، وتنكمش فيه كأنما
تحمي نفسها من خطر داهم ، أو تقى نفسه من عاصفة عاتية
ومد ذراعه يحيط به كتفها في عطف ويتحسس رأسها في حنان ، وسيل
دموعه ما يزال يتدفق من مآقيه في سكينته وصمت .
وبعد فترة ، أحس كلاهما بالهدوء .
ورفع ذراعه بهدوء عن كتفها ، وانسحبت من صدره في رفق ، وبفسها
إحساس عجيب بالقناعة .
لقد ضمها إليه .
لقد أحست برأسها على صدره .
حسبها هذا ، فقد فاق كل ما كانت تحلم به .

لقد حنا عليها ، وكفكف دمعها .
ورفعت إليه عينين تفيضان بالشكر والامتنان .
ومد يده فأمسك كفها ، وباليد الأخرى قطف أحد أعواد الزنبق ووضعها
فوق القبر ، وهمس لناذية :
— سأعود كل عام لأضع زهرة على قبرها . وعندما أعجز عن العودة ..
ضعي لى أنت الزهرة .

(٤٤)

وداع له معالم !..

غادر مدحت المقابر وكفه مطبقة على كف « نادية » .
متخذين طريقهما صوب البلدة ، وقد خيم عليهما الصمت ، وكسا
ملاحمهما الأسى والوجوم .

وكان الطريق يمتد أسفل الجبل .. وقد انبسط الوادى على يساره ، وقام
السفح المنحدر على يمينه .

ورفع مدحت بصره إلى أكداس الأشجار المتكاثفة فوق السفح .. ووصل
إلى أذنيه خرير المياه تندفق بين أخاديه وتساقط على رباه .

وتذكر جولاته مع « نادية » على السفح .. وانزلاقيهما على الجليد ،
وجلستهما على شاطئ البحيرة ، وتملكه حنين شديد لأن يطوف بكل تلك
الأماكن التي دعته إليها ، وأن يراها رأى العين .. لا رأى الوهم والخيال ، وأحس
بأنه سيطفئ برؤيتها بعض شوقه ويروى بعض غلته .

وأكثر من هذا .. أحس بأنه سيحقق لها بعض أمانها ، سيطوف بكل مادته
إليه ، وسيرى كل ما كانت تود أن تراه . سيجلس فيه ، ويتحسس حصاه
وأحجاره ، ويشم نسائمه ، ويجعل منه في نفسه حقيقة ملموسة .. لا تبهت
صورتها من ذاكرته ، ولا يمحي أثرها من ذهنه .

سيطوف بالسفح .. ويمشى على شاطئ البحيرة ، ولن يحس بنفسه وحيداً ،
فسيدعوها هو هذه المرة ، سيدعوها إلى موطنها ، إلى شجيراتنا وأزاهيرها ..
وسيجلس معها على المقعد الحجري .. وراء المنزل المهجور ليطل وإياها على
الوادى .. وعلى صفوف المقابر المنتظمة ، حيث كانت تحس بشىء يجذبها إليها ،

والتي لا شك سيحس هو إليها بنفس الجاذبية .
والتفت نصف التفاتة إلى الصبية المطبقة على كفه .. وبدا له رأسها وقد لفه
الإيشارب ، وخصلة من الشعر تتدلى على جبينها ، وياقة « السويتر » قد
أحكمت حول عنقها ، وبدت له مخلوقة قريية إلى قلبه ، وأحس لها بشعور
عجيب من السكينة والارتياح .

ولمح جانب وجهها ، فأحس برجفة تسمى في أطرافه ، لشد ما كانت تشبه
أختها .. بأرنية أنفها الدقيق ، وحواجبها المقرونة ، وخصلة الشعر المدلاة على
جبينها .

لولا هذا الإيشارب الذى شد حول وجهها ، ولولا هذا الشحوب حول
عينها ، و« الحبسة » التى فى جانب ذقنها .

ولولا أنه يعرف أن « نادية » العزيرة قد ماتت

لظن أنها هى التى تسير بجواره .

وعاد صوت الخريز المتدفق فوق السفح يضل إلى مسامعه وزاد به الحنين إلى
مراجع ذكريات « نادية » ، وملاعبها .. وسفوحها وشواطئها

والتفت إلى السائرة بجواره و« تنضح » ليجد صوته ، ثم قال فى شبه متممة :

— هل .. هل .. أستطيع أن أصعد الجبل ؟

وأحست « نادية » برجفة تهرها من أحمصها إلى أعلاها . ومضت فترة قبل

أن تتمالك نفسها لستطيع الرد .

وعاد مدحت يتمم فى شبه اعتذار :

— أنا أعرف أن هذا ليس وقته ، ولكنى أحس بحنين شديد إلى أن أطوف بكل

ما دعتنى إليه « نادية » .

وازدرد ريقه كالطفل المذنب ثم عاد يقول :

— لقد تعودنا أن ندعو بعضنا دعوات وهمية فى رسائلنا . كنت أدعوها إلى

النادى للغداء ولعب الاسكواش ، وكانت تدعونى للصعود معها إلى الجبل

والسير على شاطئ البحر ، إنى أكاد أعرف منها كل بقعة هنا . وأحس بأنى ..
وعاد مرة أخرى ليزرد ريقه .. ثم صمت برهة . وأردف يتمم راجياً :
— إنى أحس بلهفة إلى أن أرى هذه الأماكن التى دعنتى إليها . أحس بحنين
شديد إليها ، كأنى سأرى نادية فيها .

وصمت مرة أخرى ، وغلب انفعال « نادية » قدرتها على الرد . أحقأ يجب
أن يرى مراتع نزهتهما معاً؟! أحقأ سيمنح لها القدر فرصة اصطحابه إليها؟!
وعاد مدحت يتمم فى لهجة المعتذرة :

— لو كنت تسمحين باصطحابى إليها .. إنى لا أريد أن أضايقك ..
ولكن ..

يضايقها !!

يضايقها .. باصطحابها إلى كعبة أوها مها !!

يضايقها .. بمنحها فرصة العمر التى كانت تتوق إليها !!

يضايقها .. بإطالة أول وآخر لقاء ينعم القدر به عليها !!

إنها لم تحس بحاجتها إلى شيء .. قدر هذا الشيء الذى يطلبه منها .. وأن
تطوف به .. مرة واحدة . مرة واحدة .. قبل أن يتبدد كل شيء .. حتى الأمل
السرائى الذى كانت تحيا من أجله .. والأمانى الوهمية التى كانت تعيش بها فى
رسائلها إليه .

ورفعت « نادية » رأسها إليه وهى تمد يدها الخالية لتحكم الإشارب حول
رأسها وتمتت بقدر ما سمح لها انفعالها :

— لن يضايقنى أبداً .. ليس لى لدى ما أفعله .

واشدت ضربات قلبها وهى تردف قائلة بعد فترة صمت :

— ليس أحب إلى نفسى من اصطحابك ، حيث شئت .

وبدا الارتياح على وجه مدحت وهو يتمم قائلاً :

— لست أدرى كيف أشكر لك .. إنى بلا شك قد سببت لكم إزعاجاً ،

وأعتقد أن لديكم ما يكفيكم .
وأطلقت « نادية » تنهيدة .. وأجابت قائلة :
— بالعكس .. لقد منحتنا زيارتك كثيراً من العزاء .
— كانت زيارة مفاجئة .. كنت أريد أن أفاجئ بها « نادية » .. ولكن القدر
كان أسبق منى بالمفاجأة .. مفاجأة قاصمة قاضية .
— قاصمة لنا جميعاً .
— لقد كانت تعرف أنى سأتى .. وقالت لى فى آخر رسائلها إنها ربما
سافرت .

وتمت « نادية » قائلة :
— أجل .. لقد كنا على وشك السفر .. قبل أن يفاجئنا مرضها .
— لم تقل لى أبداً أنها مريضة .
— كان أمراً مفاجئاً .. نزيف فى الصدر ، لم يمهله سوى بضعة أيام .
— بلا أى سبب ؟
— إجهاد .. تجديف فى البحيرة . وعدو .. و ..
وأطلق « مدحت » تنهيدة أليمة .. وتمتم قائلاً :
— لو عجلت بالهجرة .. لاستطعت أن أمنعها .. ولما تركتها تجهد نفسها
أبداً .

وكانا قد وصلا إلى مفترق الطريق حيث يتفرع الطريق إلى طريقين : أحدهما
يؤدى إلى الجبل ، والآخر إلى البلدة .
وتوقفت « نادية » قائلة وهى تشير إلى الطريق المتجه إلى اليمن :
— هذا هو الطريق الصاعد إلى الجبل .
وبدا عليها التردد برهة .. ثم أردفت قائلة :
— أتحب أن نصعد الآن ؟
— إذا لم يكن فى ذلك ما يعطلك .. أو يجهدك .. أو يضايقك .

— أبداً .. أبداً .

ومرة أخرى بدا عليها التردد .. ثم قالت وهى مطرقة :
— ليس أحب إلي من الصعود معك .. ولكن يخيل إلي أنى كان يجب أولاً أن
أقدم لك فنجاناً من القهوة .. لقد أذهلتنى زيارتك ، إلى الحد الذى أفقدنى
القدرة على التصرف . كمخلوقة .. رشيدة عاقلة .. والأيام التى مرت بنا كانت
أياماً سوداً .. تركتنا جميعاً بلا وعى ولا إدراك .

— كان الله فى عونكم .. لا داعى للكلفة .. أنا لست غريباً .. لم أكن قط
غريباً عن « نادية » وبيتها وأهلها .. لقد كان ما بيننا شيئاً عميقاً وثيقاً .. لقد
كانت كل شىء فى حياتى .

وأحست « نادية » برعدة تسرى فى كيانها ، وبدا الخفقان فى صدرها كأنه
يوشك أن ينفذ من بين الضلوع .. وهمست فى صوت مختنق :
— وكنت كل حياتها .

وخطت تجاه الطريق الصاعد .. وكفها فى كفها .. وكأن طيراً يحملها على
أجنحته .. وينساب بها فى يسر ولين .

ووصلا إلى منحنى فى الطريق ، وتوقف « مدحت » وهو ينظر إلى درب بين
الأحراش يختصر المنحنى ويصعد مباشرة إلى الجبل .
وتساءل قائلاً :

— أليس هذا الدرب يؤدى إلى القمة مباشرة ؟

وهزت « نادية » رأسها .. وعاد « مدحت » يتساءل :

— وعلى يمينه صخرة تبدو كأنها توشك أن تنفض .

وتمتمت « نادية » كأنها تكمل قوله :

— وعلى يساره شجرة بجذعها ثنية كأنها المقعد .

وردد « مدحت » فى صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

— أعرفها جيداً .. طالما دعتنى إلى الجلوس عليها لتلتقط أنفاسنا .. وفوقها

شلال كان يبلى ثيابنا .
وأشاحت « نادية » بوجهها .. حتى لا يرى الدموع في مآقيا .. وخطت
تجاه الدرب قائلة :
— هيا بنا .

واستمر في الصعود .
ومدحت يتفقد بعينه كل بقعة في الدرب .. ويتلمس كل فرع وكل ورقة ..
كأنما يحتزنها في ذهنه ، ويحفرها في ذاكرته .
و« نادية » تسير كالمأخوذة الحاملة .. وبنفسها إحساس الذى يعيش في
معجزة لا يصدق إمكان حدوثها .. فهو أقرب إلى المذهول منها .. منه إلى
المستمتع بها .

وإحساس المهور بسنا برق .. غلب يأسه من الظلمة الموشكة بعده .. انبهاره
بسناه الخاطف البراق .

إحساس المغمور في الشفق الأحمر .. الذى يعرف ما وراء الحواشى
الأرجوانية الرقيقة من ليل معتم .. لا مفر من سواده ، ولا منجاة من وحشته
ومع ذلك .. فهو يحس بالسكينة إليه .. ولا يستطيع أن يمنع نفسه من العيش
فيه .. حتى آخر ضوء ، وحتى يجد نفسه ولا شيء حوله ، سوى الظلمة
المعتمة ، والفراغ الموحش .

وبهذا الإحساس كانت تسترق النظر إلى الشبح الطويل السائر بجوارها ،
القابض بكفه على كفها .
وكان يملؤها نحوه خليط عجيب من مشاعر الحزن والرضا ، والقلق
والخوف .

الحزن على -حزنه واللوعة على لوعته .
والرضا والطمأنينة .. مما أحسته من لهفته عليها ، وحينه إليها .
والقلق الدائم الذى كان يحيرها في مشاعره نحوها .

لمن كانت اللوعة التي أصابته !؟
لأية نادية ؟

« نادية » التي راحت ، والتي ستنعم بجزنه ولوعته . كما نعمت بحبه ولهفته !
أم « نادية » الكائنة .. الحائرة .. التي لا تعرف موقعها عنده ، ومركزها في
قلبه !؟

لمن كانت هذه الدموع الصامتة المحرقة !؟
لأية « نادية » فيهما ؟

لها هي !!

إنها قطعاً .. لا تستحق منها قطرة واحدة .
حتى دموعه عليها ، لا تستطيع أن تنعم بها .
حتى موتها ، عندما قررت ، لم تجسر على أن تأخذ ما منحها من آهات
وأنات .

كل إحساس نالته .. كانت في شك من ملكيتها له .
حتى أحاسيس اللوعة والحزن ، لا تجسر على أن تتلقاها في ثقة ، بلا حيرة أو
شك .

وكيف تثق في إحساس تتلقاه ، وهي لا تثق فيمن تكون هي بالنسبة لصاحب
الإحساس !؟

ولا تملك إلا أن تطلق إحدى زفرائها ، وهي تغل نفسها بحقيقة قائمة ، هي
الشيء الوحيد الذي لا تستطيع الشك فيه .

وهي أنه موجود بجوارها .

وأن كفها ، هي ، في كفه .

وأنها تطوف معه كعبة حبا .

تتسلق وإياه الجبل . وتسير بجواره على شاطئ البحيرة ، وتجلس معه كما تعودا
أن يجلسا سوياً في رحلتها الوهمية .

كل هذه حقائق لا جدال فيها .
أما من تكون هي بالنسبة إليه ؟
وإلى متى يمكن أن يدوم هذا ؟
فأمر لا معنى لمناقشته .

إنها هي .. هي .

وأما إلى متى تدوم .. .

فإن لحظات دوامة أقصر من أن تضيعها في التساؤل عن نصيبها من الدوام .
ووصولاً إلى قمة الجبل ، وبدا شاطئ البحيرة ، أجلس ساكناً ، قد انعكست
فيه صور الأشجار المحيطة ، تهتز في خفة ، كلما هبت نسمة ، أو سقطت فيه
ورقة .

ووقف « مدحت » يرقب المنظر في صمت المأخوذ . واسترق البصر إلى
خصلة الشعر المظلة من الإيشارب وأرنية الأنف الدقيقة التي بدت من جانب
الوجه .

وأحست « نادية » بنظراته المسترقة ، ومدت يدها في حذر تشد الإيشارب
على عنقها .

وتساءل « مدحت » في صوت خافت ، وهو يرنو إلى البيت المهجور في
الناحية الأخرى من البحيرة :

— أنستطيع أن نظوف حول هذا البيت ؟

وهزت « نادية » رأسها بالإيجاب .

وأردف « مدحت » قائلاً وهما يسيران تجاه البيت :

— أريد أن أرى الكوخ ، والمقعد الحجري .

وأردفت « نادية » تتم قوله :

— والوادي الأخضر ، والمقابر البيض المصفوفة .

ووراء الدار بدا الوادي ممتداً أسفل الجرف العميق .

ووقف الاثنان يرقبان الوادى الفسيح ، وقد بدت منه الدور والأشجار كأنها
دمى الأطفال .

وأحس « مدحت » بالغثيان ، وهو ينظر إلى الهوة العميقة ، وقد بدت المقابر
الصغيرة مصفوفة في أسفلها ، وشد على يد « نادية » هو يتراجع ، وقد بدا في
عينيه حزن عميق ويأس مرير .

وهمس بها قائلاً :

— كانت تخاف منها . كانت دائماً تحس بشيء يجذبها إليها وكانت دائماً
تحدثني عن الفارسة التي ألقى بها الجواد من هذه الهوة .

وهز « مدحت » رأسه ، وهو يكبت دموعه وأردف يقول :

— ولم يخطر ببال قط .. أنى عندما أقف ، سأجد الهوة ابتلعها ، وأجد
خوفها قد تحقق .

ودار الاثنان حول البيت وطافا بشاطيء البحيرة مطرقين حزينين . قد
أغرقهما الأسى واليأس .. ثم أخذوا في الانحدار إلى الطريق المؤدى إلى بيت
« نادية » ، ووقف الاثنان ، وخيم عليهما الصمت . وبدأ « مدحت » في انفعالة
وأساه كأنما يبحث عن كلمات يقول بها معنى للشكر والوداع .

وقبل أن يفتح شفثيه ليتكلم . قالت « نادية » في تردد ووجل :

— أما كان يجب أن أدعوك إلى البيت ، لتناول فنجاناً من القهوة ؟

وشد على يد « نادية » قائلاً :

— لا .. يكفي ما فعلت من أجلي .

— لست أشعر أنى قد فعلت شيئاً .

— كل هذا أجهدتك به ، ولم تفعل شيئاً !؟

— كنت أود أن أفعل شيئاً أكثر ، ولكنى أحس بنفسى عاجزة ، ولست

أعرف ماذا يمكن أن أفعل .

— عودى إلى البيت ، واستريحى .. لقد دفعتنى لهفتى على لقاءها ، إلى حماقة

الأطفال .. فحضرت إليكم ، وخدم الفندق ما زالوا نياماً ، والبلدة كلها لم تستيقظ بعد .. لا شك أنى قد أخرجتك بلا إفطار .

— وأنت أيضاً لم تتناول إفطارك . كان يجب أن أدعوك إلى الإفطار في البيت ، ولكن البيت يبدو مزعجاً ومشوشاً ، ولقد تركتنا الكارثة أشبه بالعجزة .. لا نستطيع أن نستقبل إنساناً . إني أشعر بالأسف لأنى ...

وقال « مدحت » وهو يهز رأسه :

— ليس هناك ما يدعو أبداً للاعتذار .. أنا أقدر جيداً ظروف الصدمة ، وسأعود إلى الفندق لآخذ حقائبي ، وأرحل في أول قطار .

وأحست « نادية » بشيء يعتصر قلبها وقالت في شيء من التردد والوجل :

— أظن أول قطار إلى « فين » لن يقوم قبل ساعتين .. أستطيع أن أدعوك إلى

تناول الإفطار في النادي . ثم أوصلك إلى المحطة بعد ذلك .

— لا .. لا .. لست أريد أن أثقل عليك أكثر من هذا . أرجوك . كفى كل

ما فعلت .

— ليس هناك أبداً ما يثقل علتى .

— ولكنى أستطيع أن أتناول الإفطار في الفندق . ثم أرحل من هناك إلى

المحطة . فلماذا أسبب لك كل هذا الإزعاج ؟

وأطرقت « نادية » وقالت في صوت مختنق :

— ليس هناك إزعاج . إني أحس أنى أفعل شيئاً من أجل « نادية » .

وصممت برهة تحاول خلالها كبت دموعها ثم أردفت تقول :

— شيئاً كانت « نادية » تتمنى لو فعلته لك .

ورمق « مدحت » الوجه الصغير الملتف بالإيشارب ، وقد ملأ الأسى ملامحه

ورفع عينين بهما نظرة رجاء وتوسل .

وملأ « مدحت » ذلك الشعور العجيب بالألفة نحو الصبية الراجية ، وأبصر

بوجهها ذلك الشيء الحبيب الأليف ، الذى يحس به كلما رنت إليه بعينها ..

ولم يملك إلا أن يطرق ثم يجيب :
— هيا بنا .

وجلس « مدحت » في النادي أمام « نادية » ، وبداله المنظر من وراء النافذة الزجاجية العريضة .. محبباً مألوفاً .. كأنما قد تعود الجلوس إليه في كل يوم .. الأسقف الحمر المنحدرة ، والمداخن التي بدأت أنفاسها تتصاعد ، والأشجار الملتفة المتكاثفة ، ووراء كل هذا جدار ممتد من الجبال ذات القمم البيض .. الجدار الذي كانت تحس « نادية » أنه يقف حائلاً بينها وبينه ، والتي كانت تتخيل من ورائه النيل العريض ينساب في هدوء ، والمزارع الخضرة تنبسط ممتدة بلا حدود إلا التقاء الأفق بالسماء .

وتتم « مدحت » وهو ينظر من الشرفة :

— كانت « نادية » تحب هذه الجلسة ، كما كانت تحب الجلسة الماثلة في نادي مصر الجديدة . كانت دائماً تقارن بين شجرة الكافور القائمة بجوار « النافورة » ، وشجرة السنديانة القائمة وراء هذه الشرفة .

وردت « نادية » بنفس اللهجة الشاردة :

— كانت « نادية » ...

وصمتت ولم تقل شيئاً ، وعادت تردد في أسى وحزن :

— كانت « نادية » .. كانت .. وكانت ..

وأحس « مدحت » أنه قد نكأ في نفسها جرحاً .. فتمتم في أسف :

— لم أكن أحب أن أملك .

وهزت « نادية » رأسها ، وهي تكبت دمعها :

— أبدأ .. إن هذا لا يؤلنى .

وانتهى الإفطار ، ووقف « مدحت » ليمديه مودعاً « نادية » ولكنها هزت رأسها قائلة :

— سأذهب معك إلى المحطة .

— لا داعى أن تتعبى نفسك .

وقالت « نادية » فى إصرار حزين :

— سأذهب معك .

وسار الاثنان فى صمت ، منحدرين فى الطريق المؤدى إلى الفندق .. وعندما

عبر اسكة الحديد . تساءلت « نادية » :

— أتسير فى الطريق الرئيسى ؟

وقال « مدحت » متهدأ :

— كما تشائين :

— مازال أمامنا متسع من الوقت . هل لديك شىء تريد أن تعمله ؟!

— أبداً لم يكن لددى هنا من شىء .. سوى « نادية » .

وكانت البلدة قد استيقظت والحوانيت قد فتحت أبوابها .

ووصلوا إلى الميدان ثم انحدروا فى الطريق المؤدى إلى المحطة .

وبنادية إحساس .. السائر فى جنازة .. المشيع لنعش .

وكانت الجنازة هذه المرة . جنازتها هى .

والنعش .. نعشها .

كانت تحس أن الحواشى الأرجوانية تنقرض ، وأن كل خطوة تخطوها إلى

المحطة .. تحملها إلى الليل المعتم الموحش الذى لا فجر له .

كان الشىء الباهر البراق يوشك أن ينطفىء ، كأنه الذبالة ترنخ فى مهب

الريح .

كانت الحقيقة الوحيدة التى استمتعت بها .. توشك على الانتهاء .

الحقيقة المؤكدة . أنها هى .. هى .. وأنه هو .. هو .. وأنهما يسيران معاً ..

جنباً إلى جنب .. ليطوفا بجنة أحلامهما .. وكعبة أوامهما .

وبعد ذلك .. لا شىء

لا حقائق ولا أوام .

لن تعود هي .. هي ..
لأنها هي .. قدمات ..
ولن يعود هو .. هو .. لأنها قد انمحت من عالمه .
ولن يعود بينهما شيء .. لا كتابة .. ولا دعوات .. ولا آمال سرابية .. ولا
أحلام براقية .

لا شيء إلا أحزانه .. على .. على من ؟
عليها !؟ أبداً ..
فالراقدة في القبر .. هي الأحق بأحزانه .. وهي الأحق بزهرته .. التي سيأتي
كل عام كي يضعها على قبرها .

يا للقدر العجيب !! يجرمها حتى نعمة الرثاء والبكاء !!
يجرمها .. حتى من زهرة على قبرها !!
وبلغ الاثنان الفندق ، وانتظرت « نادية » في وجومها الشارد وصمتها
الخزين ، حتى هبط الخادم بالحقائب .
وقبل أن يطلب منه مدحت حملها إلى المحطة .. مدت « نادية » يدها فحملت
الحقيبة الصغيرة .. قائلة :

— لا داعي للحمال .. سنحملها إلى المحطة معاً .
وحمل مدحت الحقيبة الأخرى ، وسار الاثنان إلى المحطة .
ورفع مدحت عينيه ليرقب بناء المدرسة ، وأشار إلى إحدى النوافذ وتساءل
في أسى :

— أهذه هي نافذتها المطلة على فناء المحطة ؟!
وأطرقت « نادية » وهي تغالب دمعها .
وعاد « مدحت » يتساءل وهو يشير إلى السنديانة :
— وهذه السنديانة التي تمنوع على المحطة بذراع ، وتبتهل للسماء بأخرى ؟!
وعلى المقعد الخشبي بجوار « كشك » المحطة ، استقر الاثنان وقد خيم عليهما

سكون عجيب .

وفجأة علا صفير .

وأحست « نادية » من صفيـره .. بما يشبه طرقات المعول .. على فتحة القبر .

وأقبل القطار يتهادى حتى وقف في فناء المحطة . وأقبل الحمال العجوز يحمل الحقيتين ليضعهما في القطار ، ونظر إلى « مدحت » رافعاً حاجبيه الأشيبين الكشيفين في تساؤل ودهشة :

— لم تمكث سوى سواد الليلة .. ألم تجد ما جنت من أجله !؟

وهز « مدحت » رأسه وقال كأنما يحدث نفسه :

— وجدته رحل .

ووقف مدحت .. بقامته الطويلة ، ومنكبيه العريضين ، والأسى يملأ وجهه .. والحزن يفيض من عينيه .

وشد على يد « نادية » في صمت .. وازدرد ريقه وهو يحاول أن يكبت انفعاله .

ولم يعرف ماذا يقول .

وأحست « نادية » أن الثواني القادمة هي خاتمة المطاف ، وأن أنفاس القطار اللاهثة ستحمل معها كل شيء .

وتركت يدها تستقر في راحته في سكينـة يائسة .

ومدحت و « نادية » .. واقفان في صمت عاجز ، وكل منهما يحاول التماسك والتجلد .

وفجأة .. علت دقات .

لم تكن دقات جرس المحطة ، ولكنها دقات ، تنبعث من بعيد .. دقات واضحة .. محدودة ، تنساب إلى النفس انسياباً متصلاً عميقاً .

وأحس كلاهما من الدقات البعيدة المناسبة .. بشيء يذيب قلبه .. ويفتت

فؤاده .

لقد انبعث اللحن العجيب من نافذة المدرسة .. ليصهر كل ما حاولاه من جمود ، ويهزم كل ما استعاننا به من مقاومة وتجلد .
ومرة أخرى انساب الدمع من عيني مدحت في صمت وهو يقول في صوت
مختنق :

— أتسمعين فالس الوداع ؟ كانت دائماً تطلب مني أن أسمع .

واندفعت « نادية » في نشيج هز كل بدنها .

ودق جرس المحطة مرة أخرى .. وعلا صفير القطار .. وصاح الحمّال

بمدحت :

— اصعد القطار قبل أن يرحل بحقائبك .

وسار مدحت إلى القطار محني الهامة مهدل الكتفين .

ووقف من النافذة يلوح « لنادية » .

ووقفت « نادية » ترقبه يتباعد من خلال دموعها .

وتلوح له مودعة .

وانساب اللحن المتقطع الحزين يختلط بصفير القطار .. وطرقات عجلاته على

القضبان .. والقطار يتباعد .

وأخيراً اختفى القطار .. وخفت الأصوات .

وانتهى كل شيء .

وعادت كأنها الشبح السارى ، وهي تحس أنها قد ودعت حياتها .. وكان

وداعها هذه المرة .. وداعاً له معالم .

(٤٥)

امر تكليف !..

انساب القطار بمدحت من المحطة الصغيرة واستمر يلوح للفتاة ذات الإيثارب .. وقد بدت ، وهى تلوح بيدها كتمثال للأسى والحزن واليأس .
وأخذ شبوحها يتضاءل رويداً رويداً .. ومدحت يرقبه فى ذهول .. وهو يحس أن الحوادث مرت به بطريقة خاطفة مذهلة .. وكأن المسألة كلها حلم مروع .. وود لو يتمهل القطار فلا ينتزعه من البلدة العزيزة بمثل هذه السرعة والعنف .

وود لو يتوقف القطار ليعود إلى الفتاة الحزينة الرقيقة .. ليقول لها شيئاً أكثر مما قال .. ويعبر لها عن حزنه وأسفه .. بأوضح مما فعل .
لقد فاجأها بزيارته كأنه شبوح .. ثم مضى بها فى صمت ووجوم بين المقابر .. وأخذ يجوب معها الجبل والمدينة .. ثم انساب منها إلى المحطة ، واختفى به القطار كأن لم يكن .

وتباعد شبوح المحطة بالسندديانة الضخمة ، وأخذت الأسقف الحمر المنحدرة تنكمش وتتضاءل .. واتسع الأفق وانبسط صدره ، حتى ضاعت فيه معالم البلدة .

واستقر مدحت على المقعد مجهداً ، ومضت به فترة ذهول ، كأن ذهنه قد أصابه شلل أعجزه عن التفكير ، ثم أحس بشبح يقف أمامه ، وبداله كأنه يسأله شيئاً ، ورفع إليه عينيه ، وبداه فى زيه مفتش التذاكر .
وأحس مدحت كأنه عاجز عن التصرف .. لا يريد أن يسأله أحد شيئاً أو يكلفه بشيء .

وطالت وقفة الرجل ، ومدحت مغرق في عجزه المشلول ، لا يتمنى شيئاً أكثر من أن يتركه الناس في صمته ووحده .

وتحدث الرجل .. وأحس مدحت أن عليه أن يجيب .. وأن يتصرف ، وأن يقاوم هذا اليأس المشل ، فهو يتحرك في قطار في بلد غريب ، وما زالت أمامه رحلة طويلة .. عليه أن يجابه كل ما فيها من التزامات ومشكلات ما بين مواصلات وإقامة وإبدال عملة ، و .. و ...

ومد يده في جيبه فأخرج دفتر تذاكر حصل عليه من مكتب السياحة في القاهرة ، وسلمه للرجل .

وقلب الرجل الدفتر ، ثم سأله :

— إلى أين ؟

إلى أين ؟ .. لقد كان في ذهنه برنامج لرحلة طويلة ممتعة مليئة بالأمانى الرائعة ، والآمال العريضة .

ولكنه أحس أن دعامة الأمانى ، قد تقوّضت ومحور الآمال ، قد زال .

والبرنامج الممتع قد بهت في ذهنه حتى اتمحى .

إلى أين ؟

كان المفروض أن يذهب إلى لندن لعلاج معدته .

ولكن هذا لم يكن إلا إطاراً لبرنامج وتبريراً لرحلته .

أما الغرض الرئيسي فكان « نادية » .

كان قد صمم في ذهنه .. على أن يخطبها .. ثم يسألها ماذا تريد منه أن يفعل ..

يبقى معها في « جاب » .. يرحل بها إلى سويسرا . يذهب إلى لندن ، ثم يعود إليها ، ليرجعاً إلى القاهرة .

أشياء كثيرة كان يمكن أن يفعلها ، بعد أن تقرّها هي .

ولكنها هي نفسها ، لم يعد لها كيان .

وعليه أن يقرر ، إلى أين يحمل نفسه .

لو استطاع .. لبقى حيث رقدت .
ولقد كان عليه أن يفعل ذلك .. أو يبقى على الأقل بضعة أيام .. ولكنه وجد
نفسه يفر من البلدة خائفاً مذعوراً .
والآن عليه أن يجيب ، إلى أين ؟
إلى لندن ؟

ليعالج معدته !؟ .
أحقاً ، هو يريد علاجها !؟
أيحتمل بقية الرحلة ، وملل العلاج . ورقدة المستشفى !؟
لا .. لا .

إنه يستطيع أن يعيش بمعدته كما عاش دائماً ..
ولكن ماذا يقول لهم في القاهرة !؟
يقول لهم إنها ماتت !؟
من هي ؟

الطيف الذى لم يره مرة واحدة .
ساكنة الألب التى كانت حياتها معلقة بكلمة منه .. فلما أقبل عليها وجد
حياتها قد ضاعت ، وأحلامه قد تبددت !
وكان الرجل ما يزال يقف أمامه ممسكاً بالدفتر فعاود السؤال :
— إلى أين !؟

ورفع مدحت كتفيه قائلاً فى نبرة يائسة :
— إلى جنيف .

أجل .. ليس أمامه الآن سوى هذا ينزل فى « فين » حيث هبط أول مرة .. ثم
يأخذ نفس القطار الذى هبط منه .. حتى يصل إلى جنيف ، ومن هناك يأخذ
الطائرة إلى أى مكان يستقر عليه رآيه .. إما إلى لندن .. أو القاهرة .
وانصرف عنه الرجل بعد أن أعاد إليه الدفتر

ومرة أخرى عاد إلى شروده اليأس ، وذهوله الحزين .
واستمر القطار ينهب به الأرض .. دون أن يعي شيئاً مما حوله .. ودون أن
يميز وجهاً من الوجوه المحيطة به .. أو منظراً من المناظر الأخاذة التي يمر بها القطار
وسط الجبال .

ووصل إلى « فين » .. ولم يطل به الانتظار حتى أقبل القطار المتجه إلى
جنيف .

وتحرك القطار مرة أخرى بمدحت تاركا محطة « فين » .. وهو مستلق في
مقعده في جلسته اليائسة العاجزة .. وعيناه قد شردتا بعيداً بين القمم البيض التي
تلوح وراء النافذة الزجاجية .

ولم يعد مدحت يحس بتفاصيل المراثيات .. أو يأبه لمر الزمن .. كان يجلس في
صمته الكئيب ونظره معلق بالأفق .. لا يأبه لوقوفه القطار أو لسيره .. ومرت به
المحطات .. وهو يحملق في لافتاتها بلا وعي .

واجتاز القطار « جرينوبل » . عبر الحدود الفرنسية .. ومد مدحت يده
بالجواز في حركة مستسلمة عاجزة .. وفحصه البوليس ثم أعاده إليه ..
واستغرق مدحت بعدها في سكونه المطبق .. وشروده التائه .. حتى توقف
القطار به أخيراً .. في جنيف .

وأيقظه الضجيج من شروده ، وبدت له المحطة متسعة .. صاخبة .. وتمنى لو
بقي في مقعده .. وأحس بالعجز عن التصرف وسط هذا الخضم المتلاطم من
البشر .. الخافل بكل جنس .. الناطق بكل لغة .

ومضت برهة وهو ينظر إلى الأفواج السائرة في المحطة .. نظرتة اليائسة
المكشبة .. وهو يتمنى لو أغمض عينيه وفتحهما ليجد نفسه .. على فراشه في
البيت .. أو أمام منضدة العمليات في المستشفى .

أجل .

لقد أحس بنحني إلى مرضاه ، وإلى أدوات جراحته .

إنه سيجد فيها شيئاً يملأ نفسه اليائسة الحزينة ، وذهنه المكدود العاجز .
وتسللت إلى نفسه بعض الحياة .. وأحس بالرغبة في المقاومة .. مقاومة ذلك
الشلل المعنوي الذي تركه عاجزاً مقهوراً .
ونفض من مقعده وحمل الحقيقتين بكلتا يديه .. ثم اندفع إلى باب القطار
وهبط على الرصيف .

وتناول منه أحد الحمالين الحقيقتين فوضعهما فوق عربة صغيرة .. كدّست
فوقها الحقائق ثم أعطاهم تذكرة برقميهما ، وتركه وسار بالعربة .. واجتاز
مدحت فناء المحطة ، ووقف في الصف ليستبدل بعض أوراق النقد بفرنكات
سويسرية .

وبعد لحظات كان يقف أمام أحد « التاكسيات » بحقيتيه على الرصيف وقد
توقف الحمال بجوارهما .

وسأله سائق التاكسي :

— إلى أين ؟ .

--- إلى أين ؟

كلهم يسألون إلى أين ؟

إلى القاهرة .. إلى حجرة العمليات بمستشفى الدمرداش .

هل يستطيعون نقله إلى هناك في الحال ؟!

إن مرضاه في حاجة إليه .. ليدفع عنهم خصمه وخصمهم الذي لا يجروء على
مواجهته سواه .. خصمه المروع الذي تعود الأطباء أن يهربوا منه ، ويعتلوا
مرضاهم عن مكافحته .. بالأشعة ، والكهرباء ، أو الرمال التي يدفنون فيها
رعوسهم ، وجثث مرضاهم .

ومرة أخرى سأله سائق التاكسي :

— إلى أين ؟

— إلى أقرب فندق .

- أقرب فندق لا يحتاج إلى عربة .
ثم رفع سبابته مشيراً إلى بناءين يواجهان المحطة ، وقال :
— عليك أن تختار أحدهما :
— ورفع الحمال الحقيقيين قائلاً :
— سأحملهما إلى هناك .
وسار الحمال يتبعه مدحت حتى وصل أمام باب أحد الفندقين ، وتسلم
الخدام الحقيقيين واتجه مدحت إلى مكتب الاستعلامات .
وحياه الرجل الواقف وراء المكتب في رقة .. ثم مَدَّ يده بورقة مطبوعة ليملاً
مدحت ما بها من بيانات .
وتردد مدحت لحظة قبل أن يملأ البيانات .. ثم سأل الرجل :
— هل أستطيع أن أعرف بعض المعلومات عن مواعيد الطائرات ؟!
— إلى أين ؟
مرة أخرى إلى أين ؟!
وأجاب مدحت في تردد :
— إلى القاهرة .. أو لندن .
وأشار الرجل إلى مقعد بجوار المكتب قائلاً :
— تفضل .. لحظة واحدة ، وسأخبرك بما تريد .
وقال مدحت وهو يجلس على المقعد في قلق :
— وأريد أن أعرف هل يمكن الحجز ؟!
وهز الرجل رأسه وهو يرفع سماعة التليفون .
ولم يطل حديث الرجل حتى وضع السماعة قائلاً :
— إلى لندن .. ستقوم إحدى طائرات « السويس إير » في منتصف الليل .
ويمكن الحجز فيها . على أن تنبهم خلال نصف ساعة .
ومرت بمدحت لحظة وجوم وتفكير .. وما لبث أن تساءل :

— والقاهرة؟! —

— القاهرة .. ستقوم طائرة بعد ساعة ، ولكنها كلها محجوزة .

— والتي تليها؟! —

— غداً في نفس الموعد .

وصمت مدحت ، وأشار الرجل إلى النموذج المطلوب ملؤه وأخرج مدحت

قلمه .. ليكتب البيانات .

إلى أين يذهب ؟

إلى لندن ؟

هل لديه الصبر على الرقاد ، والقدرة على الاستسلام للعلاج ؟ لا .. لا .. إنه

لا يستطيع .

إن الوحشة ستقتله .. قبل أن تشفى معدته .

إنه يريد أن يفعل شيئاً يشغله عن التردد والتفكير ، ويوقفه عن الاستسلام

العاجز اليائس .. القاتل .

إنه في حاجة إلى المقاومة .

ورقدته المريضة لن تمنحه أية مقاومة .

أما الشيء الذى يمنحه أياها .. فهو النضال ، والكفاح .

لو استطاع أن يرتدى إحدى تلك البدل الكاكية ، ويمسك بالسلاح ،

ويفعل كما فعل هؤلاء الطلبة .. الذين لقيهم قبل سفره ، لكان ذلك خير علاج

له .

أو .. إذا لم يستطع .. فليمسك سلاحه ، وليستأصل خصمه التقليدى ..

السرطان .

ودق جرس التليفون بجوار الرجل الواقف وراء المكتب ينتظر في أدب :

ورفع الرجل السماعه وأجاب متسائلاً :

— الذاهبة إلى القاهرة .. انتظر . سأرد عليك حالا .

ثم وجه الحديث إلى مدحت قائلاً :

— مكتب « السويس إير » يقول إن أحد ركاب الطائرة التي ستذهب إلى القاهرة قد أعاد التذكرة ، ويسأل هل تريد أن يحجزوا لك المحل ؟!
القاهرة ؟!

بهذه السرعة ..!!

أيمكن أن يشرق عليه أول شعاع للشمس .. بين ربوع القاهرة ؟!

ماذا يقولون عنه !.. وماذا يقول لهم .. و ...

ونظر إليه الرجل نظرة استفسار متعجل .

وبلا إرادة .. أجاب :

— أجل .

ومعدته !! لقد باتت أسوأ مما كانت .. إن الصدمة التي تلقاها ، والأحزان التي أغرق فيها .. لاشك قد جعلت القرحة الموهومة .. قرحة حقيقية .
واستمر جدله مع نفسه .. جدلاً داخلياً سلبياً .

واستمرت إجراءات السفر .. عملية إيجابية .. حجزت التذكرة ، ووضعت الحقيقتان في العربة ، وانطلقت العربة إلى المطار ، واتخذت إجراءات السفر بطريقة سريعة خاطفة .

وأخيراً وجد نفسه قد استقر على مقعده في الطائرة .. والجدل الداخلي السلبى ما زال دائراً .

أى حمق أعاده إلى القاهرة ؟

لماذا لم ينتهز الفرصة ليطير إلى لندن ؟!

لماذا تركه الصدمة عاجزاً خائراً ؟!

ولكن لماذا يستمر في السفر ؟! إنه يعرف أن أصل السفر .. كانت هي ، هي وحدها .. التي دفعته إلى هذه الرحلة .

لقد بدأت .. على الخريطة .. بالخط الذهاب من مرسيليا إلى « جاب » .. ذلك

هو الخط الأساسي في رحلته ، وبعد ذلك رسمت بقية الخطوط .. لتعطي الرحلة شكلاً مستساغاً ، ومظهراً معقولاً .

ثم .. كيف يسافر في هذه الظروف الدولية القلقة ؟
الظروف الدولية !!

ومنذ متى كان يعترف هو بالظروف الدولية .. أو يحس بها ؟!

أترى هذه الظروف الدولية القلقة ، لم تظهر له غير الآن ؟

ألم يقولوا له جميعاً : إن هذه ليست ظروفًا ملائمة للسفر ؟!

ولكنها كانت موجودة ، ومن أجلها كان يمكن أن يصبح كل شيء ملائماً .

ودار محرك الطائرة ، وأحس مدحت بالأرض تنزلق تحتها .. بدأت الطائرة

ترتفع في توده ، وأبنية المطار تنكمش وتتضاءل .. كما انكمش بناء المخططة في

« جاب » وتضاءلت شجرة السنديانة .

ولم يتسع الأفق وحده هذه المرة ، وإنما اتسعت رقعة الأرض كلها .. مبرزة

آفاقاً جديدة وراء حافة الأفق .

واسترجع مدحت بصره من النافذة الزجاجية .. بعد أن بهت ما وراءها من

معالم ، واختلط ما بها من مرثيات ، وأضحت لا تطل العين منها إلا على مساحات

ضخمة من الزرقة والخضرة والبياض .

واسترخى مدحت في مقعد الطائرة ، وأسند رأسه إلى حافته اللينة .. ثم

أغمض عينيه .

وتواترت في ذهنه .. حوادث اليوم .

اليوم .. اليوم فقط !!

أيمكن أن يكون كل هذا قد حدث اليوم فقط ؟!

أيمكن أن يكون يومه هذا .. هو نفس اليوم الذي أشرق فيه أول شعاع

عليه .. في « جاب » .. الشعاع الذي ملأ نفسه بالأمل ، والتفاؤل ؟!

أهذا اليوم هو الذي وقف فيه ليرقب من نافذة الفندق ، أول منظر تقع عليه

عيناه في « جاب » .. منظر الجبال الرائعة .. بسفوحها الخضراء ، وقممها
الناصعة !؟

أيمكن أن يكون صباح اليوم .. هو نفس الصباح الذي لم يطق من فرط ما به
من سعادة وفرح .. أن يصبر فيه حتى تستيقظ البلدة .. فانطلق كما ينطلق
الأطفال في يوم عيد .. ليطلق بابها في طيش وخفة .. حتى يفاجئها .. بزيارته ،
وحتى يكون أول شيء تقع عليه عينها في هذا الصباح !؟

غير معقول أن يكون ذلك قد حدث هذا الصباح .

إنه يبدو كأنه قد حدث منذ شهر أو سنتين .

إن حوادث كثيرة قد حدثت بحيث لا يمكن أن يتسع لها يوم واحد .

واستمرت الجوادث تترى على ذاكرته .

واستمرت الطائرة تشق الفضاء ، وأخيراً .. أغفى .

ومرت به رحلة الجو .. بين إغفاءة .. يقظى بأحلام النوم ، ونوم مثل

بأحلام اليقظة ، وهو في نومه ويقظته .. لا تفارقه اللوعة ، ولا ترجمه الفجيرة

والياس .

وأخيراً هبطت الطائرة في مطار القاهرة .

وغادر المطار دون أن يحس به أحد .. أو يميزه مخلوق .

وبعد برهة كان يطرق باب البيت ، ويقف أمام « أمه » التي شهقت

مشدوهة ، وأقبلت عليه تضمه ودموعها تنساب على خديه .

وتضحك وهو يربت ظهرها ، وينبئها أنه قد عاد فجأة لأن الطبيب الذي

كان سيعالجه قد أبرق إليه في جنيف ليخبره بأن ظروفاً قاهرة قد اضطرتته إلى

السفر إلى أمريكا .

وحمدت الله أمه على عودته ، وسألته ألا يعاود السفر مرة أخرى .. حتى

يأخذها الله إلى جواره ، لأنها لم تعد تتحمل وجيعه فرقة بعد هذا .

ولم يمكث مدحت في البيت إلا بقدر ما استحتم وأراح جسده المرهق

المكدود ، وقبل الظهر كان يصعد درج المستشفى متجهاً إلى مكتبه .
وقبل أن يستقر على مقعده وراء المكتب .. اندفع الباب وبدا « جاد الله » منه
وعلى وجهه علامات الدهشة والذهول ، وهو يهتف متسائلاً :
— ما هذا ؟! ما الذى جاء بك ؟! وكيف حضرت ؟! ولماذا لم تكتب لى ؟!
ماذا حدث ؟!

واندفع سيل الأسئلة يتدفق من شفتيه ، ومدحت ينظر إليه فى وجوم .
وأحس « جاد الله » خيفة من شرود مدحت وصمته ، وأحس من ابتسامته
الباهتة التى توشك أن تفر من شفتيه .. أن حدثاً لا بد أن يكون قد وقع .
هذه العودة المفاجئة ، والوجه الذابل ، والسيماء الحزينة . لا يمكن أن يكون
وراءها خير .

وتوقف سيل الأسئلة ، ونجا حماس جاد الله ، واقترب من مدحت فى
خطوات بطيئة ، وتساءل فى صوت خافت :
— ما بالك .. ماذا بك ؟

ورفع مدحت كتفيه فى شيء من الاستخفاف ، وأجاب وهو يحاول إعادة
الابتسامه إلى شفتيه :

— لا شيء .. لقد عدت .

— حمد الله على السلامة .

ثم صمت لحظة ، وأردف معيداً تساؤله :

— ولكن .. لماذا عدت ؟

وهبط مدحت مسترخياً على مقعده ، وعاد يرفع كتفيه بنفس الحركة
المستخفة وقال :

— عدت .. لأنى أردت أن أعود .

— ولماذا أردت أن تعود ؟

ولم يجب مدحت ، وبدا من خلجات وجهه كأنه يقاوم انفعالا يوشك أن

يفيض به ، ويغلب هدوءه ، ويقهر مقاومته .

وانحنى جاد الله أمامه فوق المكتب ، وتساءل في شيء من السخرية :

— لماذا أردت أن تعود ؟. إنك ذهبت لكي تذهب .. لا لكي تعود .. أم تراك قد ضللت الطريق إلى جاب ؟

واستمر مدحت يقاوم انفعاله ، وهو ينظر في شرود إلى جاد الله ، وأحس جاد الله أن شيئاً يضطرم في باطنه .. فازدادت انحناءته .. وتساءل في لهجة أكثر جدة .. وأشد حناناً :

— مالك يا مدحت ؟! لماذا لا تنطق ؟

و لم يجب مدحت ، وعاد جاد الله يتساءل فيما يشبه الهمس :

— هل رأيتها ؟

وهز مدحت رأسه في شرود بالنفي ، واستمر جاد الله في تساؤله الخفيض :

— لماذا ؟! أكانت قد سافرت ؟

وعاد مدحت يهز رأسه بطريقته الذاهلة .

وازدادت دهشة جاد الله ، وأخذ يلح في تساؤله :

— إذن لماذا لم ترها ! أرفضت لقاءك ؟

وانطلقت نفخة ممرورة من أنف مدحت ، واستمر صمته الواجم الحزين .

وأخذ جاد الله يرقب ملامحه ، وقسمات وجهه .

ثم طاف بذهنه خاطر جعله يبدو كأنه قد وجد الإجابة ، وانحنى على مدحت

وهو يتساءل في حذر :

— ألم تجدها ! أعنى وجدتها خدعة ؟

ورفع مدحت عينيه ، وأطلق زفرة حارة ، ثم خرجت الكلمات من شفثيه

تقطر أسي ، وهمس كأنما يحدث نفسه .

— بل وجدتها ، حقيقة ، ولكنها حقيقة زائلة .

— ماذا تعنى ؟

— وجدتها ، ماتت .
ولم تستطع مقاومة مدحت أن تحجب طبقة لامعة من أن تكسو مقلتيه ، وهو
يحدق في وجه جاد الله .

وهتف جاد الله كالملسوع :

— ماتت ! غير معقول !

وأطرق مدحت ، وأخفى جبينه وعينيه في كفه ، وبدأ رأسه يهتز .
وذهب جاد الله فأغلق الباب . وجذب مقعداً وجلس بجوار الجسد القوي ،
والملاح الصارمة ، التي رآها لأول مرة تنتحب في ضعف وخور .
وهز جاد الله رأسه كالذهول ، وهو يحدث نفسه :

— عجيب ! غير معقول .. غير ممكن .

وطرق الباب ، وربت جاد الله على كتف مدحت المهتز قائلاً :

— مدحت ، لا فائدة من هذا ، لقد كنت دائماً تكره البكاء ، والضعف ..

تجلد .

وعاد الباب يطرق ، ونهض جاد الله ليفتح .

وجفف مدحت عينيه بكفه ، وضغط على جبينه في شيء من العنف .
وبدا أحد الكتبة بالباب ، وتسلم منه جاد الله خطاباً ، ثم أغلق الباب وعاد إلى
مدحت .. وعيناه تجرى بين سطور الخطاب بطريقة خاطفة .

وهز كتفيه ثم قلب شفته السفلى .. وقذف بالرسالة على المكتب وهو يقول :

— أمر تكليف من القوات المسلحة .

وأطلق مدحت زفرة .. ثم أخرج منديله وجفف به عينيه وأنفه ، وتساءل

وهو ينظر إلى الخطاب الملقى على المكتب :

— لمن ؟

— لنا جميعاً .. أنا وأنت ورشاد ومحمود .

— وماذا سنفعل ؟

— نقدم أنفسنا لرئاسة الخدمات الطبية .

— وبعد ؟!

— أظنهم سيحولوننا إلى مستشفى الجمعية الخيرية بالعجوزة ، فقد استولى عليه الجيش .

وهز مدحت رأسه في ضيق وملل ، وتساءل :

— لماذا ؟ لِمَ كل هذه اللخطة ؟

— تنفيذاً لأوامر التعبئة .

وأطلق مدحت زفرته .. وعاد يتساءل في حدة :

— تعبئة لأجل من ؟! ألم تنته المسألة ؟! أليس مفروضاً أن يجتمعوا بعد بضعة

أيام ؟

— أجل .

— إذن لماذا كل هذه الاستشارة ؟! لماذا لا نهدأ .. ونترك أمورنا تجري في

هدوء ؟! لماذا يستولى الجيش على مستشفى كمستشفى العجوزة ، والبلد في

حاجة إلى سرير في مستشفى ؟

وأزاح مدحت الخطاب بطرف أصابعه في ضيق وقال :

— لن أذهب .

— غير معقول .

— لماذا ؟! المفروض أنى مازلت مسافراً .. إن إجازتي لم تنته بعد .

— لقد ألغوا جميع الإجازات .

— وكيف كان يمكنهم أن يلغوا إجازتي ، وأنا في « جاب » !

— الذى حدث أنك الآن في القاهرة ، ولست في « جاب » ..

— إن لدينا مرضانا وعملياتنا .. ليس لدينا وقت نضيعه .

وربت جاد الله ذراع مدحت ، وقال في رفق :

— على أية حال .. يجب أن تعود إلى البيت لكى تستريح ، إن أعصابك لاشك

مرهقة ، وأنت في حاجة فعلاً إلى الراحة .

ورد مدحت بعصبية وحدة :

— إن الراحة تقتلني .. لقد عدت إلى القاهرة .. لأنني أريد أن أهرب من

الراحة والتفكير الذي يصحب الراحة .. أريد أن أفعل شيئاً

— انتهينا .. إذن اذهب معنا إلى الجيش .

— لن أجد ما أفعله هناك .

— من يدريك !!

— ماذا يمكن أن أفعل في الجيش ؟

— تفعل ما يفعله أطباء الجيش .

— أحرر تذاكر لـصرف الدواء .

— ألا يفعل الأطباء في الجيش سوى هذا ؟

— في وقت السلم .. ليس لديهم أكثر من هذا .

ولم يملك جاد الله أن يكتفم ضحكته قائلاً :

— إذن ادع الله أن يدخلنا حرباً .. حتى تجد عملاً يريح أعصابك .

ومد جاد الله يده فجذب مدحت من ذراعه قائلاً :

— هيا بنا .. وكف عن هذا اليأس والانهيار .. قل لي ماذا حدث !؟

(٤٦)

جريح !..

مرت بضعة أيام بعد صدور أمر التكليف حتى استقر مدحت وجاد الله في مستشفى العجوزة .. وفي مساء ٢٩ أكتوبر جلس مدحت في مكتبه بحجرة الأطباء وقد بدا عليه الوجوم الطبيعي الذي كان يلازمه ، والحزن الدائم الذي كان يغرق فيه .

وهف جاد الله ضاحكا وهو يدخل الحجرة :
— وحدوه .

ولم يجب مدحت ومد ساقيه واسترخى في مقعده بعد أن فك أزرار سترته الكاكية التي استقر النسر على كتفها .

واستمر جاد الله يثرثر وهو يركز على حرف المكتب وقد ألقى الكاب على طول ذراعه فاستقر على ظهر الدولاب .
قال جاد الله متسائلا في سخرية :

— ماذا يحزنك ! ألم تجر اليوم أربع عمليات أعور ؟!
ونفخ مدحت من أنفه نفخته القصيرة الساخرة وتساءل :
— أعور !!

— شوية ؟! الحق عليك ، لماذا لم تنزع معه نصف المصارين ، والكلبي ، والمرارة ، حتى تشعر أنك فعلت شيئا .

ولم يجب مدحت وتثاءب في ملل ، ومضت فترة صمت قبل أن يقول في غيظ :

— وإلى متى تنوى أن تستمر هذه الطوارئ ؟

— احمد الله على أنك تبيت نصف الأسبوع في البيت ، إنها ليست طوارئ ،
إنها تكاد تكون نوبتجية .

— ومالى أنا والنوبيجية ؟!

— إنك رجل عسكري .. أنسيت أنك « صاغ » ، على سن ورمح . إن
الجيش في حاجة إلى خدماتك .

— لا أظنه يحتاج إليها كثيراً .. فلديهم كثيرون يستطيعون عمل الأعور .
— إذا دخلنا في حرب ..

وقاطعه مدحت صائحاً في حق :

— حرب .. حرب .. فلقتمونا .. أين هي هذه الحرب ؟! لا أكاد أرى أحداً

إلا وقد ارتدى البدلة الكاكي .. حتى الوزراء .. قد ألبسوهم « الكاكي »
وحملوهم السلاح .. وصوورهم يطلقون النيران . لِمَ كل هذه الهيصه ؟!

— رداً على هيصتهم .. كل يوم يجركون سفناً ويحشدون قوات .
وهز مدحت رأسه ورد في غيظ :

— تهويش في تهويش .

وجذب ساقيه ثم نهض وهو يتمطي قائلاً :

— سأذهب لأنام .. لا تدع أحداً يقلقنى .. لقد مررت على مرضى
جميعاً .. ولا أحد منهم يحتاج لشيء .. إلا البكباشى الذى رقد في الحجرة رقم

٩ .. إنه دائم الصراخ .. يتوهم أنه مصاب بسرطان فى الزور .

— ولماذا لا تقطع زوره ؟!

— لأنه ليس عنده سرطان .

— اقطعه من باب الشبرقة .. أنظن أن كل ما تقطعه من أزوار الناس كان حقاً

به سرطان ؟

ونظر إليه مدحت في غيظ .. ثم قال مؤكداً :

— المهم .. لا تدع أحداً يوقظنى .

— حتى ولو قامت الحرب؟! —

— لن تقوم . غداً سيجتمعون في جنيف ، وينهون المسألة .

واتجه مدحت إلى حجرة النوم .. وفي دقائق خلع ثيابه واستلقى على الفراش .
وكعادته كلما خلا إلى نفسه ، انطلق به الذهن إلى « جاب » ليطوف
بربوعها في حزن ومرارة .. حيث المحطة الصغيرة ذات السندليانة .. والسفوح
الخضر .. والقمم الناصعة .. والقبر الأبيض الذى ضم الأمنية الراحلة .. وقد
جثت أمامه الفتاة الرقيقة ذات الإيشارب .

والدقات الحزينة التى انبعثت .. والقطار يوشك أن يتحرك .. دقات
الوداع .. التى كانت تحن لها .. وترجوه أن يشاركها في الإنصات إليها .
وأخيراً .. راح في إغفاءة .

ولم يدر كم طال .. وإنما أحس بدقات ملحة على باب الحجرة .. وصوت
يهتف به :

— دكتور مدحت .

وفتح عينيه ثم ضغط على زر « الأباجورة » .. ونظر إلى الساعة الملقاة على
« الكومودينو » فوجدها ما زالت الرابعة .
وأحس أن الطارق قد حرمه من غفوة .. كان في أشد الحاجة إليها ، فصاح به
حانقاً :

— من ؟

— أنا محمود .

— محمود مين ؟

— التورجى .

— اذهب من هنا .. لعنة الله عليك .. لو عدت لإيقاظى فسأكسر لك
رقتك .. لقد قلت لكم لا أريد أن يوقظنى أحد .. حتى ...
وقبل أن يكمل حديثه .. دفع الباب .. وبدا منه جاد الله وهو يصيح :

- حتى ولو قامت الحرب ؟
وأحس مدحت: أن سيماء جاد الله تحمل شيئاً ، فنهض متسائلاً :
— ماذا حدث ؟
— لقد وقعت الحرب .
— كيف ؟
— هجم اليهود .
— يهود !!؟ أتسمى هجومهم حرباً ؟!
— اسمع يا مدحت ليس هناك وقت أن نختار لهجومهم أسماء . إن المستشفى
يعج بالجرحي .
— غير معقول ؟
— الذى حدث !
— كيف ؟ ومتى ؟!
— وصلوا بالطائرة منذ ساعة . لقد بدأ هجوم اليهود من الساعة الحادية
عشرة .. نفس الساعة التى كنت تسخر منى فيها .
— وما زلت أسخر .. وما زلت أقول إن هجوم اليهود ليس حرباً .. فالذى
أعرفه من الضباط أنهم لا يجرعون على الهجوم علينا .. لأن لدينا تفوقاً فى الجو ،
وفى المدرعات .
— اسمع يا مدحت إنهم ينطلقون الآن فى الطريق الجنوبي صوب القتال .
— غير معقول .
— لا تغل غير معقول .. لأنه حدث فعلاً ، هذه أنباء المراقبين للجرحي .
لقد هجم اليهود فى الكونتيتلا . وانحدروا فى الطريق الخالى ، وهم ينزلون قوات
بالمظلات عند مر « ميتلا » .
— ولكن كيف يجرعون على ذلك ؟! ألا يخشون من عزل قواتهم فى الجنوب
والقضاء عليها ؟!

وأتم مدحت ارتداء ثيابه وخرج متعجلاً بجوار جاد الله الذى أجاب قائلاً :
— هذا هو ما يريب فى الامر كله .

— كيف !؟

— لا بد أن يكون وراءهم سند .

— مثل ؟!

— الإنجليز والفرنسيون . غير معقول أن يقوم اليهود بهذا العمل الجرىء .. فى
هذه الظروف من تلقاء أنفسهم .. إنهم مخلب قط .

— وماذا يستفيد الإنجليز من حركتهم هذه ؟

— أى شيء .. ولو مجرد إثارة اضطراب وقلق .. يضعف مقاومتنا لهم ..
ويلهينا عن كفاحهم .. وتجعلنا أميل إلى أرضائهم .. وتجعلهم أقدر على
كلفتنا .

— على أية حال ، سنقضى على اليهود قبل أن ينالوا مرامهم ، فأغلب الظن أننا
قد تعودنا على هذه الألاعيب الإسرائيلية .

واتجه مدحت إلى حجرة العمليات . وهو يحس بالضجيج والصخب من
حوله ، وقد بدا المستشفى أشبه بالسوق .. وقد اختلطت فى ردهاته الأناث
بالصرخات .. وبدا كل إنسان يتحرك فى عصبية وعجلة .. وكل إنسان يطلب
شيئاً أو يرجو شيئاً .. ولا أحد يعرف بالضبط ماذا يفعل .. ولا لمن يفعل .

وعلى طول عهد مدحت بالجراحة .. وعلى فرط تعوّده منظر الدماء
والجراحات .. فقد أحس بدوار وهو يرى منظر الأجساد المرصوفة ..
بوجوهها المعفرة وجلدها الممزق .. وأطرافها المبتورة .

ونفض مدحت عن رأسه دواره .. وأقبل على عمله .. بطريقته الجبارة ،
وقدرته الخارقة ، وجلده العجيب .

ومضت به الساعات الطويلة فى عمل متواصل .. حتى أحس أن قدميه لم
تعودا تقويان على حمله .. وأن يديه توشكان على التصلب .. وطلب مقعداً ،

ليجلس عليه في غرفة العمليات كي يواصل إخراج الشظايا ورأب الجروح ..
ورم الأشلاء .

وعندما غادر حجرة العمليات ، كانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً ،
وكان العرق يتصبب من جبينه ، وعلامات الإعياء قد بدت على وجهه .

وفي الردهة ، التقى بجاد الله .. وقد كسا الجد وجهه وبدا مهموماً مخزوناً .

وحاول جاد الله أن يغلب طبيعته المرححة على الجو المشحوب بالجروح والأنات

والكد والإرهاق ، فقال متضحكا :

— ميسوط .. أظن ليس مثل هذا شغل !

واتجه الاثنان إلى حجرة الاستراحة ، وقال جاد الله :

— أقرأت الصحف ؟ .

وهز مدحت رأسه وأجاب :

— لم أترك غرفة العمليات من الساعة الرابعة حتى الآن . ماذا بها ؟

— كل الأنباء التي رويتها لك .. وزاد عليها ، أن قواتنا الجوية .. دقتهم

بعنف ، وأن هجومهم على « أبو عجيله » قد صد بعد أن كبدتهم خسائر

فادحة .

ومد مدحت يده فتناول إحدى الصحف الملقاة على المنضدة وقرأ العناوين

الرئيسية ، ثم ألقاه جانباً واسترخى في إعياء .

وقال جاد الله :

— ألا تريد أن تتناول الإفطار ؟ .

وهز مدحت رأسه بالنفي ، ثم قال :

— لا أريد إلا أن أستلقي على ظهري .

— ولكن لا بد أن تأكل .. سأمر « بيومي » أن يعد لنا إفطاراً .

وقبل أن يدق جاد الله الجرس أقبل ممرض يطلب الدكتور مدحت .. ونظر

إليه جاد الله قائلاً :

— قل لهم إنه عاجز عن الحركة ، وإنه يريد أن يستريح .
ولكن مدحت قال للمرض :
— لا تقل لهم شيئاً . انتظر .. سأتى معك .. إن الراحة تستطيع أن تنتظر ..
ولكن الموت الذى يقف بباب غرفة العمليات لا ينتظر أبداً .
ثم وجه الحديث إلى جاد الله :
— لقد أجريت عمليات لعشرة جرحى .. ثلاثة منهم قد يموتون .. ولكن
السبعة قد أبعدت عنهم موتهم مؤكداً .
واتجه مدحت إلى غرف الجرحى .
وقبل أن يجتاز الباب أبصر جثة الجريح الذى استدعوه من أجله . وقد رقد على
النقالة وغطى بملاءة بيضاء عليها بعض بقع الدماء .. وأبصر وجه الجريح ، وجهاً
وسيماً ، لم تشوّهه حروق .. ولم تمزقه شظايا .
ورفع إليه الوجه عينين مجهدتين بدت منهما نظرة صداقة وألفة . وابتسمت
الشفتان الجافتان ابتسامة باهتة .. وسمع مدحت من فم الجريح تحية خافتة :
— صباح الخير .
وأجاب مدحت نظرة الجريح بابتسامة رقيقة لم يألفها منه مرضاه .. ورد عليه
تحيته فى وداد قائلاً :
— صباح الخير .
وأحس مدحت أن الوجه الوسيم مألوف لذاكرته .. ولكنه لم يجد هناك من
وقته أو من فراغ ذهنه ما يساعده على التذكر .
واستقرت النقالة وسط الغرفة .. وعاد الجريح يرفع عينيه الذابلتين ويهمس
بصوته الخافت :
— أنا أعرفك يا دكتور مدحت .. أعرفك من نادى مصر الجديدة .
— أهلاً وسهلاً .. أنا أيضاً أحسست أننى قد رأيتك من قبل .
— أنا اليوزباشى عصام الشافعى من سلاح الفرسان .. لقد كنت فى القسيمة

عندما هاجمنا اليهود .

ورفع مدحت الملاعة البيضاء الملوثة بالدماء .. وبدت ساق عصام ، وقد لفت بكوم من القطن والشاش .. وقد مزق عنها « البنطلون الكاكي » .
وبدأ مدحت في فك الأربطة .. وعصام يعرض على نواجده ويزدرد ريقه ..
ويقول في محاولة للتجلد :

— أظنها شظية مورتار . لقد أخطنا بالدائرية اليهودية ، وأوشكنا نفتك بها .. عندما أحسست بانفجار قريب .. فاستلقيت على وجهي .. وظننت نفسي تجنب الشظايا . ولكنى أحسست بشيء كالسكين يمزق ساقى ..
ووجدت الدم ينزف .. لقد نزف كثيراً .. حتى كدت أفقد وعيى .
وكشف مدحت عن جرح عميق طويل .. وأخذ عصام يليل شفثيه ، وهو يقول متسائلاً في نبراته الضعيفة :

— أظن الشظية ما زالت موجودة ؟

وهز مدحت رأسه ، وهو يقول :

— سنرى .

وعاد عصام يتساءل في شرود :

— هل .. هل .. هل ستعطينى بنجاً ؟

— طبعاً

ثم أردف مدحت ضاحكا :

— إني لست جزّاراً .

وابتسم عصام ابتسامته الباهتة .. وهو يقول :

— إنهم يدعونك كذلك .. لقد عرفت هذا من صبرى محمود .. إنه تلميذك

وهو صديقى جداً .

وأجاب مدحت :

— لقد رأته مرة بالبذلة « الكاكي » .. لقد تطوّع في الحرس الوطنى ..

وترك الطب .

وأعاد مدحت الغطاء على الجريح .. والتفت إلى طبيب البنج متسائلاً :

— جاهز ؟!

— أجل .

وقبل أن يقترب الطبيب بالحقنة المخدرة .. مد عصام ذراعه ودفع يده في جيب قميصه الكاكي .. وأخرج محفظة صغيرة .. وقال وهو يخرج منها بضع وريقات :

— لى عندك رجاء يا دكتور مدحت .. لو استطعت أن تبلغ النبا إلى أمى بطريقة سهلة مخففة تكون قد أسديت إليّ جميلاً لن أنساه .. إني أخشى أن تبلغها بطريقة مفاجئة مزعجة ، والأمر كما ترى ليس به ما يزعج .. وهى مصابة بالذبحه .. وقد يقضى عليها .

وصمت برهة ثم قال :

— أنت تعرف الأمهات يا دكتور .

وأطرق مدحت .. وتذكر أمه وهى تضمه باكية عندما عاد .. تسأله ألا يتركها قبل أن يأخذها الله إلى جواره .
وقال مدحت فى صوت خافت :
— أعرفهن جيداً .

— ليس لى فى الحياة غيرها .. وغير خطيبتى ، وخطيبتى لحسن الحظ .. لا توجد الآن فى مصر .. لأنها تقيم فى « جبال الألب » بفرنسا .. ولا أظنها ستعود إلا بعد أن أكون قد استطعت السير .

ومد عصام يده ببطاقة وصورتين .. وأردف قائلاً :

— هذا هو عنوانى .. إنه لا يبعد كثيراً عن منزلك .. فى نفس المنطقة وراء النادى .. وهذه صورة أمى ، وخطيبتى إنهما سبب حرصى على الحياة .
وتناول مدحت الأوراق من عصام .. ولم يحس فى نفسه رغبة للتطلع إلى

الأوراق والصور .. ولكنه ألقى عليها نظرة حتى يرضى الجريح المتطلع إليه في رجاء .

وكادت صرخة دهشة تفلت من شفتيه عندما أبصر صورة الخطيبة .. وأمسك بها كالمشدود ، فاغراً فاه ، جاحظاً عينيه .. وقيل أن ينطق حرفاً كانت إبرة المخدر قد دفعت في ذراع عصام .. وفي ثوان كان عصام قد أطبق عينيه وسقطت ذراعه إلى جانبه .

وأحس مدحت بالمرضة وطبيب البنج يرقبان دهشته .. وحملته في الصورة .. فندسها في صمت في جيب المريلة واتجه إلى غرفة العمليات .

ولم تغادر الصورة مخيلته .. وهو يجرى مبضعه في ساق الجريح .. كانت نفس الصورة الجانبية التي صوّرتها « منى » أول مرة عند مصوّر « جاب » .. والتي أرسلتها نادية لمدحت على أنها صورتها .. عندما سألتها أن تكف عن إرسال صور الطفولة التي تعودت إرسالها .

ولم يستطع مدحت أن يوقف تفكيره المدهول .
إنها هي « نادية » بعينها .

« نادية » التي كتبت إليه كل تلك الرسائل .

« نادية » .. التي أرسلت إليه أول مرة لتقول إن حياتها معلقة برده .

هل كانت طوال ذلك الوقت ، خطيبة هذا الجريح الذي يعتبرها السبب الأول

في حرصه على حياته ؟!

لماذا لم تخبره عنه ؟!

ترى أيهما المخدوع .. هو .. أم الخطيب ؟!

غير معقول أن تكون قد خدعته .

وغير معقول أيضاً أن تكون قد خدعت الآخر .. لأنه لا يتصور أن مثلها

يمكن أن يعبث أو يخدع .

ولكن .. ما فائدة كل هذا ؟!

ما قيمة أن يعرف من يكون المخدوع فيهما؟!
إذ كانت هي قد تركتهما وولت .
ولكن هذا الجريج الراقد .. لا يعرف أنها ماتت .
أجنى .. إن أنباء موتها لم تبلغه بعد
وخرج مدحت من حجرة العمليات .. يسير في الردهة ذاهلاً مشدوهاً ..
ويده تتحسس الصورة في جيبه .
وعندما وصل إلى حجرتة .. أخرج الصورة مرة أخرى ليتأكد من أن بصره
لم يحدده .. وأن الصورة الراسخة في ذهنه لم تفرض ملاحظتها على الصورة التي
سلمها إليه عصام .
وكانت الصورة هي . هي .. الشعر المعقوص .. والأنف الدقيق .. والوجه
الساحر .

وأمسك جيبته بأصبعه .. وضغط عليه كأنما يحاول منعه من الانفجار ..
وأقبل عليه جاد الله ، فروع من منظره ، وسأله في فزع :

— ماذا بك ؟

— لا شيء :

— إنك مجهد جداً .. لا بد أن تستريح .

— لست مجهداً .

— ماذا بك إذن ؟

— ومد مدحت يده بالصورة .. قائلاً :

— إنى أكاد أجنى .

— ودهش جاد الله من الصورة وتساءل :

— ما هذه ؟

— صورة نادية .

— ما الذي أحضرها ؟

- وجدتھا فى جيب الجريخ الذى ذهبت لأنزع الشظية من ساقه .
— فى جيب الجريخ ؟
- أجل .. إنه يعرفنى من النادى .. وقد سلمها لى هى وصورة أمه ...
وسألنى أن أبلغ نبأ إصابته لأمه بطريقة مخففة .. خشية أن يصدمها النبأ .
- وما دخل صورة نادىة بالموضوع ؟
— إنها خطيئته .
— خطيئة من ؟
— خطيئة الجريخ .. يوزباشى بسلاح الفرسان .
— غير معقول !!
— لقد قال هو هذا .
— ربما كان يهذى .. ألم يكن محموماً ؟
— لا .. لقد كان فى وعيه .
- ولو .. هل تستكثر على جريخ فى معركة أن يهذى ، حتى ولو كان فى وعيه !
- ولكن كيف وصلت إليه الصورة ؟
— من أى طريق .. من صديقة لها .. أو من إحدى قريباتها .. هل تظن صورتها قد حرمت إلا عليك ؟
وهز مدحت رأسه فى تشكك .. قائلاً فى يأس ومرارة :
— لا .. لا .. إن المسألة ..
وقبل أن يتم قوله .. دفع الباب ، ودخل أحد المرضين يحمل رسالة .. ومد بها يده إلى الدكتور مدحت .
ونظر إليه مدحت فى ذهول .
كان نفس الظرف اللبنى ذى الخطوط الزرق .. الذى تعود أن يتسلمه من « نادىة » .

وقرأ العنوان بنظرته الذاهلة .

فوجد نفس الخط الذي تعود أن يقرأه .

وهز جاد الله رأسه متسائلاً :

— ما بك ؟

— رسالة من « جاب » .

— وماذا في ذلك؟! لا شك أنها من أختها « منى » .. تشكرك على

زيارتك .

وأطرق مدحت هامساً في لهجة خذلان :

— أجل .. أجل .. كان يجب أن أتوقع ذلك .. ولكنى ظننتها رسالة منها

هى .. إن إعصاني لم تعد تختمل . إني في حالة غير طبيعية .

وأمسك بالرسالة بعد قراءة عنوانها .. وعاد يقول في صوت خافت

متشكك :

— ولكنه .. أعنى أنه نفس الخط ؟

— ولم لا؟! أليستا شقيقتين .. إن كل عائلتنا خطوطها متشابهة .

وصمت جاد الله ثم أردف متضحكا :

— عدا أمتي طبعاً .. لأنها لا تعرف الكتابة .

ولم يضحك مدحت ، فقد كان ينظر إلى الرسالة مشدوهاً ، وقال جاد الله :

— لماذا تنظر إليها كأن بها عفريتاً! . لماذا لا تفضيها ؟

وأمسك جاد الله بالرسالة .. وهم أن يفضيها .. ولكن مدحت أطبق عليها .

ونظر إليه جاد الله في دهشة قاتلا :

— إن بك فعلاً شيئاً غير طبيعي ، فضيها يا أخي واسترح .

وأمسك مدحت بالظرف . فقطع حرفه .. ثم أخرج الرسالة الزرقاء الرقيقة

من داخله .. وهز رأسه وهو يلمح خطها .. وهمس قاتلاً :

— نفس الخط .

ثم قرأ أول جملة « مدحت العزيز » .
وأحس برجفة تسرى في بدنه .
نفس النداء الذي كانت تبدأ به « نادية » رسالتها .
وقبل أن تفحص عيناه ما تلاها من كلمات ، قلب الرسالة وقرأ الإمضاء .
وهتف مشدوهاً :
— إنها من نادية .
وأجاب جاد الله وهو يهز رأسه :
— ربما أرسلتها لك قبل موتها .
وقرأ مدحت التاريخ . فإذا به ٢٦ أكتوبر .. نفس اليوم الذي غادر فيه
« جاب » .
وفي ذهول بدأ مدحت يقرأ الرسالة !

(٤٧)

في موضعها

مدحت العزيز ... آجل .. أنا « نادية » يا مدحت .
أعرف أني أذهلك بقولي .. كما لا شك قد أذهلك خطي على الظرف وتوقيعي
في نهاية الرسالة .

أنا نادية .

« نادية » الأصلحة .

« نادية » التي كتبت إليك أول مرة تتلطف منك على كلمة ترد غربتها وتؤنس
وحشتها .

« نادية » التي أحبتك .

أقولها بلا تردد ، ولا حياء .

أقولها وأنا أجدس بمتعة في ترديدها .

أقولها بلا خوف من لوم .. أو خشية من تأنيب .

أنا « نادية » التي أحبتك بكل جارحة ، وفي كل لحظة .

في يقظتها .. وفي أحلامها .

في أحلك ساعات يأسها ، وفي أبهى لحظات آمالها .

« نادية » التي أحبتك .. بأقصى ما يملك الإنسان من قدرة على الحب ،
وأشد ما يختلج بين جوانحه من أحاسيس .

« نادية » التي ركزت في شخصك كل أمانيها ، وأحلامها .

منذ أن بدأت تتمنى ، وتحلم ، وترجو .

« نادية » التي وضعتك دعامة .. لقصور أوهاماها . وشيدت على حبا .

لك .. كل ما يأمل الإنسان في حياته .. من سعادة ، ونعيم
« نادية » .. التي كانت ترقبك ، وهي قائمة في مقعدها في النادي .. في
صمت حالم وسكون ممتع .

« نادية » .. التي مارس فيك قلبها .. أول تجارب حبه ، وآخرها ، والتي أطلق
قلبها من أجلك .. أول خفقة ، وظل لا يخفق إلا لك ، ولا يهتف إلا باسمك ، ولا
يهفو لغير طيفك .

أنا « نادية » الحقيقية .

أكتب إليك رسالتي الأخيرة .

والتي كان مفروضاً علي ألا أكتبها .. لأنني بت في نظرك ميتة ، والموتى .. لا
يتحدثون ، ولا يكتبون .

أكتبها إليك .

لم تدفعني إليها لهفة عليك .. رغم وجودها .

ولا أمل في عودتك ، رغم تمنيه .

وإنما .. أكتب .

لأنصف نفسي ، ولأضعها في موضعها الحقيقي عندك ، ولأمنحها منك
الإحساس الحقيقي الذي تستحقه .

لست أدري من أين أبدأ !

فلا أظن من السهل نعلتي في جلستي هذه ، أن أركز ذهني ، وأهدئ
مشاعري وأرتب أفكاري .. بحيث أشرح لك كل ما أود شرحه ، وأبرره لك
التبرير الصادق الذي يقنعك به ، وينصفني منه .

أتدري كيف أكتب إليك !؟

هل تعرف شاطئ البحيرة !؟

تعرفه بالطبع ، وتعرف البيت الخرب ، والكوخ المظل على الهاوية .. تعرف
كل ذلك .. معرفة الرأي لأ معرفة المستمع .

وتعرف أيضاً .. ذلك المقعد الحجري .. القابع وراء الكوخ ، والذي
جلست عليه بجوارى .
أجل بجوارى أنا .
أنا « نادية » ، ولست « منى » .
جلست بجوارى .. وفي الحقيقة .. لا فى دعوة واهمة .
من يصدق هذا ؟!
من يصدق أنى جلست وإياك فعلا على هذا المقعد الحجري ؟!
وأنا حدثنا سوياً .. فى هذا الفراغ الهائل .. الذى تبدو فيه المرثيات كأنها
الدمى ، والتي تصطف فى أسفله القبور كأنها رقعة شطرنج .
ولكن لماذا أخلط فى كتابتى ؟!
لماذا أبدو كالمجموعة المأذية ؟!
لماذا أتحدث إليك كأنك تعرف كل شىء ، وكأنك قد اقتنعت ببساطة .. أن
التى صحبتك فى جونتلك البائسة بالجيل والتي ضممتها إلى صدرك فوق المقبرة ..
هى « نادية » ؟!
لماذا لا أتمهل وأشرح لك جلية الأمر فى سكينه وهدوء !!
ترى من أين أبدأ ؟!
من بعيد .. بعيد .
مذ كنت فى القاهرة .
عندما قرر أبى السفر إلى « جاب » ، وحضرت مع « منى » إلى النادى ..
لأودعك .. أودعك من بعيد ، وداعاً كما وصفته للعجوز « بيتر » .. بلا معالم ،
ولا تفاصيل ولا ذكريات .
وعدنا إلى البيت لنتم حزم الحقائق ، وتناول الغداء .
وفى تلك الظهره .. وقع الحادث المشعوم .. حادث الحريق ، والذى كانت
نتيجته .. تشويه عنقى ، وموت أبى .

هل تعرف .. أننى فى الليلة السابقة الحريق كنت أجلس مع « منى » ..
واتهمتنى بالعجز ، والسلبية .. وكادت تطلبك لكى تعودنى .. مدعية أنه قد
أصابتنى نوبة أعور !
وأنى تمنيت فى تلك الليلة لو أصبت فعلا « بالأعور » لكى تمنحنى العملية
فرصة رؤيتك والحديث إليك .

هل تعلم أننى فى اليوم التالى كنت أرقد فى إحدى حجرات المستشفى .. بعد
إصابتى فى الحريق، وكنت أنت تقف أمامى فى نفس الحجره !! ومع ذلك لم أتمن
شيئا فى حياتى .. كما تمنيت أن يعيدك الله عنى .. واستجاب الله دعائى .. ولم
يطل بقاءك أكثر من ثوان ، ثم استدعوك لتعود أحد مرضاك وتركنسى
لمساعدك .

وتنفست الصعداء يومذاك .. وأنا أرقد أمامك والأربطة البيض تحجبني
عنك .
لقد كنت أكره أن يقع على بصرى لأول مرة وأنا مسلوخة الوجه ، محروقة
الجلد .

وفى اليوم التالى هربت من المستشفى .
نجوت من الطامة الكبرى .. وهى رؤيتك لى .
ترى هل تذكرنى ؟
هل تذكر تلك الفتاة المحترقة الملفوفة بالقطن والشاش .. التى وقفت أمامها
بضع ثوان .. ثم تركتها؟!
إذا كنت تذكر الفتاة .. فهى أنا. أنا « نادية » .
« نادية » التى كانت تتلهف على أن تتخلى عن نصف عمرها كى تراك
وتتحدث إليك .
وعدت إلى البيت .
ومات « أبى » .

وزالت آثار الحريق من وجهي .. بفضل عملية نزع الجلد التي أجراها لي .
مساعدك والتي كان مفروضاً أن تقوم بها أنت .

لولا أن أزاحك القدر .. أو أزاحني .. من طريقك .
زالت آثار الحريق من وجهي ، ولكنها بقيت في عنقي . وأخذت أرقب
نفسى فى المرآة ، وأتخيل كيف يمكن أن أبدولك .

وخشيت نفورك منى .. من عنقى المحترق .. وجلدى المستوه .. ووضعت
الإيشارب حول عنقى أخفى ما به من تشويه ، وأحسست بأن خيط الأمل
الواهي .. الذى كنت أتعلق به قد قطع .. وأنه قد تحم عليّ .. أن أجعل منك ..
مجرد طيف ، لا أمل فيه .. إلا كأمنية مستحيلة .. جل غابتي منها .. أن أعيش
بالتفكير فيها .. زمناً رعداً .

ورحلنا من القاهرة .
وكنت أول الراغبين فى الرحيل .
كانت بنفسى رغبة فى الفرار .. الفرار من أمنيى المستعصية .. وأملى
الضائع .

ووصلنا إلى « جاب » .
وبدأت أحيًا . حياتى المنطوية اليائسة ، حتى خطر لى ذات مرة أن أكتب
إليك .

وكتبت رسالتى الأولى .. دفعنى إلى كتابتها .. فرط الحنين ، وشدة اليأس ،
وطول الوحشة .

وكتبت إليك أقول إن حياتى معلقة بردك .
ولقد كانت فعلاً كذلك .

ولو لم تكن لما جرؤت أن أكتب إليك .
ووصلنى ردك الأول .

وأحسنست بعد ذلك .. أنى بدأت مرحلة جديدة من عمرى .. مرحلة

عشتها كالفراشة الطائرة .. أهيمن بين أنضر ورود الأماني ، وأعطر أزاهير الأحلام .

كنت أحياء .. في أمل بلا حدود .

كنت أتوهم أنني يمكن أن أظل وإياك .. كما نحن .. بعلاقتنا الهوائية الحاملة .. التي لا تقف في سبيلها عراقيل أو سدود ، وكنت أحس بأني قد بت أعني في نفسك شيئاً .

أجل .. لقد أضحي لي .. مع الزمن .. موقع في نفسك . فانطلقت أهيمن في نعيمي الجديد .. بلا أي تفكير في نهايته ، أو تحديد لبغائتي منه .. أو أنلى فيه .
و كنت طوال تلك المدة .. صادقة مع نفسي .. صادقة في كل ما يربطني بك .

و لم يكن هناك ما يؤلمني .. سوى الإحساس في بعض الأوقات بأني أحياء .. بطريقة الهيمان .. أو كما قلت لك أحلق كما تحلق الفراشة .
لم أحس أبداً .. أنني أقف على قدمي ، وأني أستقر على أرض صلبة ، يمكن أن يحدد فيها طريق ، وأن يوصل الطريق إلى شيء .
أبدأ .. كانت كل حياتي .. هياماً وأحلاماً .
وفي معظم الأوقات لم أكن أضيع بحياتي .. بل كنت قانعة بها .. راضية عنها .

عدا هنيات متقطعات .. من اليأس .. أرتطم فيها بصخور الحقائق .. فأفكر .. وأحزن .. ثم لا ألبث حتى أهيمن مرة أخرى .
ثم خدعت أول خديعة

انسقت إليها .. بطريقتي .. الهادئة المتسللة .. التي تتجنب كل المقاومات .. حتى تصل إلى غرضها .

لقد طلبت مني صورة حديثة لي .

أتذكر !؟

إذا كنت لا تذكر فأنا أذكر جيداً .
عندما قلت لى . هل بطلت موضة التصوير عندكم؟!
لماذا لا تكفين عن صور الأطفال التى ترسلينها .. وترسلين لى صورة لأراك كما
أنت .. حتى أستطيع أن أصحبك إلى الأوبرا دون أن أخشى أن تنامى منى وأن
أعود بك على كتفى .
ولم أكن أستطيع أن أرفض طلبك .. لأنه لم يكن هناك فى رفضه عذر .
ولم أكن قد صوّرت منذ الحريق .
وكنت أكره أن أصوّر .
ووجدتها مشكلة فى بادئ الأمر .
ولكنى صحبت « منى » ، وصوّرت .
صوّرت بالإيشارب الذى رأيتنى به .. والذى عدوت لأشده به عنقى عندما
فوجئت بك على الباب .
وصوّرت « منى » يومذاك .
وعندما جلست لأرسل إليك الصورة .. كرهت منظر الإيشارب .. وبدا
لى أنك ستسألنى .. عما وراءه .. إذا استمررت على ارتدائه فى كل صورة .
بل لقد بدا لى كأنك ستكشف ما وراء الإيشارب فى الصورة ، وأنتك
سترى عنقى المشوّه ..
وأنتك قد لا تكتب لى .
وأحسست بأنى أوشك أن أختنق .
وببساطة .. مددت يدى وأمسكت بصورة « منى » .. ووضعتهما مع
رسالتى فى الظرف
ومن يومها .. بدأت خديعتى لك .. وبدأ شكوكى فى نفسى .
وكتبت لى بعدها لتقول لى لى جميلة .
وساءنى هذا . وأحسست بالغيرة من « منى » .

ولكن لم يكن هناك بد من الاستمرار في الخديعة .. وابتعت آلة تصوير ..
وبدأت هوايتي في تصوير « منى » .
وكنت أكره كل مدح لك في شكلي .
لأنني كنت أعلم أنه لا يخلصني .
وأني شيء ، وشكلي شيء آخر .
وأخذت تتصارع في نفسى كل الأحاسيس وأنا أحس أني دفعت بإنسان آخر
ليشارككني في حبك .
ومع ذلك فقد بدأت أعتاد المسألة .
وأقنعت نفسى بأني أنا .. في نظرك .. هو أنا .
وأنتك تحبيني أنا .. صاحبة الرسالة .. التي تناجيك وتناجيه .. وأنا ما دمت
لا آمل في لقاء .. فلن يكون هناك خوف من أن ينافسني أحد .. لأنني سأظل
أمامك .. مجرد روح أو حلم .
وكان يمكن أن يستمر الحال .. كما هو .
فأنا نفسى قد رضيت عنه ، ولم يعد به ما يقلقني .
فما دمت قد استبعدت شكلي من أول الأمر .. فلا داعي لأن أدخله في
منافسة .. أو أجعله سبب غيرة .
حتى كتبت إليّ لتقول لي .. إنك قادم .
وهنا أحسست أن المسألة قد أضحت خطيرة .
وأنه قد بات عليّ أن أواجه أحد أمرين :
إما أن أعترف بالخديعة .. وأريك شكلي الحقيقي .. وأفقدك .
وإما أن استمر في الخديعة .. فأجعل « منى » تلقاك .. وتقوم بنفس الدور
الذى قامت به صورتها .. وتمثل أمامك دور « نادية » ، حتى ترحل .
ثم نعاود بعد ذلك .. علاقتنا الأصلية معاً .. علاقة الكتابة .. والأحلام
والأوهام .

و كنت حمقاء في تفكيري .
ولكن الأنايية أحيانا تدفعا .. لأن نشكل كل شيء حسب رغباتنا . حتى
رغبات الغير .. ومشاعره .. وأمانيه .
كنت أتخيل أنك يمكن أن ترضى .. عن علاقتنا بالطريقة التي رضيت أنا بها .
كنت أتوهم أنه يمكن أن تأتي إلينا .. وتراني .. أعني ترى « منى » ، ثم تعود
لتكتب إلي ببساطة .. كما كنت تكتب :
لم أتصور قط .. أن العلاقة الهوائية كأى علاقة في الدنيا لايد أن تنتهى إلى
شيء .

لا بد أن تنتهى .. إلى حقيقة .. أو تتبدد .
لم يخطر لي هذا بيال قط .
كنت أتعلق بك .
و كنت أعرف .. أن في تحقيق الأوهام .. ضياعك منى
ولذلك .. كان علي أن أشكلك حسب ما أهوى .
واتفقت مع « منى » على أن تلباك .. كأنها « نادية » .
ولكن خذلتنى .. وماتت .
وأظنك تعرف جليا .. كيف أوجعنى موتها ، لقد كانت جزءاً منى .
أتدرى كيف يحس الإنسان .. عندما يقتطعون نصفه .. ويتركونه نصف
إنسان ؟!

لقد أحسست بهذا الإحساس عندما رحلت .
ولست أريد مرة أخرى أن أحرك أشجانك .. وأهوى ماتيك .
لقد رحلت « منى » .
ووصلت أنت .
وكان علي أن أواجهك .. وأواجه فيك .. خديعتى .. وحيدة .. بلا عون
من « منى » .

واضطربت في أول الأمر ، ولم أعرف كيف أواجهك ، ولا ماذا أقول لك ..
كانت مفاجأة .. مذهلة ، أن أستيقظ من النوم ، لأجدك تقف أمامي .
ومنحتني أنت .. فرصة للنجاة ، عندما سألتني :
— أين نادية ؟

وأحسست أنك لم تميز في « نادية » وأن « نادية » التي في ذهنك .. هي
« نادية » الصورة ، أو بمعنى أصح هي « منى » .
وكان عليّ أن أجاريك في تصورك .. وأن أخبرك بموت « نادية » التي هي في
ذهنك .. « نادية » الشكلية .

وقلت لك إنها ماتت .

وسرت معك .

وصحبتك في جولتك .

ولأأكملك .. أتى — رغم كل ما أحاط بي من اليأس والفجعة — كنت

سعيدة .

أجمل .

كنت سعيدة ، وأنت تمسك يدي وتسير بي على سفح الجبل ، وشاطئ

البحيرة .

كنت سعيدة ، وأنا أجلس معك ، وقد شرد كل منا ببصره من الشرفة

العريضة .

كنت سعيدة .. بيأسك ، ولوعتك .

وفي بعض اللحظات كانت تملكني .. نوبات غيرة .. من أختي « منى »

عندما أفكر في أن أحزانك .. تخصها هي

وأنا .. كمخلوقة على قيد الحياة .. ليس لها نصيب من مشاعرك .

وانتهت جولتنا .

وكان عليّ أن أودعك

أن أودّع .. نفسي .
أن أودّع .. حياتي .
أن أودّع .. كل ما بقى لى من أمل فيك .
ومن العيب أن أشرح لك مشاعرى .
وقد تكون أحسست ببعضها .
فلا أظن وداعى لك ، كان الوداع الذى يمكن أن تودعك به « متى » .. لو
كانت هى أنا .
ووقفت أرقبك وأنت تلوح بيدك . والقطار يتباعد بك ، حتى اختفيت ،
واختفى القطار .
واختفى كل شيء من أمامى .
وعدت إلى البيت ، وكأنى أسير فى ضباب كثيف .
وأحسست وأنا أقبع فى حجرتى ..
أنى قد بت لاشيء .. بت جسداً ، بلا روح ، ومخلوقاً بلا كيان .
وأنى قد حرمت نفسي .. من كل شيء .
لقد فقدتلك نهائياً .
وأحسست أنى ظلمت نفسي .
وأنى أصبت نفسي .. بنقمة الموت .. دون أن أستمتع بنعمته .
حرمت نفسي أهم أسباب الحياة .. من صلتى بك .. وأصبحت إنسانة ميتة
بالنسبة لأعز الناس عندى .
وذقت .. مرارة فراقه .. ولوعة وذاعه .. بلا أمل فى عودة .. ولا رجاء فى
لقاء .
ومع ذلك .. فأنا ما زلت حية .
أمارس كل متاعب الأحياء .. وأحرم كل نعم الموتى .
أنا لا أنعم .. برفقة « متى » .

لا أنعم باستقرارها وراحتها .
لا أنعم بالسكينة التي تنعم بها ، وتبعد عنها صخب الحياة ومرارة العيش .
أنا ما زلت أفكر .
لم ينعم الله عليّ براحة ذهن « منى » .
وما زال عليّ أن أواجه الناس .. وأحدثهم ، وأن أذهب إلى المدرسة .. وأن
أفعل كل ما يفعله الأحياء .
ما زالت بي خصائص الأحياء ، التي لم يعد بي إليها حاجة .
ما زلت .. مثلاً .. أحبك .. وأهفو إليك .
وأنت لا تشعر بي إلا كمخلوقة ميتة .. لا تكن لي سوى الحزن ..
والدموع .

وحتى حزنك ودموعك .
حتى الشيء .. الذي بقي لي منك .
لا أجسر على الاستمتاع به .
لأنني لا أستحقه .
ولأنني أحس إذا ما حاولت .. الاستمتاع ببعضه .. أني مخادعة .. مخاتلة .
لأنني .. ما زلت حيّة .
لماذا إذاً .. أبقى .. بعد كل ذلك حيّة ؟
ما فائدة حياتي ؟!
من على وجه الأرض .. يمكن أن تفيده حياتي ؟!
لماذا لا أضع نفسي موضعها ؟!
أعني موضعها الذي وضعتها فيه أنت .
في ذلك القبر الأبيض الذي تحيط به أعواد الزنبق البيض .. والذي وقفت
أمامه ، والدمع يهيم من مآقبك .. في صمت موجع جعلني أكاد أنقت .
لماذا لا أضع نفسي موضعها ؟!

حتى يكون لى الحق .. فيما تبقى لى من مشاعرك .. وألا أحس .. أن
دموعك .. من أجلى .. لا تخصنى .. وأن لوعتك على .. لا أستحق منها شيئاً .
لماذا لأضع نفسى موضعها ؟

حتى أنعم على الأقل .. بالزهرة التى سنضعها .. على « نادية » .
إن العملية لا تحتاج إلى جهد ولا مشقة .

يكفى أن أترك نفسى .. لهذا الشئ الذى يجذبنى من أعماق الهوة ..
وسأهوى معه .. إلى رقعة القبور البيض المتراصة كأنها حجارة الشطرنج .
أجل .. إن هذا هو موضعى .. وذلك هو مصرى .
وقبل أن ألقاه .

أحب أن أصدقك .. وأن أثبتك الحقيقة ، وأن أنصف نفسى عندك .
وأن أقول لك من أنا .

على الأقل حتى .. تذكرنى .. أنا .. « نادية » الفتاة التى لقيتها بالإيشارب
والتي ضممتها إليك أمام القبر .. والتي صعدت معها السفح ، وسرت بجوارها
على الشاطئ .

إن « نادية » هى أنا
أنا التى أحبتك .. وأنا التى .. منحتك أول خفقات قلبها .. وستمنحك آخر
خفقاته .

إنى أرجو بعد ذاك .. ألا أكون قد خذلتك .. وأن أستحق مشاعرك ،
وحزنك .

وأن تحببى أنا .

وإذا ما عدت مرة أخرى .. لتزور القبر الذى ضممتى أمامه
فلتجعل . زهرتك .. زهرتين .. حتى أختص نفسى ، بواحدة منهما .

المخلصة « نادية » .

(٤٨)

إنذار ..

مضت برهة ومدحت يَحْمَلِق في السطور الأخيرة من الرسالة مشدوهاً
مأخوذاً ، وسقطت الرسالة من بين أصابعه وهو يتمتم في شبه هذيان :
— كانت هي — كانت هي « نادية » !!
ورفع كفه إلى جبينه يعتصره بأصابعه .. وهو مستمر في هُجته المهادنة :
— كان يجب أن أدرك ذلك .. كنت أحس بشيء يشدني إليها .. كان يجب
ألا أتركها .

وعادت عيناه تحمَلِقان في السطور الأخيرة :
« يكفي أن أترك نفسي لهذا الشيء الذي يجذبني من أعماق الهاوية ..
وسأهوى معه .. إلى رقعة القبور البيض المتراصة كأنها حجارة الشطرنج
« هذا هو موضعي ، وذلك هو مصيري »
وأحس مدحت بشيء يعتصر جوفه .. وهتف في حدة :
— لا .. لن أتركها .. لن أدعها تموت ثانية .. إن مصيرها هنا .. بجوارى
ونهب من مقعده فجأة ونزع عنه « المريلة » البيضاء .. وهو يردف في
حزم :

— سأذهب لأعود بها . لن أتركها تتركب هذا الجنون .
وكان جاد الله قد مرّ بناظره عبر سطور الرسالة مرّاً سريعاً .. واستطاع أن
يفهم ما تضمنته ، وبدت عليه دهشة شديدة ، وهتف بمدحت متسائلاً :
— تذهب لتعود بها ؟
— أجل سأذهب الآن ..

- ونظر جاد الله إلى تاريخ الرسالة ، وهز رأسه في شبه يأس وقال :
- لقد مضت أربعة أيام على إرسالها .
- وعض مدحت على نواجذه .. وبدأت عروق جبينه نافرة وهو يهز رأسه كأنه
يعد عنها خاطراً بغيضاً ، وقال في إصرار وعناد :
- سأذهب إليها على أية حال .. لن أستطيع أن أجلس جلسة العاجز
المستسلم .. إني أكاد أجن .
- واتجه مدحت إلى الباب في عصبية وشرود .. ولحق به جاد الله فأمسك
بذراعه قائلاً وهو يحاول تهدئته :
- إلى أين ستذهب ؟
- إلى المطار .
- إنك لن تستطيع أن تفعل شيئاً بحالتك هذه .. اهدأ . ودعنا نفكر معاً .
وصاح به مدحت في ضيق .
- أفكر ؟ أنا أستطيع أن أفكر !؟
- إذن دعني أفكر لك .. إن المسألة تحتاج إلى تدبر وروية .
- وأجاب مدحت في عناد انجائين :
- سأسافر .. الآن .. لن تستطيع قوة أن تمنعني من السفر .
- ومن قال لك إنك لن تسافر .. اجلس واسترح ، ودعني أقوم لك
بترتيبات السفر .
- ليس هناك ترتيبات .. سأذهب إلى المطار لأخذ أول طائرة .
- إلى أين .. ؟
- إلى جنيف .
- وبعدها .. ؟
- سأخذ القطار إلى « جاب » .
- إذن انتظر حتى أعرف لك موعد الطائرة ، ثم تحجز مكاناً بها .

- لا أستطيع أن أنتظر .
- لا تكن أحمق .. إن ذهابك إلى المطار لن يجديك نفعاً .. أنت تعرف أن الحالة مضطربة ، وقد نجد الخطوط الجوية توقفت .. فدعنا نسأل لتأكد من موعد الطائرة .. اللهم إلا إذا كنت تريد الإقامة بالمطار .
- ووقف مدحت وقد بدت عليه الحيرة والذهول .. وقال في لهجته المصرية :
- ولكنني لا أستطيع أن أتركها .. لن أدعها مرة أخرى .
- أجل .. أعرف ذلك .. وستسافر إليها .
- الآن !؟
- أجل الآن .. ولكن دعني أدبر لك الأمر .. أنت تعرف أنه لا بد من الحصول لك على إجازة وتصريح بالسفر . إنك لم تعد الآن مديناً .
- سأسافر بلا تصريح .. مهما كانت النتائج .
- اسمع .. سنبدل كل ما في وسعنا .. تعال معي .. نسأل أولاً عن مواعيد الطائرات فهي أهم ما في المسألة .. تعال واهدأ في حجرتك .. فإن منظرك مروّع .. تعال .
- وجذبه من ذراعه .. فانساق معه كالطفل .
- واستقر به في الحجرة مرة ثانية .. ورفع سماعة التليفون وبدأ يسأل عن مواعيد الطائرات .
- وقبل أن يأتيه الرد .. بدت إحدى الممرضات وقالت لمدحت :
- الدكتور رشاد يطلبك في غرفة العمليات .. لقد دخلت دفعة جديدة من الجرحى .
- ونظر إليها مدحت في شرود وياس ، ولم يجب .
- وعادت الممرضة تكرر قولها .
- وأجاب مدحت في حنق :
- قولى للدكتور رشاد أنى مرهق .. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً .

وهتم الممرضة بالانصراف ، ولكن مدحت ضغط على نواجذه وهفض رأسه في ضيق ثم صاح بها :

— اسمعى .. لا تقولى له شيئاً .

ثم نهض وارتدى مريته مرة أخرى ، وقال لجاد الله في حزم وإصرار

— لا تترك السماعة حتى تعرف موعد الطائرة .. إني مسافر .. مسافر ..

سأقن إليك بعد الانتهاء من العمليات .

— لا تحملهما .. سأعد لك كل شيء .

ومضى الوقت ومدحت منهك في غرفة العمليات ، وأحس كل من حوله

بتوتر أعصابه وارتجاف يديه .

وانتهى من العملية ، وهو يحس أنه يكاد يخنق .

واندفع من غرفة العمليات إلى حجراته .. وقبل أن يصل إليها التقى بجاد الله

فصاح به :

— ماذا فعلت ؟ .

— وجدت طائرة على خطوط « السويس إير » ... وحجزت لك مكانا

عليها .

— متى ستقوم ؟

— الساعة الحادية عشرة مساء .

— الحادية عشرة !؟

— احمد الله أنى استطعت أن أجد لك بها مكاناً .. إنها قد تكون آخر طائرة

تقوم من مصر .

— آخر أو أول طائرة .. المهم أن تسافر .

— وكيف تعود ؟

— يحملها ربنا

— ولكن يجب أن تعود بسرعة . إننا نحاول أن نحصل لك على تصريح خاص

بالسفر .. لقد أفهمتهم أن الأمر حيوى بالنسبة لك ، قلت لهم إنك ستنقذ حياة .
وأطلق مدحت زفرة وقال كأنما يحدث نفسه :
— ليتنى أستطيع .

ونظر في قلق إلى ساعته وكانت قد جاوزت الثانية وقال في ضيق :

— ما زال أمامنا تسع ساعات .. إن كل دقيقة لها قيمة .

— لا تجزع .. إن شاء الله ستجدها ، وتعود بها .. إن من السهل علينا أن
نفكر في الانتحار ، ولكن من أشق الأمور أن نقدم عليه .

وهز مدحت رأسه في حزن وقال :

— إن رسالتها مفعمة باليأس .

— على النقيض .. إن مجرد كتابتها أمر يبعث على الأمل . لقد أقدمت على
مغامرة .. ولا بد أن تعيش على الأقل حتى تعرف نتائجها .. هل تتصور أنه من
السهل أن تغادر الحياة .. قبل أن تعرف وقع اعترافها في نفسك .. لا بد أن تمنح
نفسها فرصة .. إن الأمل أقوى من الموت .

وصمت برهة وهو يفكر في مدى إيمانه بما قال .

ثم جذب مدحت في ذراعه قائلاً له :

— هيا بنا .. نتناول « لقمة » وإلا سقطنا جوعاً .. إنك لا بد أن تعود إلى

البيت لتجهيز حقائبك . وتوديع والدتك ..

وهز مدحت رأسه في مرارة وقال :

— لست في حاجة إلى حقائب .. سأذهب كما أنا .

ورفع جاد الله بصره إليه قائلاً في غيظ :

— اسمع يا مدحت . كف عن هذا التذاعى . إذا كنت تنوى أن تسافر

فيحسن لك أن تتجلد ، وتتهالك قدرتك على تصريف شؤون نفسك .. إنك في

حاجة إلى غيارات ، وفي حاجة إلى ملابس مدنية ، وفي حاجة إلى أشياء كثيرة تعد

بها نفسك للسفر .

— لقد سبق أن سافرت ، والسفر ليس معضلة ، ولست أريد أن أفزع « أمى » بوداع جديد .. إنها تعرف أنى أبيت فى المستشفى ، وأن هناك حالة الطوارئ ، وسأتحدث إليها قبل السفر ، وعليك أنت طمأنتها من وقت لآخر .. حتى أعود .

ومرت الساعات التسع بمدحت .. استطاع خلالها أن يسوى مشكلات صغيرة .. ويعد ما يلزمه . وقبيل العاشرة كانت عربة جاد الله تنهب به الأرض فى طريقها إلى مطار القاهرة .

ووصلت العربة إلى المطار واجتاز مدحت الباب بحقيبته الصغيرة فى يده .. وبدأت الحركة فى مبنى المطار قلقه مضطربة .. وأحس مدحت بعلامات دهشة ووجوم على وجوه الناس .

ووقف الموظف المختص بمراقبة الجوازات يهز رأسه قائلاً :

— إنه أمر خطير .. خطير جداً .

ولم يجد مدحت فى نفسه قابلية للثرثرة .. فقد كان يريد أن ينتهى فحص

جوازه بسرعة ، ولكن جاد الله تساءل بطريقتة المازحة :

— ما هو هذا الأمر الخطير ؟

— الإنذار البريطانى الفرنسى .

ورفع جاد الله حاجبيه فى دهشة ، وزم مدحت شفثيه .. فى انتظار مزيد من

الشرح .

واستمر الرجل يقول :

— لقد أرسلت إنجلترا وفرنسا إلينا إنذاراً .

— لماذا ؟

— للنزول فى موانى القناة .

— أقصد لماذا أرسلت الإنذار ؟

— لأنها تخشى تعطل الملاحة نتيجة القتال بيننا وبين إسرائيل .

— ولكن الملاحه لم تتعطل .. وقد ضربت طائراتنا القوات الإسرائيلية ضربة قاصمة ، ومدرعاتنا تحتشد لكى تقضى على البقية الباقية منها وتلقنها درساً قاسياً .

ورفع الرجل كتفيه وقلب شفثيه فى حيرة قائلاً :

— هكذا قال الإنذار .

وهز مدحت رأسه قائلاً :

— غير معقول .. لا بد أنها إشاعة .

ولكن الأمر لم يكن إشاعة .

وسرعان ما علا صوت الراديو ليعلن نص الإنذار البريطانى الفرنسى الذى وجهه إيدن إلى الحكومة المصرية والذى يطلب وقف القتال الدائر بين مصر وإسرائيل وسحب جميع قواتهما إلى مسافة ١٠ أميال من ضفاف القتال ، وأن توافق مصر على مرابطة القوات البريطانية والفرنسية فى المواقع الرئيسية ببور سعيد والإسماعيلية والسويس ، وحدد الإنذار مهلة قدرها اثنتا عشرة ساعة تالية لتقدمه ، تنتهى فى الساعة السادسة والنصف من صباح ٣١ أكتوبر .

وعض مدحت على نواجذه ، وهو يقول فى صوت مغيظ :

— غير معقول .. غير معقول أبداً .. لقد أعلنت بريطانيا أنها لن تستغل

الفرصة .

وهز جاد الله رأسه ، وقد بدا عليه الشرود والتفكير وقال ساخراً .

— لن تستغلها إذا استطاعت إسرائيل أن تحقق الغرض منها .. إذا استطاعت أن تصل إلى القناة وتعطل الملاحه بها .. أما وقد سيطرت مصر على أرض المعركة .. وسيطر سلاحنا الجوى على سمائها ، وبدت إسرائيل عاجزة عن تحقيق مهمتها . فكيف يقف الطرفان الآخران مكتوفى الأيدى .. كيف لا يستغلان اللعبة ، وهما أصحابها .. إنها مؤامرة مدبرة .. لم أشك فى ذلك لحظة واحدة .

وتساءل موظف الجوازات قائلاً :

— ولكن هل وصلت إسرائيل إلى القناة ؟
وهز مدحت رأسه مؤكداً :

— بالطبع .. لا .

— إذن .. كيف تبعد قواتها عشرة أميال عنه .. إذا كانت لم تصل إليه ؟!
وأجاب مدحت ساخراً :

— أظن يتحتم على مصر أن تجرأ إلى القناة .. حتى يمكن تنفيذ الإنذار
وعاد الرجل يتساءل :

— ولكن لماذا تريد إنجلترا وفرنسا وضع قواتهما في بور سعيد والسويس
والإسماعيلية ؟!

— لماذا تريدان ؟ لأننا أئمتنا القنال ؟ لأنهما نادمتان على الجلاء الذي مكنتنا من
امتلاك أراضيها ، واسترجاع حقوقنا ، والتصرف بحرية في ممتلكاتنا .. لقد كان
المفروض أن يعقد اجتماع اليوم في جنيف لتسوية المشكلات الناتجة عن التأميم ..
ولكن يبدو أن إنجلترا وفرنسا .. وجدتا أن عودة قواتهما هي أفضل طريقة
للتسوية .

وهز الرجل رأسه في يأس وهو يمد يده بجواز السفر إلى مدحت قائلاً :

— ولكن ماذا يمكننا أن نفعل الآن ؟!

وأجاب مدحت ببساطة

— لا شيء .. نرفض الإنذار .. أم ترانا قد فعلنا كل هذا .. من أجل أن نعود
لنقبل ببساطة احتلال بريطانيا وفرنسا لقطعة من أرض مصر ؟!
وضحك جاد الله وهو يقول :

— إنه مجرد تهويز .. مجرد « هببة » .. على طريقة دبابات ٤ فبراير .

واتجه مدحت وجاد الله إلى البوفيه ، واستقر جاد الله على مقعده أمام المنضدة
وشرّد ذهنه برهة ثم تساءل قائلاً :

— أما زلت مصرأ على السفر ؟

- ورفع مدحت إليه عينيه في غيظ وأجاب ؟
— مصر .. طبعاً مُصرّ .
— بعد هذا الذي سمعت ؟
— ماذا سمعت ؟!
— الإنذار البريطاني .
— ألم تقل إنه مجرد « هبة » ؟
— هب أنه لم يكن .
— ليكن أو لا يكن .. سأسافر .. سأسافر
— أتعلم أن الطريق قد يغلق ، وأنت لا تستطيع العودة ؟
ورفع مدحت كتفيه قائلاً :
— المهم ألا يغلق قبل أن أسافر
وعاد جاد الله إلى شروده برهة ، وما لبث أن رفع رأسه متسائلاً :
— اسمع .. أتعرف أنك قد لا تستطيع أن تدخل فرنسا ؟
وبدت الدهشة على وجه مدحت وتساءل قائلاً :
— كيف ؟!
— أليس المفروض أن تنتهي مدة الإنذار الساعة السادسة والنصف صباحاً ؟!
— أجل .
— هل تظن أن « جمال عبد الناصر » سيقبل الإنذار ؟!
— بالطبع .. لا
— والنتيجة ؟!
ورفع مدحت كتفيه قائلاً :
— لا أعرف !
— النتيجة .. أننا سنصبح في حالة حرب مع فرنسا وإنجلترا ، ومعنى ذلك
أنك لن تستطيع أن تدخل فرنسا .. أو إنجلترا .

وبدا الوجوم على وجه مدحت ولكنه عاد يقول في إصرار :

— اسمع .. لن يثبني شيء عن السفر .

ورد عليه جاد الله في غيظ قائلاً :

— أيها الغبي .. لست أحاول أن أثيبك ، ولكن لا بد لنا أن نفكر في كل

الاحتمالات .

وأجاب مدحت وهو يزفر في يأس :

— اسمع .. سأسافر ، ويحلها ربنا .

— على أية حال إذا احتجت إلى أي شيء في جنيف .. فاتصل بجمال ..

أتذكره !؟

وهز مدحت رأسه بالإيجاب ثم تساءل في غير اكتراث :

— وكيف أتصل به ؟

— في سفارتنا في برن .. اتصل به تليفونياً ، واذهب إليه .. أو اطلب منه أن

يحضر إليك .. إنه إنسان خلدوم جداً .

وأجاب مدحت وهو يلقي رأسه إلى الخلف في كلال :

— أرجو ألا تحوجني الظروف إلى خدماته .

ودوى صوت الميكروفون يستدعي ركاب الطائرة .

ووقف جاد الله يودع مدحت عند الحاجز الشبكي . وسمع أحد الطيارين

وهو يهرع من الباب ويشير إلى إحدى المضيفات قائلاً :

— وداعاً لك ، وللقاهرة .. قد تكون آخر مرة نعود إليكم .

وضحكت المضيفة قائلة :

— وقد تكونون آخر طائرة .. ترحل عنا .

وعلق جاد الله على قولها بقوله لمدحت :

— سامع !؟

— لا يهمني .

— طبعاً .. أنا شخصياً لو في صحة هذه المضيقة .. لفضلت ألا أنزل إلى الأرض أبداً .

وسار مدحت متجهاً إلى الطائفة ، وجاد الله يهتف به :
— مع السلامة .. إذا حدث شيء فاكتب إلي .

وارتفعت الطائفة في الظلمات .. وتباعدت حتى أضحت كأنها نجمة تتحرك في بطن .

واستقر مدحت في مقعده .. واسترخى .. وأغمض عينيه وبدأ ذهنه يغرق في دوامة أفكاره .

وسط هذا الخضم من الأحداث .. كان مدحت يحس بشعور من الاستقرار والسكينة ..

كان أهم حدث في كل هذا الخضم الحافل .. هو حياة .. « نادية » .
إن « نادية » لم تمت .

« نادية » الحبيبة .. العزيزة .. موجودة .

إنها هي نفسها التي رآها ، وأحس في وجهها الحزين شيئاً حبيباً ودوداً .
إنها هي نفسها التي ضمها فوق القبور ، وصحبها إلى البحيرة وجلس وإياها في شرفة النادي .

هي نفسها التي ودّعه .. باللوعة في قسماتها .. والدمع في مآقيا .

هي نفسها التي كتبت إليه .. لتقول له إنها تحبه .. وإنها تود أن يحبها هي

هي نفسها المخلوقة الرقيقة .. التي أحكمت الإيثار حول وجهها .
إنه يحبها بكل ما فيها .

ويحب أكثر .. ذلك الشيء الذي تخشاه في نفسها .. ذلك الحرق في عنقها

مهما كان منظره .. فهو جزء منها .

جزء من المخلوقة الرائعة .. التي أحس بروعتها منذ أول كلمة كتبها .. إلى

آخر حرف نطقته .

المخلوقة الرائعة .. التي أحبها .. لذاتها .. لشخصيتها .. وإحساسها .. والتي
يخس أنه قد أحبها أكثر .. عندما لقبها .. وودّعها .
المخلوقة .. الرائعة وهماً ، وحقيقة ..
إن « نادية » كائنة .. وهو قد رآها ، وسراها .
سيراها !

أيستطيع أن يجزم بهذا؟!
أوافق هو أنها ما زالت تنتظر؟! وأنها لن ترحل حتى تعرف نتيجة رسالتها
إليه؟

من يدري!؟

واستمر مدحت في هواجسه .. حتى غلبه النعاس .
وقبيل الفجر هبطت الطائرة إلى مطار جنيف ، وغادر مدحت المطار بحقيته
الصغيرة إلى ميدان المحطة ، وتوجه للسؤال عن أول قطار ليبتجه إلى جرينوبل ثم إلى
« فين » ومنها إلى « جاب » نفس القطار الذي حملته آخر مرة عند عودته من
« جاب » .

وكان الوقت ما زال مبكراً .

واضطرب مدحت إلى الانتظار حتى يحين موعد القطار .
وتنفس مدحت الصعداء وهو يستقر على مقعد القطار .. وأحس بالسكينة
والقطار ينساب به من مبنى المحطة ، ويُدفع بين السفوح الخضراء
وبعد فترة توقف القطار في أول محطة على الحدود .. بين سويسرا وفرنسا ،
وأقبل البوليس الفرنسي يفحص جوازات الركاب ، وقد مد مدحت يده بالجواز
في شيء من الإسترخاء .

ووقف الرجل يفحص الجواز ، ثم قلب شفتيه ورفع كتفيه وأجاب ببساطة :
— هذا جواز مصرى ؟

وأشار مدحت برأسه علامة الموافقة وأعاد الرجل الجواز إليه وهو يقول له

بنفس البساطة :

— ممنوع .

ورفع مدحت حاجبيه في دهشة متسائلا :

— ما هو هذا الممنوع !؟

— دخولك إلى فرنسا

— له !؟

— الأوامر .

— أية أوامر !؟

— أوامر حكومتنا

— له !؟

— سل حكومتك .. سل « عبد الناصر » .

ونفخ مدحت نفخة قصيرة من أنفه .

هذه سخرية جديدة !!

لقد بدا جاد الله مازحاً وهو يقول له إنه قد يمنع من دخول فرنسا .. وقد

أضحت مزحته جداً .

وها هو يقف على الحدود الفرنسية ، لا يستطيع تجاوزها .

وتذكر « جمال عبد السلام » .. الملحق الصحفي بسفارة سويسرا .. الذى

نصحه جاد الله بأن يلجأ إليه وقت الحاجة .

ونفخ نفخة ساخرة أخرى .

ماذا يملكه له « جمال عبد السلام » ؟

بل ماذا يملك له « جمال عبد الناصر » نفسه !؟

وجذب مدحت حقييته .. وهبط من القطار ، وقد أثقل اليأس كاهله .

وأنقض الهم ظهره .

ماذا يفعل الآن ، وهو يقف على الحدود كاليهودى آتائه .

ونادية ؟!

نادية العزيزة .

تجلس في انتظار رده .

إن كان ينوى أن يرد .

ولكن لماذا لا يرد ؟!

لماذا لا يُرسل لها تلغرافاً .. لتنتظره حتى يأتي إليها .. إن كان هناك أمل في مجيئه إليها .

بل لماذا لم يرسل لها من القاهرة .. بمجرد أن وصلته رسالتها ؟!

لقد أعماه تصميمه على الذهاب إليها .. عن أى حل آخر .

ولو أنه أرسل إليها تلغرافاً من القاهرة .. لكان الآن في طمأنينة .

ولكن أتراها .. ما زلت تنتظر حتى الآن ؟!

إنه يتعلق بتعليل جاد الله .

وهو تعليل معقول .

ولو لم يكن معقولاً .. لقضى يأساً وحنناً .

واتجه إلى مكتب التلغراف .

ووقف أمام المكتب وقد أمسك بالقلم وبدت عليه الحيرة .

ماذا يكتب لها ؟!

أيقول لها إنه يحبها ؟!

إنه يود أن يكتب إليها رسالة كرسالتها .

ولكن ليس هذا وقته .

يكفى أن يرجوها انتظاره .

وبدأ مدحت يخط البرقية :

« نادية .. إني أحبك .. حاولت أن آتي إليك .. ولكنني أوقفت على الحدود

وأنا في طريقى إليك من جنيف .. انتظرنى .. حتى أجد طريقة للقائنا » .

« مدحت »

(٤٩)

عملية تهريب ! ..

أرسل مدحت البرقية إلى « جاب » ثم عاد في أول قطار من الحدود إلى جنيف ، واتجه بحقيته إلى الفندق الذى كان يوشك أن ينزل به في المرة السابقة . وكان رغم ما به من قلق وتوتر .. يحس بالأمل يملاً جوانحه .. وبأن اليأس المظلم الذى أطبق عليه في المرة السابقة قد انقشع وتبدد .

ووقف أمام مكتب الاستعلامات يحبى نفس الرجل الذى حجز له مكاناً في الطائرة عند العودة إلى مصر . وردّ عليه الرجل التحية وقد بدت عليه علامات الدهشة وهو يسأله في أدب :

- لعل سيدى لا يكون في عجلة هذه المرة !؟
- وأطلق مدحت ضحكته الساخرة من أنفه وأجاب :
- بل في عجلة أشد .
- أتريد العودة إلى القاهرة مرة أخرى . ؟
- ليس الآن .. إنى أريد أن أتصل بسفارة مصر في برن .
- حالا يا سيدى .
- ورفع الرجل السماعه وطلب السفارة .
- بعد بضع ثوان مد يده بالسماعة إلى مدحت قائلاً :
- السفارة المصرية معاك .
- وأمسك مدحت بالسماعة منادياً :
- آلو .. السفارة المصرية !؟
- نعم .

— الأستاذ « جمال عبد السلام » الملحق الصحفى .
— انتظر .

وبعد لحظة أجاب الصوت :

— الأستاذ جمال غير موجود .

وأحس مدحت بالضيق والحيرة وعاد يتساءل :

— أين أستطيع أن أجده ؟

— معك مكتبه .

وسمع مدحت صوتاً يجيب عليه :

— أفندم ؟

— أين الأستاذ جمال ؟ .

— فى جنيف .

— إني أتكلم من جنيف .. أين أستطيع أن أجده ؟

— من الذى يتكلم . ؟

— أنا الدكتور مدحت .. وصلت الآن من القاهرة .. وأريده فى مسألة

هامة .

وصمت الصوت برهة ثم أجاب فى تردد :

— والله لا أعلم بالضبط .. ولكننى أعتقد أنك تستطيع الاستدلال على

مكانه من مكتب القنصلية .

— سأحاول أن أسأل عنه هناك .. وإذا حضر إليكم أو اتصل بكم قبل أن

أستطيع الاتصال به .. فأرجو أن تطلبنى فى فندق ..

ثم هز رأسه سائلاً موظف الاستعلامات عن اسم الفندق .. وأجاب الرجل :

— سافوى .

وأردف مدحت مردداً الاسم فى السماعه .

— فندق سافوى .. وسأمكنك هنا حتى أستطيع الاتصال به .

ووضع مدحت السماعه ثم سأل الرجل الواقف أمامه ينتظر في أدب :
— هل أستطيع أن أتصل بالقنصلية المصرية ؟ .
— طبعاً .

وبعد لحظة كان مدحت يسأل عن جمال عبد السلام .
ولم يطل سؤاله هذه المرة . ففي اللحظة التالية كان صوت جمال يجيب
متسائلا :

— هالوا .. أنا جمال .

— أنا الدكتور مدحت .

— من ؟ .

— الدكتور مدحت .. صديق جاد الله .

وهتف « جمال » مرحباً في دهشة :

— دكتور مدحت ؟! من أين تتحدث ؟

— من هنا .. من جنيف .

— متى وصلت ؟ .

— اليوم .

— كيف وصلت ؟

— بالطائرة .

— ألم تنقطع خطوط الطيران من القاهرة ؟ ألم تقفل المطارات بعد ؟!

— أظن أنها قد انقطعت بعد سفرى .. لقد سمعت وأنا أركب الطائرة أنها

آخر طائرة تقوم من مطار القاهرة .

— حمد الله على السلامة . كيف الحال عندكم في مصر ؟!

— الحمد لله .

وبدأ سيل من الأسئلة يتدفق من جمال .. ولكن مدحت أوقفه بقوله ..

متسائلا :

— ألا أستطيع أن أراك ؟.

— طبعاً .. من أين تتكلم ؟.

— من فندق سافوى .. بجوار المحطة :

— بعد بضع دقائق . سأكون عندك

ووضع مدحت السماعه ، ووقف شاردأ .

لقد شعر ببعض الراحة عندما عثر على « جمال »

ولكن ماذا يستطيع أن يفعل « جمال » .. إذا كانت الحدود مغلقة ؟!

أستطيع أن يجتازها .. بجواز دبلوماسى ؟.

إنه لا يفهم فى هذه الأمور .. بل هو لا يفهم حتى لماذا منعه أن يدخل ؟

لقد انقضت مهلة الإنذار فى الساعة السادسة والنصف .. ولكن هل معنى

هذا .. إنذار بحالة حرب ؟!

وهل يستطيع « جمال » فى هذه الحال أن يدخل ؟!

ولكن ما قيمة أن يدخل « جمال » وحده ؟

إنه قد يستطيع أن يقنع « نادية » .. بحقيقة مشاعره .. وصدق نواياه وحرارة

رغبته .

ولكن أستطيع أن يقنعها بحيث تقبل أن تعود معه إلى القاهرة ؟! وإذا أقتعها !

هل يستطيع أن يقنع أمها ؟!

إنه هو نفسه .. يستطيع .

إنه يثق فى قدرته .. وفى مشاعره .

بشرط أن يجدها .

وهو يعتقد أنه سيجدها .

إنها لن ترتكب تلك الحماسة التى كتبت عنها فى رسالتها ، أنها مجرد خواطر

دفعها اليأس فى نفسها .

وهى لا بد من أن تنتظر نتيجة .. رسالتها .

وسيوكد لها التلغراف الذى أرسله الآن .. هذه النتيجة .. وسيمنحها من الأمل .. ما يبدد بأسها .. ويوقف أفكارها المظلمة .

لو أنه أرسل هذا التلغراف مبكراً !!

ولكنه كان عاجزاً عن التفكير .

كان كل ما يريده .. هو أن يطير إليها .

وطال شروده حتى بدأ الرجل الواقف أمامه يقلق .. وسأله موقظاً :

— سيدى . هل أحجز لك غرفة ؟

وأجاب مدحت معتذراً :

— أجل .. أجل .. سأصعد إليها الآن .. وعندما يحضر الأستاذ « جمال »

الذى كنت أتحدث معه .. اطلبنى كى أهبط إليه .

وصعد مدحت إلى الحجرة . وأراحته بساطتها ونظافتها .

ووقف مدحت فى الشرفة المطلة على الميدان .. وأحس ببرودة الهواء .. وشم

فى نسماته .. عبير الجبال .. والبحيرات .. وأحس بأنه غير بعيد عن مواطن

أحلامه ومرتع أمانيه .. وبأن « نادية » .. باتت منه على قيد خطوات .. وأن

هذه القمم البيض التى تلوح فى الأفق .. هى نفسها التى تطل على بيتها .

واغتسل مدحت فى الحمام الملحق بالغرفة ، وأبدل ملابسه ولم يكذب يستلقى

على الفراش حتى دق جرس التليفون .. ثم سمع صوت « جمال » مباشرة

يصيح به :

— دكتور مدحت ؟

— سأهبط إليك حالا .

ووضع السماعة .. وأسرع إلى بهو الفندق .

وتعانق الرجلان فى شوق ولهفة .. رغم أن أحدهما لم ير الآخر إلا مرة

واحدة .

ولكن إحساس مدحت بالغربة والوحشة ، وإحساس « جمال » .. بأنه يرى

مواطناً من بلده المكافح .. جعل كلا منهما .. يشعر نحو الآخر .. بالفلسة شديدة .

وروى مدحت لجمال خلاصة الحال في مصر .. وحدثه عن الهجوم اليهودي والجرحي .. وعن الإنذار الذي تلقته مصر .
وهز جمال رأسه قائلاً :

— لقد سمعت الإنذار في الساعة السابعة مساء أمس .

— لقد سمعته وأنا في المطار .

— لقد رفض جمال الإنذار .

— كنا نعرف جميعاً ذلك .

— رفضه بقوة وحزم .. لقد أعلن أن مصر لا يمكن أن تسمح أو توافق على احتلال بور سعيد والإسماعيلية والسويس بقوات أجنبية بريطانية فرنسية .. لقد أعلن باسم مصر أن هناك انتهاكاً لحريتها .. واعتداء على سيادة الشعب المصري وكرامته .. وقد أعلنت إسرائيل موافقتها على شروط الإنذار .

— طبعاً توافق .. كيف لا توافق على الانسحاب عن القتال عشرة أميال .. وهي بعيدة جداً عنه .. إنها توافق لأنها معتدية .. ولأن قواتنا منتصرة .. وهي ترغمها على الارتداد .

— وماذا تظن إنجلترا فاعلة ؟ هل ستقف مكتوفة اليدين أمام رفضنا للإنذار ؟

— أعتقد أنها يجب أن تفعل ذلك .. يجب أن تكف عن الاندفاع أبعد من هذا .

— لا أظن .. إنها لا تستطيع أن تراجع بعد هذا الإنذار .

— إذن عليها أن تخوض حرباً .. لأننا لن نسلم بلادنا أبداً .. إذا كان « إيدن » لا يستطيع التراجع في عملية اعتداء ، فلا أظن « جمال » يستطيع التراجع في عملية دفاع .. عن سلامة الوطن .. وحرية الشعب .

وأطلق جمال تنهيدة قلق .. قائلاً :

— ربنا يهديهم .. إن أى اعتداء يمكن أن يقوموا به .. قد يطلق الشرر في العالم كله .. ومن أجل هذا أعتقد أنهم لن يغامروا بتنفيذ الإنذار .

ورفع مدحت كتفيه قائلاً :

— أرجو ذلك .. ليس هناك من يتوق لإشعال حرب جديدة

ونظر جمال إلى مدحت ، وقد بدا عليه الشرود وتساءل :

— لم تخبرني بعد ؟ . ماذا أتى بك في هذه الظروف العصيبة .. ؟ لقد ألهانا الحديث .

وأحس مدحت بحيرة شديدة .

ماذا يمكن أن يقول له .. ؟

وسط هذه الأحاديث عن الإنذار .. والاعتداء .. والحرب الموشكة .. والموقف المتأزم ، والظروف العصيبة !

هل يجسر أن يقول له ، لماذا أتى ؟

أيقول له .. قد أتى .. ليأخذ فتاة تحبه .. ويمنعها من الانتحار .. من أجله ؟! وأحس بتفاهته .

وساد الصمت .. واستغرق في الشرود والتفكير .

وأخذ « جمال » يرقبه في شيء من الدهشة .. ثم تساءل في صوت خافت :

— ألا أستطيع أن أكون موضع ثقتك ؟

وهز مدحت رأسه قائلاً :

— بل يجب أن تكون كذلك .. إني في حاجة إليك .

— لماذا لا تتحدث إذن ؟ ماذا أتى بك هنا ؟! وماذا يقلقك ؟

وأطرق مدحت وقال في صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

— المسألة في الواقع تحتاج إلى شرح طويل .. يجب أن تفهم كل الظروف

المحيطة بها .. والدوافع التي خلقتها .. حتى تلمس لي بعض العذر .. وحتى

لا أبديو أمامك مخلوقاً تافهاً .

وهز « جمال » رأسه وقال مؤكداً :

— إنك آخر من يتهم بالتفاهة . إني أعرفك من جاد الله جيداً .. وإني معجب بك جداً .. كل ما أرجوه أن تضع ثقتك في .. وسأفعل من أجلك كل ما أستطيع .

ورفع مدحت بصره وزم شفثيه .. ثم اعتصر جبينه .. وقال في صوته الخافت

الذى ييديه كأنما يحدث نفسه :

— إني أريد منك أن تجد لي سبيلاً للدخول إلى فرنسا .

ورفع « جمال » حاجبيه في دهشة وتساءل :

— وهل منعك أحد .. ؟

— أجل .. حاولت اليوم أن أعبر الحدود في القطار ، فمنعوني .

— وإلى أين تريد الذهاب ؟!

— إلى بلدة في جبال .. الألب العليا ، تسمى « جاب » .

وبدت الدهشة على وجهه وهتف متسائلاً :

— جاب .. ولماذا « جاب » بالذات ؟! من تعرف هناك . ؟

— فتاة مصرية تعيش هناك .

ونظر جمال إلى وجه مدحت نظرة طويلة فاحصة وتساءل في صوت

خافت :

— مصرية في « جاب » !! لا أعتقد أن هناك غيرهما ، وترى من تكون

منهما .. منى .. أو نادية .

ورفع مدحت رأسه مأخوذاً وتساءل وقد تلاحقت أنفاسه :

— هل تعرفهما ؟!

— عرفتهما على ظهر السفينة .. في طريقى إلى هنا .

وصمت « جمال » برهة وتساءل في لهجته المأخوذة الحائرة :

— ولكن كيف عرفتهما؟! وماذا يدفعك إلى الإصرار على زيارتهما .. في هذه الظروف العصبية؟

وصمت مدحت برهة .. وقد بدا عليه الشرود واستبدت به الحيرة .

ومرة أخرى لا يدري كيف يشرح !!

وهز رأسه في حيرة وقال في لهجته الخافتة :

— لست أعرف كيف أوضح لك .. إن المسألة تحتاج كما قلت لك .. إلى

شرح طويل .. فإن .. مجرد ذكرها لن يشعر بمدى أهميتها وخطورتها في نفسي .. ولكنى ...

وصمت مرة أخرى .

وعاد « جمال » يقول مستحثاً :

— ولكنك ماذا؟ لماذا لا تتكلم؟ إني أفهمك جيداً . قل كل ما تريد .. من

منهما تهتم بأمرها؟.

وأطلق مدحت نفخته الساخرة وقال :

— الباقية منهما .. ألا تعرف أن « منى » قد ماتت؟

وهتف « جمال » مرتاعاً وردد قوله كالمأخوذ :

— منى .. ماتت ..؟ غير معقول .. الفتاة المرححة اللطيفة التي لا تهدأ لحظة

ولا تكف عن المزاح والضحك .. ماتت .. لقد رأيتها هي ونادية على ...

وقاطعه مدحت في قلق وأسى :

— اسمع .. يجب أن أذهب الآن إلى « نادية » . إني أخشى ..

وصمت مدحت وعاد جمال متسائلاً :

— تخشى ماذا؟! لماذا لا تنطق؟.

— لا أدري كيف أشرح لك ، ولا من أين أبدأ .

وتوقف مدحت عن الحديث فجأة ومد يده إلى جيبه فأخرج رسالة

« نادية » . وأردف قائلاً وهو يتنهد في يأس :

— اقرأ هذه .. أعتقد أنها ستكون أقدر على إفهامك كل شيء .
وأمسك جمال الرسالة وانهمك في قراءتها .. وقد بدت عليه أقصى علامات
الدهشة .

وعندما انتهى من قراءتها طواها في رفق ، وهو يتمم قائلاً :

— إذن فهو أنت ؟

وتساءل مدحت مردداً قوله :

— هو أنا .. ؟

— أجل .. أنت الوهم الكبير ، الذى وقف في سبيلى ، والذى وعدتني بأن

أكون أول من تفكر فيه إذا ما زال !؟

وصمت جمال ثم أخذ يطرق المنضدة بأصبعه قائلاً :

— لماذا تتوقع أن أسخر منك .. ؟ لقد أحببتها أنا كما لم أحب في حياتي ..

أحببتها بعنقها المقروح .. عنقها الذى أقامت منه حاجز يأس .. يقف في سبيلها

إليك .. وإلى كل أمل .. أحببتها .. بكل ما أملك من مشاعر .. أحببتها ، وهى

مستلقية على مقعدها فوق ظهر السفينة ، وقد أطارت الريح .. الإيشارب .

فكشفت رأسها وعنقها .. ولم أجد به ما يستحق الإخفاء .. لم أجد بها ما

يشوّها قط .. وأصابها الجزع .. وظنت حبي لها شفقة بها .. وحاولت أن

أقنعها عبثاً .. لأنك كنت تقف في سبيلى .. وهماً كبيراً يسيطر على مشاعرها ..

وسدّاً ضخماً يقوم بينها وبين كل طارق لقلبها .. وكنت أنتظر أن يزول الوهم ..

ولكنى أجدته الآن قد تجسد ليصبح حقيقة واقعة .. لا تزول .. ولا تقاوم .

وصمت جمال ثم مد يده بالرسالة إلى مدحت ، وهو يقول :

— إني سعيد من أجلها .. شقى من أجل نفسى .

ثم نهض فجأة ، وهو يقول في حزم :

— قم .. سأفعل المستحيل .. لكى أوصلك إليها .

وخرج الاثنان من الفندق .. وتساءل مدحت قائلاً :

- إلى أين ؟ .
- سنحاول أن نعبّر الحدود بواسطة الترام .
- الترام !!
- أجل .. سنذهب إلى « أتماس » وسنعبّر الحدود بها في الترام .. وقد
- تستطيع أن تمر من الحراس الفرنسيين .
- بمثل هذه السهولة ؟!
- وذهب مدحت وجمال إلى « أتماس » .. وتحرك الترام بهما عبر الحدود ، وقد
- بدا القلق على وجه مدحت وأحس بأعصابه مشدودة متوترة .
- وقال جمال مستضحكا :
- لا تحمل هما .. أنا مسئول عن إدخالك الحدود .
- وإذا منعنا ؟.
- سنأخذ قارباً، ونهرب من البحيرة إلى « أفيان » .. وهناك نستطيع أن
- نأخذ القطار إلى « بلجاره » حتى جريوبل . وأظنك تعرف طريقك بعد
- ذلك .
- أتظن العملية ممكنة ؟!
- جداً .. ليس أكثر من أصحاب القوارب المهريين في بحيرة ليمان .. المهم أن
- تعرف طريقك أنت بعد ذلك إلى « جاب » .. ولست أظن في ذلك مشقة ..
- كل ما عليك أن تذهب إلى المحطة وتأخذ القطار المتجه إلى جرينوبل .. وبعدها
- تهبط في الطريق في « فين » .
- وتوقف الترام .. وصعد جنديان فرنسيان .. وأحس مدحت بقلبه يدق في
- عنف .
- ومر الجنديان بصفوف الركاب وهما يلقيان نظرة عابرة على الجوازات .
- حتى وصلا إلى مدحت .
- ونظر أحدهما إلى « الباسورت » وهم يتجاوزوه ، ولكنه عاد وتوقف ثم ألقى

عليه نظرة أخرى .. وحدث زميله .. ثم ناوله « الباسبورت » ونظر إلى مدحت قائلاً :

— ممنوع .

وهز جمال رأسه مستفسراً :

— ما هو ممنوع ؟.

— المرور .

— لماذا ؟.

— هذه هي الأوامر .

ولم يكن هناك جدوى من المناقشة فهبط الاثنان واتجها إلى الترام العائد وجمال يقول ضاحكاً :

— لم يبق أمامنا إلا البحيرة . سأهرب بك . كالممنوعات .. هل سبق لك أن قمت بعملية تهريب ؟.

وهز مدحت رأسه ، وهو شاربه مهموم .

وأردف جمال يقول :

— علينا أن ننتظر حتى يسقط الظلام .. سأتركك في الفندق وأذهب للاتفاق مع أحد أصحاب القوارب .

ووصل إلى الفندق وقبل أن يفترقا تساءل مدحت قائلاً :

— أتظن العملية ستكون ممكنة ؟

— طبعاً ممكنة .

ولم يبد على مدحت الاقتناع فأردف جمال قائلاً :

— سأبقى معك حتى نصل إلى « جاب » . هل يريحك هذا ؟! وأحس

مدحت بشيء من الطمأنينة وتساءل :

— وعملك ؟

— لن يضيرهم أن أتركهم يوماً ! وأظننا لن نتأخر أكثر من ذلك . لأننا

سنكون مرتبطين بموعد مع صاحب القارب لكي يعيدنا مرة أخرى .

وهز مدحت رأسه وقال مؤكداً :

— لا .. لا .. لن نتأخر أكثر من مسافة الطريق .

ومضى اليوم بمدحت وهو قابع في حجرته بالفندق .. مستلق على الفراش مفتوح الجفنين .. منطلق الذهن .. وقد أقدم بتفكيره .. على كل ما يحتمل أن يقدم عليه .

وعندما بدأ الضوء يبهت .. وتسلفت خيوط الليل .. سمع مدحت طرقات على باب الحجرة ، ثم فتح الباب ودخل جمال وهو يقول في عجلة :

— ها .. أجاهز أنت ؟

— جاهز منذ الصباح .

— لقد أعددت القارب .. إن الرجل ينتظر على الشاطئ في طرف المدينة ..

هيا بنا .. خذ معطفك .. ارتد كل ما تملك من « بلوفرات » .. فبرودة الليل لا تحتمل وسط البحيرة .

وارتدى مدحت معطفه وهبط مع جمال .

وفي الطريق قال جمال :

— أسمعت آخر الأخبار ؟

— لم أسمع شيئاً . إني مستلق في الفراش منذ أن تركتني .

— لقد أذاع صوت بريطانيا أن قيادة بريطانية فرنسية مشتركة قد تكونت في

نيقوسيا ، وأن الجنرال تشارلس كيتل البريطاني قد عين قائداً لها ، وأن الفيسب أميرال « باربو » الفرنسي قد عين نائباً له .

— وماذا يعنى هذا ؟

— يعنى أن إنجلترا وفرنسا مصرتان على السير في حماقتهما حتى النهاية .. لقد

بدأت الغارات على القاهرة والإسكندرية والقنال .. وقد أبلغت مصر مجلس الأمن .. وعقد مجلس الأمن جلسته ، ولكن بريطانيا وفرنسا استهانتا بجميع

القوانين الدولية واستهانتا بميثاق الأمم المتحدة . واستهانتا بالرأى العام العالمى .. واعترضتا على قرار وقف القتال .. وقال « إيدن » إن بريطانيا لاتعترف بقرارات مجلس الأمن وستعمل كل ما فى وسعها كى لاتعد إسرائيل معتدية، لأن عملها من أحسن الأعمال .. وأغلب الظن أن مجلس الأمن .. لن يستطيع الوصول إلى قرار .

— إنها إذن مؤامرة .. وإنجلترا وفرنسا .. تصرّان على أن تبلغا الهدف منها .. وهو احتلال القتال ؟

— طبعاً .. إن وزارة الدفاع البريطانية تقول إنها ستضرب المطارات المصرية لأن مصر رفضت سحب قواتها ..

ولكن يبدو أن الغرض هو إعجاز سلاح الطيران المصرى الذى تفوق تفوقاً تاماً على إسرائيل .. وكذلك لعزل القوات المصرية التى تحشد لرد قوات إسرائيل .. إن بريطانيا وفرنسا لا يمكن أن تترك إسرائيل .. تتلقى الضربة وحدها .

— لست أظن هناك عملاً أحط من هذا ولا أحقر .. من كان يصدق أن إنجلترا وفرنسا .. الدولتين الكبيرتين .. تطعنان مصر .. الدولة الصغيرة .. فى ظهرها .. وهى تتوجه لحماية حدودها من عدوان إسرائيل .. إن هذا العمل سيكون سبة فى تاريخ إنجلترا .. كان أكرم لها .. أن تتجه رأساً لاحتلال القتال .. وتعلن أنها تدافع عن مصالحها .. بدل ذلك الغدر والختيال والخديعة التى لاتنطلى على أحد .

— على أية حال لا أظن المسألة يمكن أن تنتهى بسهولة . إن مصر ستقاوم .. ونحن لم نعد فى القرون المظلمة .. التى يمكن أن تغتال فيها الشعوب خفية .. عن أبصار العالم .

ووصل الاثنان إلى ساحة البحيرة .

وكانت الظلمة قد سادت ، وصقيع الليل وبرودة البحيرة ، تلسع الوجوه

والأطراف .

وبدا القارب تحت إحدى الأشجار .
وتحقق صاحبه من وجه « جمال » .
وفي صمت هبط الاثنان إلى القارب .
وأخذ القارب يشق طريقه في سكون الليل وسط البحيرة .
ولم ينبس واحد من الثلاثة بينت شفة .. حتى وصل القارب إلى الشاطئ مرة
أخرى .

وكانت أضواء مدينة « أفيان » تتلألأ من بعيد .

وهبط مدحت وجمال .

وقال جمال لصاحب القارب :

— سنعود إليك في مثل هذه الساعة غداً .

وهز الرجل رأسه .

وهبط مدحت وجمال يشقان طريقهما بين الأحرش .

وبعد نصف ساعة كان القطار يتجه بهما من « أفيان » إلى « بلجارد » .

وفرك جمال يده وهو مسترخ في مقعده قائلاً :

— مارأيك في عملية التهريب هذه ؟

وقبيل الصبح وصل الاثنان إلى « جاب » . واتجه مدحت بجمال إلى

النادى .. ثم تركه .. وسار إلى بيت « نادية » .. وقلبه يدق بين جوانحه ..

ورجفة القلق تسرى في كيانه .

(٥٠)

أحقاّ عدت؟! ..

هبطت « نادية » سفح الجبل بعد أن أتمت رسالتها الأخيرة إلى مدحت .. وقد عازمت على أن تلقى بها في البريد ثم تمر بالبيت لتودع أمها .. وتعود إلى الجبل مرة أخرى لتلقى بنفسها من الهاوية .. أو لتضع نفسها — كما قالت للمدحت — في موضعها حتى تستحق زهرته على قبرها .. وتنعم بجزنه عليها .

وعندما عادت إلى البيت تلقتها أمها بالباب في لهفة وقد بدا عليها القلق وهتفت

بها :

— أين كنت يا نادية؟! لقد أصابني القلق عليك .

— لقد صعدت فوق الجبل منذ الصباح .

— وحدك؟!

— أجل .

— ومكثت فيه حتى الآن؟!

وأطرقت « نادية » وهي تنظر إلى أمها في إشفاق وحزن .. وقد تجلت مدى

الفجيعة التي يمكن أن تصيها إذا ما أقدمت على تنفيذ خطتها .. ولحقت بأختها .

وضمتها الأم إليها وهي تقول :

— كدت أجن خوفاً عليك .

— لماذا؟! إني لم أفعل شيئاً غير عادى .

— لم أتعوّد منك هذه الغيبة وحدك .. وخشيت أن يكون قد أصابك

مكروه .

وكان الأب « رينو » يجلس أمام الجدة التي استرخت على مقعدها الكبير في

حجرتها .

وتمتت الجدة قائلة :

— إنى أخشى على الفتاة الصغيرة أن يصيبها شيء .. من فرط الحزن
والوحدة ، لا بد لها أن تبدل هذا الجو القاتم .. وتخرج من هذه الوحشة المعتمة .

وتساءل الأب رينو :

— ولماذا لا تفعل ؟

— لقد حاول أصحابها أن يخرجوها من انطوائها .. وزاروها بضع مرات ..

ولكنها كانت تضيق بهم ، وتصعد هاربة إلى حجرتها .

— إذن سأجرب أنا معها .. إن مدام كلود .. ستذهب إلى قريتها لبضعة

أيام . وأعرف أنها لا يسعدها شيء كصحبة « نادية » . وأعرف أن « نادية »

تحب كلود ، وتطمئن إلى صحتها .. وسأحاول إقناعها الآن بالذهاب معها .

ونهبض الرجل ليلقى « نادية » مرحباً :

— أهلاً بفتاتي المهاربة . لقد حضرت في الوقت الملائم ، لقد كنت أتاّم مع

جدتك على خطفك .

وشدت « نادية » على يد الرجل مرحبة وتساءلت :

— إلى أين ؟!

— إلى قرية مدام كلود .

— قرية مدام كلود ؟!

— أجل .. لقد قررنا أن بقاءك هنا .. وانطوائك في حجرتك .. أمر غير

معقول .. وستسر مدام كلود بصحبتك إلى قريتها .

— ولكن ..

وقاطعها مسيو رينو قائلاً :

— ليس هناك لكن .. لقد قررنا أنا وجدتك أن تذهبي معها .. وأظن أنك لن

تعارض .

وأجابت الأم في حماس :

— أبداً .. إني أتمنى أن تخرج من عزلتها .. لترى الناس .. وليس هناك أدعى إلى الاطمئنان عليها من صحبة مدام كلود .

وأجابت نادية :

— ولكنى لم أشك لأحد . إني لم أعد أطيق صحبة الناس .

ورد مسيو « رينو » في شيء من الحدة :

— ومن أجل هذا يجب أن تخرجي إلى الناس .. يجب أن تكوني أكثر جلدأ وأقوى تمحلاً .. يجب عليك ألا تفقدي إيمانك بالله .. وبالناس .. وبالحياة .. لقد أصابتنى نفس الضربة التي نزلت بكم .. وكدت أقضى من اليأس وأفقد الإيمان بكل شيء .. ولكنى تحاملت على نفسي وتجلدت .. وخرجت إلى الحياة .. لأفعل شيئاً أفيد به الناس ، ونزلت من دارى فوق الجبل .. وشيدت مدرسة لليتامى .. ورحت أبذل فيها كل ما أملك من جهد ومال .. حتى استطعت أن أصل بها إلى ما تريها الآن .. ولقد بدد العمل من نفسى اليأس .. وأضاع الجهاد في سبيل الناس والخير كل ما أحاطبى من وحشة وكآبة وحزن .. وهأنذا الآن كما ترينى .. أحياء وأعمل .

وصمت رينو برهة ثم ربت على ظهر نادية وأردف قائلاً .

— هيا يا بنتى .. هيا .. جهزى حقيقتك وتعالى معى .. لن تغيبى أكثر من بضعة أيام تغيرين خلالها ذلك الجو القاتم الذى تعيشين فيه .. وتكسرين ذلك الملل الذى تجرى عليه حياتك .. هيا .. إني سأقدم بك إلى مدام كلود .. أجمل مفاجأة .. هيا يا « نادية » .

ووقفت « نادية » مترددة .. وهى لا تدري بم ترد على إلحاح الرجل الذى يوشك أن يعرقل خططها المرسومة .

وهفت بها الجدة قائلة :

— هيا يا نادية .. لا تكونى عنيدة .

وربت الأم ظهرها في رقة راجية :
— هيا يا نادية . إني واثقة أنك ستكونين أحسن حالا .
وأحست « نادية » أنها لا بد أن تؤجل خطتها حتى تعود من صحبة كلود .
وتسلل إلى نفسها .. خيط رفيع من الأمل .
من يدري .. ربما تعود من القرية لتجد رداً على رسالتها .
ومن يدري أيضاً .. ربما يكون رداً جميلاً .. يعد عنها تيار اليأس الذي يجرفها
إلى الدمار .

من يدري؟! .. من يدري!؟
ولكن أمعقول أن يحدث ؟
معقول أم غير معقول .. إنه مجرد أمل .. مجرد بصيص من أمل .. يضيء
الظلمات المكدسة في حناياها .

لماذا لا تنتظر!؟
لماذا لا تمنح نفسها .. فرصة الأمل ؟
حتى ولو كانت فرصة كاذبة .. لا طائل تحتها!؟
ما الذي يدفعها إلى التعجل!؟
أهي الرغبة في الراحة .. والهروب من اليأس!؟
ولكن .. إذا كان هناك بصيص من أمل .
فلماذا لا تنتظر من أجله!؟
بصيص من أمل ؟
من الذي منحها هذا البصيص!؟
أوهاها ؟

أما زالت تحاول مرة أخرى .. أن تتعلق بالأوهام!؟
وهزت « نادية » رأسها في ضيق ثم اندفعت إلى أعلى .
وبعد لحظات كانت عربة المسيو « رينو » تنطلق بها إلى بيت كلود .. ولم

يظل بها الوقت هناك .. حتى رحلت الاثنتان إلى القرية .
واستقرت « نادية » مع كلود في قريتها .. ونجح تبديل المكان والخروج من
الوحدة .. في إزالة بعض ما بنفسها من يأس معتم ووحشة قاتلة .
ولكن لم تمض بضعة أيام .. حتى تملكها إحساس بالقلق والرغبة في العودة إلى
البيت .
وكان مبعث القلق .. ذلك الخيط الرفيع من الأمل .. الذى تسلسل إلى
نفسها .

والذى يجعلها .. تتوهم .. احتمال .. وصول رد من مدحت .
ردّ — إن وصل — سيكون الحاسم في أمرها .. المقرر لمصيرها .. وشيء
خفى في باطنها ، يسك بذلك الخيط ويثبته ويؤيده .. شيء يجزم لها أن مدحت
لن يخذلها .. وأنه يحبها هي .. هي ..
لا الصورة ..
ولا القبر .

ولمّا هي . بكيانها . وشخصها . في أية صورة على أي وضع فإن كانت
واهمة .. وإن خذلها .. فهي تعرف مقرها
إن لها في رقدتها فيه ، خير راحة وأجمل عزاء .

وصل مدحت إلى البيت .
ومرة ثانية ، وجد نفسه . يقف بالباب ليطرقة ، وشتان ما بين طرقة
وطرقة .
كانت الأولى طرقة أمل .
وكانت الثانية : طرقة تردد وخوف .
وفتح الباب ..

وأطل منه وجه جانيت .
وأحس مدحت بشيء من الخيبة . كان يتمنى لو كان الوجه المظل . الوجه ذا
الإيشارب ، والملاح الرقيقة . وهز مدحت رأسه محيياً .. ثم تساءل في لهجة
مترددة :

— أستطيع أن أرى نادية ؟

وهزت جانيت رأسها بالنفى ، وأحس مدحت بشيء يفري أمعاه . أتري
قد نفذت وعدّها !؟

أتري الوقت قد فات !؟

وأحس بأنه عاجز عن النطق .. عاجز عن الاستفسار .. لقد خشي مرة
أخرى أن يسمع .. ما سمعه أول مرة .. من « نادية » نفسها أن « نادية » قد
ماتت .

لقد روعه أن يتلقى الصدمة ثانية .

ومضى الوقت به ، وهو يحملق في صمت ، وبدا القلق على الوجه المظل من
الباب .

وأحس أنه لا بد أن يسأل . فقال في لهجته المترددة الخائفة :

— هل .. هل .. أعنى .. هل أستطيع أن أعرف . أعنى ...

وضاقت جانيت بتردده وسألته في شيء من نفاذ الصبر :

— هل أستطيع أن أعرف من أنت ؟

— أنا .. أنا .. الدكتور مدحت .. لقد أرسلت إليها تلغرافاً بالأمس .

وقاطعته جانيت لتسأله في شيء من الدهشة :

— أنت .. الدكتور مدحت .. لقد وصل التلغراف .. ولكنها لم تتسلمه

لأنها رحلت .. من بضعة أيام .

ومرة أخرى أحس بالشيء الذى يفري أمعاه .

رحلت !؟

ما معنى رحلت؟! هل يمكن أن تكون المرأة البليدة ، تعنى برحلت ، أنها ماتت ؟ ولكن لماذا تقولها بمثل هذه البساطة ، والبلادة؟! إنها لا يمكن أن تعنيها . وكان عليه أن يلم أطراف شجاعته ويسأل ، ودقات قلبه تكاد تعلو على نبرات صوته :

— رحلت .. إلى أين ؟
— إلى قرية مدام كلود .
وتنفس مدحت الصعداء .
الحمد لله . إنها ما زالت كائنة .. لم تخذله وتذهب .
ولم يستطع مدحت أن يمنح التهلل من الانبساط على أساريه ، وقال
متسائلا :

— ومتى ستعود؟!
ورفعت جانيت كتفها قائلة :
— لا أعرف بالضبط ، وإن كنت أعتقد أنها لن تغيب . قد تعود غداً ، أو بعد
غد .

غداً .. أو بعد غد؟! ولكنها على أية حال أهون كثيراً .. من ألا تعود مطلقاً .
ماذا يفعل بجمال ؟ وبالقارب المنتظر؟!
إن المفروض أن يعودا هذا المساء .
إن الفرصة ضيقة أمامهما .
إن على جمال أن يعود إلى عمله .
وعليه هو أيضاً أن يعود إلى القاهرة . فليس مفروضاً — والمعرفة يستخدم
أوارها في مصر — أن يبقى هو متسكعاً في جبال الألب .

على أية حال . إنه يستطيع أن يترك لها رسالة يشرح فيها كل مشاعره ونواياه .
ثم هو أيضاً يستطيع أن يحدث أمها . ويقنعها .
وقبل أن يفتح شفثيه ليرد على التساؤل ملأ وجهه جانيت بالقلق ، سمع صوت
عربة تقف بالباب الخارجى للحديقة .

وفتح باب العربة ثم أغلق .

وسمع صوتاً يقول :

— إلى اللقاء .

واستدار ليواجه المفاجأة العجيبة .

يواجه « نادية » .. تعبر المعر في طريقها إلى الباب .

ورفعت « نادية » عينها .. لتجد مدحت يحملق فيها مشدوهاً ، فجمدت في
مكانها بلا حراك .

ودون أن ينبس بكلمة واحدة ، مد ذراعيه وضمها إليه .

ومضت برهة ، وهو يحيطها بصدرة وذراعيه ويمسح رأسها بشفثيه وأنفه
واستسلمت هي لضمته ، وهي تهتز مرتجفة ، كالصادية أهلكتها الظمأ ،
وأحرقها الهجير .

ووقفت جانيت ترقب المنظر مشدوهة . ثم هزت رأسها في حيرة ، ودلفت
إلى الداخل .

ونخفت ضمة ذراعى « مدحت » عن جسدها .. ورفعت « نادية »
رأسها ، والدموع الصامته تهيم من مآقيها .

ومد مدحت يده فانتزع الإيشارب الذى تحيط به رأسها وعنقها ، وقذف به
بعيداً .

ثم انحنى على عنقها ، يمس بشفثيه فى أقصى آيات الحنان والحب وهو يمس
قائلاً :

— إني أحبك أنت . بكل ما فيك . على أية صورة ، وفى أى وضع . أحب

« نادية » التي أحبتني ، وكتبت إلي .

ومدت « نادية » يدها إلى عنقها تتحسس في خوف .

وهتف بها مدحت في لهجة تأنيب :

— ماذا ظننتي « يا نادية » ؟! أظننتني نافهاً .. يضيع حبي .. مجرد آثار

أعتقد أني أنا المسئول عنها ، فلو كنت قد بقيت معك حتى أجريت لك العملية لما تركت هذه الآثار التي تركها هذا الأحمق في عنقك .

وكانت « نادية » تنظر إليه مشدوهة ، دون أن تنطق بكلمة . وعندما استطاعت أن تتحدث .. هتفت ، وهي تتحسس ذراعيه كأنما تحاول التأكد من أنه حقيقة واقعة :

— أحقاً عدت ؟!

وعاد مدحت يضمها إليه ضاحكاً ، وهو يقول :

— طبعاً عدت . ماذا كنت تظنيني فاعلا إزاء رسالتك العجيبة ؟ أكنت

أتركك تركيبين حماقتك وأرسل تلغراف تعزية إلى « ماما » ؟

وضحكت « نادية » ، وقالت ، وهي تمسك بيده وتقوده إلى الداخل :

— ألا تنوى التعرف بماما هذه المرة .

— بل أنوى أخذك أنت وهي إلى مصر الآن ؟

— الآن ؟!

— أجل .

— غير معقول .

— ليس هناك شيء غير معقول ، ولا مستحيل ، بعد أن وجدتك .

— ولكن لماذا نرحل الآن ؟!

— لأن مصر قد أصبحت في حالة حرب مع فرنسا ، وقد دخلت إلى الحدود

متسللا ، في قارب مع صديق يعرفك .

— يعرفني أنا ؟!

- أجل .. جمال عبد السلام .
- جمال . الملحق الصحفي في سويسرا؟!
- أجل . لقد كان له الفضل في إدخالى عبر الحدود ، وقد أتى معى حتى « جاب » ، وهو ينتظرني في النادى .
- حقاً؟! إنه مخلوق نبيل .
- لا تمدحيه أكثر من ذلك . لأنى أغار .
- ونظرت « نادية » إليه ضاحكة . ثم همست قائلة :
- لا أستطيع أن أصدق أنى أعيش في الحقيقة .. أبداً . إن هذا فوق ما كنت أحلم به .
- ونظر إليها مدحت ضاحكا ، وهو يهز كتفها قائلا :
- دعينا الآن من الأحلام .. أفئقى .. يجب أن نعود حالا إلى « إفيان » فالقارب ينتظرنا هناك .
- وبدا الشرود على وجه « نادية » وأجابت :
- ولكن .. ماما؟!
- مالها ماما .. ستأتى معنا .
- غير معقول .
- دعى أمر ماما لى .. أين هى ؟
- ودخلت « نادية » إلى حجرة أمها هاتفة ، وقد بدا عليها القلق والحيرة :
- ماما . لدينا ضيف من مصر . .
- من مصر ؟
- وأطرقت « نادية » وأجابت فى حياء وتردد :
- أجل . الدكتور مدحت .. الذى .. أعنى .. أننا ..
- وتمتت الأم قائلة :
- لا داعى للشرح .. لى أعرف كل شىء . لى أعرفه جيداً من أختك

« منى » .

وازدردت نادية ريقها وقالت :

— لقد عاد ليأخذنا .

— يأخذ من ؟

— أنا وأنت ..

وأطلقت الأم تهبدة حارة . وضمت « نادية » إلى صدرها وهمست قائلة :
— منذ سنوات طوال .. أخذني أبوك أول مرة إلى مصر .. وكنت سعيدة ..
سعيدة .. كان ذلك منذ زمن سحيق .. أما الآن .. فأحس أن مكاني هنا .. إن
فرصتنا في الحياة لا تتكرر مرتين .. فعودي أنت معه .. أنا أعرف مدى سعادتك
بعودته .. وبعودتك معه .. وأحس من سعادتك .. عزاء لي عن فرقتك .. أين
هو !؟

وخرجت الأم إلى القاعة .. ونظرت إلى مدحت نظرة عطف وحنان .. ثم
مدت يدها وضمته إليها .

وانحدرت الدموع من مآقيها .. وهي تهمس :

— خذ بالك من نادية .. ما كنت لأتركها .. لولا يقيني من حبك لها ..
وحبها لك .

وقال مدحت مؤكداً :

— ولكنك ستأتين معنا .

وهزت الأم رأسها في صمت .

وتساءل مدحت في دهشة :

— لماذا !؟

— لقد فات العمر .. وهنا أرضى وأرض آباءى . وهنا ترقد حبيبتى
الأخرى .. إن في هذا الوطن شيئاً يشدني إليه ، نفس الشيء الذى يشدكم إلى
مصر ، أرضكم الحبيبة ، وموطنكم العزيز .

وهتفت « نادية » راجية :

— ولكنى لن أتركك وحدك .

— بل ستركيني الآن ، وتعودين إليّ .. تعودين إليّ مع مدحت .. ومع

أولادكما .. وأدعو الله أن تكوني أحسن مني حالا .. وأسعد حظاً .. و ..

وقاطعها مدحت قائلاً :

— ولكن فرصة العودة قد لا تسنح .. إن الحرب قد نشبت بين فرنسا

ومصر .

وهزت الأم رأسها قائلة في نبرات ملؤها الثقة والسكينة :

— الحرب أجلها محدود .. والسلام أبقي وأثبت .. إن شعور المودة بين البشر

أقوى من أحقاد السياسة .. الحب أقوى من كل شيء .. التيار ستخمد ..

والدوى سيتبدد ، وتهب نسائم السلام على الأرض دائماً .. وسنعود مرة أخرى

ليعانق بعضنا بعضاً .. إن في أرضكم المحبة .. وفي أرضنا المحبة .. والمحبة أقوى من

كل مشاعر الحقد والضغينة .

ومد مدحت ذراعيه فضم المرأة الطيبة الوداعة .. وقد سرى إليه من روحها

الوداعة شعور فياض من السكينة والمحبة والسلام .

ولم تمض الساعة حتى كانت « نادية » قد أعدت حقيبتها ووقفت الأم تودع

ابنتها والدموع تنهمر من مآقيها .

وأشارت لها « نادية » وملء نفسها الحزن والأسى وهي تهتف :

— سنعود إليك قريباً .. قريباً جداً .

والتفتت إلى مدحت وهي تسأله مؤكدة :

— سنعود إليها قريباً .. أليس كذلك ؟

— بالطبع يا حبيبتي ، سنفعل كل ما يرضيك ويريحك .

وقبل أن يذهبها إلى النادي لأخذ « جمال » .. مرّاً بالمقابر البيض المنضدة وسط

الخمائل ، ووضعها على أحدها عودين مكملين بأزهار الزنبق الأبيض .

وأخيراً أعادا إلى المحطة مع جمال .. وحملهم القطار إلى « إفيان » .
وفي الموعد المحدد ، سار بهم القارب يشق سطح البحيرة ، في سكون الليل .
وأخيراً وصلوا إلى جنيف .
ونزلت « نادية » في حجرة مجاورة لحجرة مدحت .
وفي الصباح كانت إحدى الطائرات تقلهما إلى بيروت ، حيث يأخذان
طائرة أخرى إلى الخرطوم ، ليعودا إلى القاهرة عن طريق سكة الحديد .
ووقف مدحت ونادية يودعان جمال .
وقالت « نادية » في صوت ملؤه الشكر والعرفان بالجميل :
— لست أدري كيف أشكر لك .
وهز جمال رأسه :

— تشكريني علام .. لقد سرّني أن استطعت أن أجعل من السد الوهمي
الذي كان يحول بيني وبينك حقيقة واقعة .. إني الآن أحس بشيء من الراحة ..
راحة اليأس .. فقد كنت أكره أن يحول بيني وبين سعادتي .. حاجز من
الأوهام .

وضحك مدحت قائلاً :

— آسف جداً .. لم أكن أحب أبداً أن أحول بينك وبين سعادتك .
والتفت مدحت إلى « نادية » فوجدها تحكم الإشارات حول عنقها .
وقال لها في حزم :
— ارفعي هذا الإشارب .. لا أريد أن تضعيه على رأسك أبداً .
وترددت « نادية » برهة .. ونظر إليها مدحت نظرة صارمة جعلتها تمد يدها
في سكون لتتزع الإشارب .
وصاح بها جمال :
— أجل .. هكذا أجمل .. مع السلامة .

(٥١)

معركة شعب !..

بدأت الغارات الجوية على مصر بعد أن انتهت مدة الإنذار في يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ ، وشهدت القاهرة أولى تلك الغارات في الساعة الخامسة بعد الظهر .

وكان أهل القاهرة قد تعودوا منذ يومين عويل صفارات الإنذار المتقطع . ثم سماع بضع طلقات من المدافع المضادة للطائرات .. ثم انطلاق الصفارات في عويل مستمر لتعلن انتهاء غارة بيضاء .. انقضت من سماء القاهرة من غير سوء . وسمع الناس في تلك الغارة طرقات تدك الأرض .. واختلط عليهم أمرها .. فمن قائل إنها طلقات مدافع ، ومن مؤكد أنها دكات قنابل .. ثم غلب عليهم الاستخفاف بأمرها ليقينهم بأن طائرات إسرائيل .. لا يمكن أن تتناول إلى سماء القاهرة .

لم يكن هناك من يصدق .. بأن إنجلترا وفرنسا .. يمكنهما حقاً .. أن تقدما على ذلك الجرم الأحمق والخيانة الطائشة الرعناء .

لم يخطر ببال أحد .. أن إنجلترا وفرنسا .. الدولتين الكبيرتين .. يمكن أن تنآمرا مع إسرائيل .. بمثل هذه الطريقة المفضوحة .. المزدرة . وكان بالناس .. بقايا حسن ظن بالدولتين الكبيرتين . حتى أقبل المساء .

وأطلقت الصفارات المتقطعة مرة أخرى . وأغمضت القاهرة عيونها المضيئة وسحبت على بدنها كساء الليل الأسود ، وكتمت أنفاسها لترقب طارق الليل الجديد .

وخيمت الظلمة وساد السكون .. إلا من صحبات المراقبين « طفى النور »
ومن انطلاق بعض عربات الجيش المارقة .. ذات المصايح الزرق .

ووسط الصمت المخيم .. سمع أزيز يخلق في الجو .
وفجأة .. أبصر سكان مصر الجديدة .. صوتاً يخطف الأبصار .. وحلقت
في السماء مصايح يشع منها ضوء أغرق الحى .. وكشف عن ستار الظلمة ،
وبدا الحى كأن جلاداً قد حسر عنه ثوبه .. ثم هوى عليه بالسياط ، فلم يكد
يكشف الضوء الغامر .. بدن الحى .. حتى هوت الطرقات .. شديدة متتالية ،
تدك الأرض وتهز الجدران ، وترج القلوب .

وتعالق أسنة اللهب .. وتصاعدت أعمدة الدخان .. وتوالت الضربات
العنيفة .. والأصوات المدوية .. وأحس الناس كأن السماء قد تحولت إلى قطعة
من جحيم .

واستمر جلاد الليل الأحمر يدق الأرض بطرقاته المحرقة وضرباته الموجهة .
وقد حوّل سكون الليل .. إلى ظهر أحمر صاخب ضاج .. حتى أفرغ حمولة
الدمار .. تاركاً وراءه آثاره من خرائب وأطلال وأشلاء .

وأدرك الشعب المصرى ليلته .. أن معركته .. لم تعد هينة ، وأن القتال فيها لم
يعد مع إسرائيل وحدها ، وإنما مع دولتين كبيرتين أفقدتهما الحمق صوابهما
فاندفعنا .. كمنجنون ضاع رشده فجعل يدمر ويحطم .. بلا عقل ولا روية .
وأدرك الشعب أيضاً .. أنه يخوض معركة حياة أو موت . وأنه مقبل على
كفاح شاق مرير .. سيقرر مصيره ، ومصير حريته ، ومصير مستقبل أجياله
القادمة .

وفي اليوم التالى .. تتابعت الغارات .. وتوالى الضرب والدوى ، وفي عصر
ذلك اليوم .. فى إحدى حجرات مستشفى العجوزة .. رقد عصام على فراشه
مشدود الساق ، وجلس صبرى أمامه بجسده النحيل الطويل .. وحلته
« الكاكية » وعلى رأسه الصغير قد وضع « الكاسكتة الكاكية » تحجب جزءاً

من منظاره السميك وقد وضع بندقيته عمودية بين ساقيه ، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه ، وكفيه إلى فوهة البندقية .. وأسند ذقنه إلى ظهر راحتيه وبدا واجماً شارداً .

وامتدت أصابع عصام تدير مفتاح الراديو وهو ينظر إلى ساعته قائلاً :
— أظن جمال سيتحدث الآن .

وهز صبرى رأسه في أسف وقال كأنما يحدث نفسه :

— لم يخطر ببالي أن خلق الدول يمكن أن ينحط إلى هذا الدرک .

وضحك صبرى قائلاً :

— بل وينحط إلى أكثر من هذا .. إن المثل والأخلاق تنهار أمام المطامع .

— كانت هناك وسائل أخرى .. أكرم لهما .. لتحقيق مطامعهما .

— مثل ؟!

— مثل الغزو الصريح المباشر .. لو أنهما ..

وقطع حديث صبرى صوت « جمال عبد الناصر » يعلو من الراديو .

وأرهب صبرى وعصام .. أذنيهما .

كان الصوت ينطلق عميقاً ، متهدجاً .. كانت به رنة أسي .. ولأول مرة ..

يغلب حزنه .. ثورته ، وحماسه .

لأول مرة ، يبدو الثائر العميق .. في صوت الشاب الثائر الذي غير مجرى

التاريخ ، وقفز بأتمته إلى ذرا المجد .

وانطلق الصوت الهاديء الحزين يقول :

« بدأت المؤامرة بهجوم إسرائيل المفاجيء يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ، وأعلنت

إنجلترا في أول الأمر أنها لن تستغل الفرصة ، ولكن لم يكذبين لها أن قواتنا قد

سيطرت على أرض المعركة ، وأن سلاحنا الجوي قد سيطر على سماءها .. حتى

أرسلت إنذارها باحتلال القناة من أجل حماية الملاحة فيها .

« حدث هذا في وقت كانت الملاحة فيه مستمرة ولم تهدد إطلاقاً ، والقوات

المصرية تحتشد لمقابلة القوات الإسرائيلية المعتدية وتردها على أعقابها .
« ورفضنا الإنذار لأننا لا نقبل مطلقاً أن نوافق على احتلال جزء من أراضينا
بقوات أجنبية .

« وفي الساعة السابعة مساءً أمس أصدرت وزارة الدفاع البريطاني بلاغاً بأنها
ستضرب المطارات المصرية نتيجة لرفض مصر للإنذار .

« وبدأ الضرب فعلاً .. في القاهرة والقناة والإسكندرية .

« وكان الغرض هو تدمير السلاح الجوي المصري ، وسحب قواتنا إلى داخل
سيناء وعزلها وتدميرها .. ثم احتلال مصر بلا أية مقاومة .

« وكان لا بد من اتخاذ قرار خطير .

وأحس عصام كأن يداً تقبض على عنقه وتكتم أنفاسه .

وخلع صبرى منظاره في حركة عصبية ثم مد يده وأدار مفتاح الراديو ليعلی
صوته .

وعاد الصوت الهادىء الحزين يقول :

« كان لا بد من اتخاذ قرار حاسم حتى يمكن إحباط خطط إنجلترا وفرنسا
وإسرائيل والمحافظة على قواتنا الرئيسية .. حتى يمكن أن تبقى دائماً مساندة
للشعب .

« وكلفت القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر بحماية قواته المسلحة والعمل
على أن ينضم أكبر جزء منها إلى الشعب حتى لا تتمكن القوات المعادية من عزلها
وتدميرها في صحراء سيناء .

« ولقد بدأ أمس تنفيذ هذه الخطة .

ومد عصام يده فضغط على جيبه .

وشرده فله فلم يستطع تمييزاً لصوت المتحدث إلى جواره .

أيمكن هذا ؟!

أحقاً .. سنسحب قواتنا من سيناء .. أمام قوات إسرائيل ؟!

أيمكن أن نترك أرضنا للكلاب النابحة؟!
وتجمعت الدموع في مآقي الجريح الراقد .. وعض على شفتيه حتى يرد عن
نفسه نوبة بكاء .
والتفت إلى صبرى ليجده شاردًا واجمأً وعاد يستمع إلى الصوت .. وقد أخذ
يزول عنه الأسى .. وأرتدت إليه قوته ، وحماسته وهو يقول :
« لقد أعلنت مصر أنها ستقاتل دفاعاً عن سيادتها وعن حررتها وعن
كرامتها .. سنقاتل كما كنا دائماً .. في حرب شاملة جنودها الشعب جنباً إلى
جنب مع القوات المسلحة .
« أيها الإخوة .
« إن كل فرد منكم جندي في جيش التحرير الوطنى .
« لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح .. وعندنا منه الكثير ، وستقاتل في
معركة مريرة ، سنقاتل من قرية إلى قرية ومن مكان إلى مكان .
« ليكون شعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم .
« إننا اليوم نكتب صفحة جديدة في تاريخنا .
« إننا اليوم نريد الصبر والإيمان حتى نتتصر .
« وأنا أعاهدكم أنى سأقاتل معكم من أجل حررتكم ، كما عاهدتكم من قبل
لآخر قطرة من دمي » .
وبدأت المعركة المريرة .
معركة أحس فيها كل مصرى بأنها معركة الشخصية .
بدأت المعركة المريرة .. بلا مرارة .. وإنما بجرارة وحرقة .. وحماس .
وأمسست مصر كلها كأنها معسكر مسلح .
وشقت الخنادق في الحدائق الخضر .. وريضت الدبابات في زوايا الدور ،
ومنحنيات الطرق .
ولم تعد صفارات الإنذار تثير في النفوس ذعراً .

لا .. ولا عاد الدوى .. الذى يزلزل الأرض .. يهدم الدور .. بقادر على أن
يزلزل الأفتدة أو يرج القلوب .

لم يكن الناس يسألون عن ضحايا الغارة من الشعب .. وإنما يتلهفون على
ضحايا الطائرات المغيرة .

كانت الرغبة فى القتال ، وفى صد العدو الظالم المعتدى المغير ، أقوى من كل
خوف .

لم يكن الناس ينزرون فى الخائىء ، خوفاً من الشظايا وإنما يتطلعون فى
الشرفات .. ليرقبوا الطائرات تهاوى .

وواجهت مصر .. غارات العدو على مدنها .. ببسالة فائقة وإيمان عجيب .
واستمر جلاذ الجو الأحمر .. يبذر الدمار فى الأرض الطيبة الخضراء .

ووسط هذا الجحيم وبين الحمم المتساقطة من السماء .. والأرض المزروعة
بالسلاح والجو الذى لا يهدأ فيه دوى .. ولا يصمت فيه عواء إنذار .

وصل قطار سكة الحديد من الخرطوم يحمل مدحت ونادية إلى محطة
القاهرة .. عقب رحلة شاقة طويلة .. وسارت بهما « عربة الأجرة » من
المحطة .. تشق طريقها بين المدافع المتناثرة .. فى الميادين .. والمركبات المتحركة
فى الطرقات .

ونظر مدحت إلى نادية متسائلا :

— إلى أين ؟

ورفعت نادية كتفها فى حيرة وأجابت :

— لست أدرى .. وأنا أكره الذهاب إلى بيت عمى .. ولا أعرف زوجة

عمى ، ولا أدرى هل مازال فى بيته .

وفكر مدحت برهة ثم قال لها :

— لماذا لا تذهبين لتقيمي مع والدتى .. سأمر الآن بالمستشفى ثم أذهب بك

إلى البيت .. وأعود إلى المستشفى مرة أخرى .

وتساءلت نادية :

— ولماذا لا أبقى معك في المستشفى ؟ ألا أستطيع أن أفعل شيئاً .. إن لدى

فكرة عن التمريض !؟

— أنت متعبة وتحتاجين إلى راحة .

— لا أظننى أحتاج إلى راحة أكثر منك .. فإذا كنت ستذهب إلى المستشفى

فإني أحب أن أكون بجوارك .

ونظر إليها مدحت وقال ضاحكا :

— أألدك فكرة عن طريقة معاملتى للممرضات .. أتعرفين أنى أضربهن !

وأجابت نادية ضاحكة :

— ربما .. ولكننى أعتقد أنى سأرغمك على ترك هذه العادة السيئة ..

وسأعلمك .. كيف تعامل الناس .. بطريقة أرق .

ووصلت العربة إلى مستشفى العجوزة وهبط الاثنان ، واتجها إلى حجرة

مدحت .

وفي أحد ممرات المستشفى .. سمع مدحت صوتاً يصبح به :

— مدحت .

والتفت ليجد جاد الله مقبلا عليه في حماس ولهفة .

وقبل أن يفتح ذراعيه ليضمه .. وقف ينظر إلى نادية ماخوذاً مشلوهاً .

وقال له مدحت ضاحكا :

— ألا تنوى أن تسلم .. الآنسة نادية .

وهز جاد الله رأسه قائلاً وهو يطلق تنهيدة حارة :

— أخيراً .. لقد دوختنا .

وابتسمت « نادية » في حياء ، وأردف جاد الله ضاحكا :

— لم يكن يخظر بيالى أننى سأراك حقيقة .. كنت أتوهمك عفريته تسكن

قمم الجبال .. كأنك « لولية بنت مرجان » .

- ومدت « نادية » يدها مصافحة ولكنه فتح ذراعيه ضاحكا :
— بالحضن .. أقل ما فيها .
ثم ضمها إليه في لهفة .
ومد مدحت يده ليجذب ذراعه قائلا في صرامة :
— كفى . « لا تسق الهبالة على الشيطنة » .
— الحق عليّ . لولاي ما كنت استطعت حتى رؤيتها . اسمع .. قص عليّ ما
حدث من « طقطق لسلامو عليكم » .
— ليس هذا وقته .. إني أريد أن تفرد إحدى حجرات المرّضات لنادية .
— هكذا مرة واحدة ؟ .
— أجل ستعمل معي .
— وستضربها ؟
— ليس لك بها شأن .
ونظر مدحت إلى نادية قائلا :
— أظنك تستطيعين أن تذهبي الآن لتستريحى !؟
وترددت « نادية » برهة وتساءلت :
— أستطيع أن أرى عصام ؟
— ستريه بعد .
— إني أحب أن أراه الآن .
— هل ستحدثينه عن « منى » ؟
— ما رأيك !؟
ورفع مدحت كفيه .. وقال :
— أظن أنه لا بد أن يعرف في يوم ما .. لست أدري ما إذا كان يستطيع الآن
احتمال الصدمة .
وأجاب جاد الله :

- إنه في تحسن .
وهز مدحت رأسه قائلاً :
— على أية حال لا داعي لأن تخبريه مرة واحدة .. قولي له إنها مريضة .. وبعد بضعة أيام .. يمكن أن نسوق له النبأ .
واتجه مدحت إلى غرفة عصام .. وفتح الباب وأطل عليه .
وبدت الدهشة على وجه عصام وهتف به :
— أهلاً دكتور مدحت .. لقد طال غيبتك عنا .. أين كنت ؟
— على سفر .
— في هذا الوقت ؟
— أجل .. لقد ذهبت في مهمة خطيرة .. وأحضرت معي أثمن ما يمكن الحصول عليه .. أحضرت معي شخصاً تعرفه .
ورفع عصام حاجبه في دهشة وتساءل :
شأعرفه أنا ؟
— أجل .
وتنحى عن الباب ثم دفع نادية قائلاً :
— لقد أحضرت نادية .. خطيبي .
وهتف عصام مأخوذاً :
— نادية .. لا يمكن .. غير معقول .. كيف حدث هذا . ومتى عرفتها ؟
ولماذا ذهبت إليها فجأة ؟ وكيف أحضرتها ؟
وقال جاد الله :
— حيلك .. حيلك .. هذه أسئلة تحتاج إلى سنة للإجابة عليها .. المهم أنه قد أحضرها ، وخطبها .
وصاح عصام فرحاً :
— إذن لقد أصبحنا عدايل .

وأحسن الثلاثة بلسعة أسي ، وخيم على وجوههم صمت رهيب .. وعاد عصام يقول لمدحت :

— لقد قابلت « منى » طبعاً . لماذا لم تحضر معكما ؟

وأجابت نادية :

— لأنها مريضة .

— مريضة ؟ . بم ؟

وازدردت نادية ريقها وأردفت قائلة :

— لقد أصابها التهاب رئوى .

وبدا الفزع على وجه عصام :

— التهاب رئوى ، وكيف تركتها ؟

— أحسن .. أحسن .

— من أجل هذا لم تكتب إليّ ؟ .. كيف وجدتها يا دكتور مدحت ؟ .. قل

الحق .

وأحسن مدحت أنه من الخير أن ينهى الموقف فأجاب مردداً كلمات نادية :

— أحسن .. أحسن . هيا بنا الآن ، يجب أن تستريحى يا نادية .

وهمّ عصام بالسؤال ، ولكن مدحت أسكته بإشارة من يده قائلاً :

— انتهينا .. كفى هذا الآن .. يجب عليك أن تستريح أنت أيضاً .

— ولكن ...

— سنعود عندما نستريح كلنا .

واستدار مدحت ليخرج من الغرفة عندما بدا صبرى بالبواب .

وهتف صبرى مرحباً :

— دكتور مدحت .. أهلاً وسهلاً .

ومد يده يشد على يد مدحت فى شوق .

ولم يكن فى غمرة خماسه لمدحت قد أبصر نادية فأشار مدحت يعرفه بها :

- نادية .. خطيبتى .
وفغر صبرى فاه ، ووقف مكانه مشدوهاً ، ثم هتف متمتا :
— نادية .. نادية .
ومدت نادية يدها تصافحه قائلة :
— كيف حالك يا صبرى ؟
واستمر صبرى يردد فى ذهول ، وقد جثمت على وجهه سحابة أسى ولوعة
وياأس :
— نادية . نادية . خطيبتة !
وضحك مدحت متسائلا :
— خطيبتى أنا . أية غرابة فى ذلك ؟!
وأجاب صبرى وهو يهز رأسه كأنما يحاول أن يفيق من صدمة :
— أبداً . أبداً .. إني لم أكن أتوقع .. أعنى
ثم مديده يشد على الدكتور مدحت وهو يتمم فى اضطرابه :
— مبروك . مبروك يا دكتور مدحت . مبروك يا نادية . متى أتيت ؟
— الآن .
— الآن ! وأين « منى » ؟
ومرة أخرى بدا الاضطراب على نادية ، وأجابت وهى تحاول أن تتمالك
أعصابها :
— فى جاب .
— ولماذا لم تحضر ؟
— لأنها مريضة .
وقبل أن يسترسل صبرى فى أسئلته ، سحب مدحت نادية من ذراعها قائلا :
— عن إذنكم الآن .. سنراكم مرة ثانية .
وخرج الثلاثة من باب الحجره مخلفين صبرى وعصاماً مغرقين فى دهشتهم .

(٥٢)

متعة جزاء ...

في فجر اليوم التالي .. يوم الاثنين ٥ نوفمبر ، بدأ غزو القوات المعادية لبورسعيد ، وركزت القوات الفرنسية والإنجليزية هجومها بالقنابل والصواريخ على المدينة الباسلة .. وحلقت الطائرات في الشوارع لتصب رصاصها من ارتفاع خفيض على الأهالي الوداعين .

وفي السابعة والنصف بدأ هبوط أول موجة من موجات المظلات في سماء بور سعيد ، وشاهد الشعب المكافح ، المعتدين يخلقون بمظلاتهم فوق مطار الجميل والجبانة وبور فؤاد .

واندفع الأهالي .. بكل ما يملكون من أسلحة .

اندفعوا « بأيدى الهون » .. وبالسواطير والسكاكين .

اندفعوا في حماس جنوني .. ليدفعوا المعتدى .. عن أرضهم .. وعرضهم وكرامتهم .

اندفعوا ليخوضوا معركتهم المريرة .. إلى جانب القوات المسلحة .. في عزم وحزم .. وشجاعة وإيمان ..

وفي أربع ساعات .. كانت الموجة الأولى .. قد قضى عليها ..

وقبيل الظهر عاد العدو إلى إنزال موجة أخرى استطاعت أن تعزز بعض المراكز في بور توفيق ومطار الجميل .

وكان الهجوم من القوة بحيث أعلن إيدن في مجلس العموم أن بور سعيد قد سقطت

وأقبل صبرى في المساء على عصام وقد بدا متجههم الوجه .

وقال له عصام في أسى وحزن :

— أسمعتم؟! .. لقد أذاعت الإذاعة البريطانية أن بور سعيد سلمت ..

وصاح صبرى في حنق :

— أبداً .. لم تسلم .. لقد كذبت محطتنا هذا .. لقد حاولوا تدمير محطتنا ..

لإسكات صوتها .. حتى يستطيعوا نشر أكاذيبهم .. ولكن محطتنا تعلن في كل

مكان .. أن بور سعيد لم تسقط .. إننا سنقاوم حتى آخر رجل .. سنقاتل كما

قال « جمال عبد الناصر » .. من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى مكان .. سنقاتل

لآخر قطرة من دم كل مصرى .

وصمت برهة ثم أردف قائلاً :

— اسمع يا عصام .. سأذهب إلى بور سعيد .

وعلت الدهشة وجه عصام وتساءل :

— أنت؟! .. له؟!!

— إنهم في حاجة إلى كل سلاح ، وكل قطرة من عرق .

لا بد أن أقوم بواجبي في المعركة .

— ولكنك تستطيع أن تقوم به هنا .

— أبداً .. إن جبهتنا في بور سعيد يجب ألا تتصدع.. سأذهب من الليلة .. إن

لدى موعداً مع بعض الفدائيين وسحملنا عربة عن طريق المطرية .

وتهد عصام في أسى وقال :

— كما تشاء !

ونقل صبرى بندقيته إلى يده اليسرى ثم شد على يد عصام في حرارة قائلاً :

— لن نهزم أبداً .

وأجاب عصام والدموع تترقق في عينيه :

— أبداً .. أبداً .. إن شعبنا يستطيع أن يفعل المعجزات .

وخرج صبرى من الحجرة وهو يثبت منظاره على عينيه . ولم يتجه إلى

الخارج .. وإنما عرج في ممرات المستشفى حتى وصل إلى حجرة « نادية » ،
وطرق الباب .

ووصل إليه صوت « نادية » الرقيق يقول :
— ادخل .

ودخل صبرى .

ورفعت « نادية » عينها في دهشة وقالت مرحة :
— أهلا صبرى .. تفضل .

وقال صبرى وهو يقف منتصب القائمة وقد ارتجفت شفتاه ، وسلاحه في
يده :

— إني آسف لإزعاجك .. ولكنى فقط أردت أن أودعك .
— له ؟!

— لأنى سأسافر إلى بور سعيد الليلة .

— أنت ؟!

— أجل .

وقبل أن ترد عليه « نادية » دفع يده في جيبيه وأخرج ظرفاً مغلقاً وقال لها في
صوت خافت أشبه بالهمس :

— لقد كتبت لك رسالة .. وسأعطيها لك بشرط ...

وهزت « نادية » رأسها مستفسرة وقد بدا عليها التأثر والدهشة
وأجاب صبرى :

— بشرط ألا تفتحها .. الآن .

وصبمت ، برهة .. وعادت « نادية » تهز رأسها مستفسرة .
وأجاب صبرى في لهجته الهامسة :

— لا تفتحها إلا .. إذا .. سمعت نبأ استشهادى .

وأحست « نادية » برجفة وهتفت به :

— لماذا تقول هذا؟! إنك ستعود سالماً .

وأجاب صبرى قائلاً في إصرار :

— إذا عدت سالماً .. فأرجوك ألا تفتحها .. عديني

وتساءلت « نادية » في حزم :

— لماذا تقول هذا يا صبرى؟! إنك ستعود سالماً .

— عدت سالماً أو لم أعد .. هذا لا يهم .. المهم أنك لا تفتحها إلا إذا عرفت

أنى استشهدت .

وأجابت « نادية » في لهجة حزينة وصوت متهدج :

— أرجو ألا أفتحها أبداً .

ومد صبرى يده فسلمها الرسالة ، ثم شد على يدها ورفعها في رفق إلى شفتيه

قائلاً :

— أسمحين؟!!

وهزت « نادية » رأسها ، فمسها بشفتيه ثم استدار خارجاً .

وهتفت « نادية » من أعماقها :

— مع السلامة .. ستعود .. إن شاء الله .. لنقرأ الرسالة سوياً .. مع

السلامة .

واختفى صبرى .. في ممرات المستشفى .

وفي صباح اليوم التالي عاود الطيران البريطاني والفرنسى هجومه العنيف على

بور سعيد .. ليترك المدينة حنماً وأطلالا . وقبل الثامنة والنصف انطلقت مدافع

الأسطول تلك بيوت الأهالي ودمرت « حي المناخ » ومعظم المباني القائمة على

شاطئ بور سعيد في ثلاثة صفوف تقريباً ، واستمر الضرب حتى الساعة

العاشرة .

وفي الساعة العاشرة بدأ العدو إنزال دباباته وعرباته المصفحة وقواته من

المشاة .. تحت ستار كثيف من الدخان .

وخاض شعب بور سعيد معركته المريرة من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت .. تحت قنابل الطيران ونيران الأسطول .. وأخيراً استطاعت القوات الهابطة على الشاطئ الاتصال بالقوات التي هبطت بالمظلات في اليوم السابق عند كوبرى الرسوة ...

وبرغم الطيران والأسطول والمدرعات استمرت المقاومة الشعبية تزداد عنفاً .

وفي يوم وليلة تحوّل القطر كله إلى معسكر واحد كبير حتى بلغ عدد الذين يحملون بنادق خمسة ملايين ونصف مليون رجل وامرأة .

ووقف العالم يرقب الشعب الباسل المكافح في معركته ضد القرصنة والطغيان والظلم .

وأعلن الرأى العالمى سخطه على العدوان الآثم وتأييده للشعب المكافح .

وأرسل الروس إنذارهم .

ووقفت أمريكا فى الأمم المتحدة لتعلن معارضتها للاعتداء وتؤيد الشعب

المناضل ضد قوى العدوان .

وفي يوم الأربعاء ٧ نوفمبر .. اضطر الباغى المعتدى للرضوخ لقرار الأمم

المتحدة بوقف القتال .

وفي ٩ نوفمبر وقف « جمال عبد الناصر » .. فى الأزهر ليعلن للشعب :

« إن موقفنا بعد عشرة أيام من المعركة أقوى مما كان .. إن القومية العربية

تحققت وأصبحت عملاً بعد أن كانت قولاً .

الشعب قوة متحدة .. الجيش والطيران والبحرية قوة متماسكة .

اثنتان من الدول الكبرى ضد العدوان .

روسيا هددت فعلاً أنها ستسحق هذا العدوان

وأمرىكا ستعمل على القضاء عليه .

هذا هو الموقف .

الأمم المتحدة قامت بعمل مستمر .. ووقف العالم كله ضد إنجلترا وفرنسا ،
وظهرت الحرب العالمية في الأفق .. وافقت إنجلترا وفرنسا على وقف إطلاق
النار .

ولكن المعركة لم تنته بعد .
إننا سنكون على حذر دائم حتى لا نؤخذ بالخدعة والغدر .
إننا نريد السلام .. ولن يفرض علينا الاستسلام .
إن العالم يساندنا في كل مكان .
سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل .. دفاعاً عن أراضينا ، وعن سيادتنا وعن
حريتنا » .

وهكذا أوقف العدوان .. وأحبطت المؤامرة .
وانتصر الشعب المصرى المكافح في سبيل كيانه وحرية .
ولم يكن النصر سهلاً .
ولم تكن المعركة هينة .
ووقفت المدينة الباسلة .. لتؤكد .. وجراحها تنزف .. ودخان الحرائق
يتصاعد من أطلالها ، وجثث ضحاياها تتكدس بين خرائبها .. ودماء شهدائها
تجربى في ميادينها .. أنها لن تكف عن المقاومة .. حتى تتطهر أرضها .. بمن آخر
جندى .. من جنود الطغاة .. وأنها على استعداد لمزيد من البذل ومزيد من
التضحية .. ومزيد من عرق المكافحين .. ودماء الشهداء .
وبين هذا المزيد من الشهداء ، الذى قدمته المدينة الباسلة ، كان صبرى .
ووصل نبأ استشهاده في نفس الليلة .
وتلقته « نادية » في ذهول .

ومدت يدها لتحسس .. رسالته .. في صمت مومج .
وبدا لها طيفه ، بجسده التحيل الطويل . ورأسه الصغير الذى حجبتة
« الكاسكتة الكاكية » وقد أمسك بالسلاح في يده .. وهمس بها في صوت رقيق

متوسل : « لا تفتحها إلا إذا سمعت نبأ استشهادي » .
وبأصابع مرتجفة فتحت « نادية » الرسالة .
ومن خلال الدموع المرتجفة في مآقيها قرأت سطورهِ الأخيرة :
« حبيتي نادية .
« لأول مرة .. أجسر على أن أناديك مما أحس لك .. وبما أحب أن أناديك

به

« لأول مرة أجسر على أن أناديك .. بحبيتي .
« وأنت حبيتي .. منذ سنوات طوال .. منذ أن عرفت كيف أحس ..
وكيف أحب .

« ومع ذلك لم أجرؤ يوماً على أن أصارحك بشيء مما أحس .
« حتى بعد أن سافرت .. وظننت أني أستطيع في رسائلي أن أكتب لك في
بعدك ما عجزت عن قوله في مواجهتك .

« ولكنني لم أكن أجرؤ .

« كنت أحس بالخشية ..

« والتردد .. والعجز ..

« لست أدري له .

« لأنك كنت أول حبي .. وأول تجربتي !!
« ألأني .. كنت أخشى ألا أكون كفوفاً لك .. وألا يكون .. نصيبي
منك .. سوى الصد والسخرية !!

« جائز هذا .. وجائز ذلك .

« لقد ظلمت .. طيلة هذه السنين .. أتحدث إليك .. وأكتب لك .. دون
أن أجرؤ .. مرة واحدة .. على أن أقول لك .. إني أحبك ..

« ولكنني أحس الآن ، وأنا أكتب إليك .. أن إحساساً جديداً في باطني ،
يمنحني الجرأة على قولها .. إحساساً يمنحني الشجاعة ، والقدرة ، على أن أهتف

بك .
« إني أحبك .. أحبك .. أحبك .
« أقولها ، وبنفسي جرأة عليها .. لأنني لن ألقاك بعد .. حتى أواجه ما قد ألقاه
منك ، من إيلام صد ، ومرارة وسخرية .
« أقولها ، وبنفسي جرأة عليها .. لأنها لن تصل إليك .. إلا .. وأنا شهيد ..
« والإحساس بالاستشهاد يمنحني إحساساً بالجرأة .
« ويملاً نفسي ثقة بأنني قد أصبحت كفتاً .. إن لم يكن لحبك .. فعلى الأقل
لتقديرك .

« هل تدرين السعادة التي أحس بها .. عندما أتخيل أني سأستشهد .. وأنتك
ستفتحين رسالتي ، وأنتك ستسمعين هتافى بك « إني أحبك » ؟
« بل هل تدرين المتعة التي أحس بها الآن .. وأنا أجد في نفسي الجرأة على
ترديدها .. والإحساس بأنها عندما تصل إليك .. لن تكون محل سخرية ، لأنها
ليست من محب عابث ، بل من محب شهيد ؟
« الاستشهاد؟؟

« ما تصوّرت قط أن يكون للاستشهاد .. مثل هذا الإحساس الممتع .
« إني أحس له بمتعتين : متعة البذل .. ومتعة الجزاء .
« متعة البذل .. من أجل مصر .
« من أجل وطننا .. الجريح . المظلوم . المعتدى عليه .
« وطننا .. الذي استكثر عليه الطغاة حرّيته .. وكرهوا له أن يأخذ حقه في
الحياة ، وأن يسترد أرضه ، ويستعيد موارده .
« متعة البذل .. من أجل كفاح المعتدى . وصد الباغى
« البذل من أجل صيانة أرضنا ، وعرضنا ، ومستقبلنا ، من قيود استعمارها ،
وذل طغيانه .

« وإذا لم نبذل نحن أبناءه .. فمن الذي يبذل من أجله ؟!

« إن صد العدوان .. يحتاج عرقاً ، ودماء .
« فإذا لم نبذل نحن من جباهنا العرق ، ومن عروقنا الدماء .
« فمن الذى يبذل له ؟ ومن الذى يقيه الشر ويصد عنه الأذى ؟!
« هذه هي متعة البذل التي أحس بها .
« أما متعة الجزاء .. فهي جرائق على مناجاتك .. وعلى أن أقول لك : حبيبتى
« نادية » :
« وإحساسى بأنى لن ألقى منك صداً ولا سخرية .
« ولهفتى على تقديرى لى ، وثنائى على ، وحزنك من أجلى .
« وطمعى فى عبرتين تسكينهما .. على قبرى إن كان لى قبر ، وعلى رسالتى
« إن حرمته » .

« صبرى »

وتكاثفت طبقة الدمع فى مآقيها .. حتى حجبت رسالة الشهيد .. وانحدرت
عبرتان . لتستقرا بين السطور وتمتزجا بالكلمات ، وتحملا لروح الشهيد ، متعة
الجزاء ، بعد أن منح الوطن متعة البذل .

الختام

أقبل مدحت على « نادية » يكفكف دمعها .. وضمها إلى صدره وهو
يتحسس شعرها وعنقها قائلاً في صوت رقيق :
— أظنك الآن تستطيعين العودة إلى البيت !
— أى بيت !؟

— بيتنا .. لقد تركته أُمى خلال الغارات لأنه ملاصق للمطار وذهبت إلى
بيت أخيها في شبرا . وسنمر عليها اليوم لكي نعود بها إلى البيت . إنها في حاجة إلى
معونتك .

وصمت برهة ثم تتمم في حيرة :
— لست أعرف شيئاً عن إجراءات الزواج .. ولكن لا شك أن أُمى تعرف
كل شيء .. وسنتصل بعمك سليمان .. ليحضر إلينا .
وتهدت « نادية » وانحدرت عبراتها من عينيها وكفكفها مدحت ضاحكا
وهو يقول :

— انتبهنا .. لا عبرات بعد الآن .. بل حياة .. وأمل .. وبسمات .. وسلام
لنا .. ولوطننا .. ولكل الناس .

(تمت)

فهرست الجزء الثانى

صفحة

٣٥١	٢٩ — دعوة فى الأوهام
٣٦٥	٣٠ — رد على دعوة
٣٧٩	٣١ — لن يراها
٣٩٢	٣٢ — إنه يجبها !!
٤٠٧	٣٣ — فك قيد
٤٢٢	٣٤ — تفكير فى زيارة
٤٣٦	٣٥ — حق يسترد
٤٥٠	٣٦ — لا يمانع
٤٦٤	٣٧ — تدبير للقاء
٤٨٠	٣٨ — محاولة هروب
٤٩٦	٣٩ — لا ينساها
٥١٠	٤٠ — ليل بلا عويل
٥٢٤	٤١ — صلاة
٥٣٦	٤٢ — لم يعد وهما
٥٥١	٤٣ — ضمة على قبر
٥٦٦	٤٤ — وداع له معالم
٥٨١	٤٥ — أمر تكليف
٥٩٦	٤٦ — جريح
٦١٠	٤٧ — فى موضعها
٦٢٣	٤٨ — انذار !

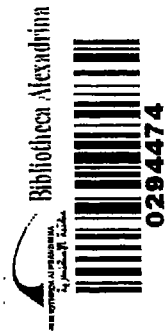
صفحة

٦٣٧	٤٩ — عملية تهريب
٦٥٢	٥٠ — أحقاً عدت ؟
٦٦٥	٥١ — معركة شعب
٦٧٦	٥٢ — متعة جزاء
٦٨٥	٥٣ — الخاتمة

رقم الإيداع ٤٠٦٩ / ٨٧

الترقيم الدولي ١ - ٠٣١٢ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كاننل صدقي - البحالة



الثلث ٨٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
معهد جوده السحار وشركاه